سيرة ذاتية ترجمة:
د. أحمد محمد البدوى

محمد على دوس

حياة مغامرة

تاريخ العمل السياسى العربى الأفريقى

مركز البحوث العربية

محمد على دوس

حيـا ة موارة
فى تاريخ العمل السياسى العربى الأفريقى

سيرة ذاتية ترجمة
د . أحمد محمد البدوى



الناشر

مركز البحوث العربية

للدراسات والتوثيق والنشر

١٤ ش عبد العزيز الدرينى - المنيل - القاهرة.

الطبعة الأولى : ١٩٩١

ت : ٣٦٢٥٦٨٧

فاكس: ٣٤١٩٣٨٣

تلكس: Naoom UN ٢٣١٧٢

تصميم الغلاف : مايسة خليل

الجمع والإعداد الفنى بمركز البحوث العربية

الإهداء

إلى العلامة : خليل محمود

بعض بضاعتكم يرد إليكم. فى هالة من الإجلال . ومع كل الإقرار بالفضل والسابقة .

وإلى إيان دوفيلد

الذى كتب أطروحة دكتوراه رائعة عن دوس محمد على، وبقيت مغمورة غير منشورة كالذهب المكدس فى باطن الأرض .

المحتويات

تصدير مركز البحوث العربية

يتنافس المتخصصون فى مصر والسودان على انتماء محمد على دوس (١٨٦٦ - ١٩٤٤) منذ كتب عنه الدكتور عبد الملك عودة فى مصر وخصص له معهد الدراسات الأفريقية بالخرطوم إحدى رسائله العلمية.

ولم يدفع كل ذلك محمد على دوس إلى ساحة الفكر السياسى والعمل السياسى العربى والافريقى بما يستحقه، رغم نشأته في أسرة «عرابية» وحتى تشييع جماهير إبادان فى نيجيريا لجنازته عام ١٩٤٤.

وفى رحلة امتدت من بيت دكتة القوات البريطانية فى الاسكندرية ١٨٨٢ إلى حى الملونين التعساء في لندن، إلى وسط الزنوج المقهورين في الولايات المتحدة، إلى العواصم المناضلة من أجل الاستقلال في غرب أفريقيا، كانت رسالة «محمد على دوس» هى «الوطنية» ، وهى التى جعلته يتصدى لدعاوى الرئيس روزفلت ضد الوطنيين المصريين عام ١٩١١، كما جعلته يقف إلى جوار مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول فى رحلتهم ضد الاستعمار في عواصم الغرب. وهى نفسها التي جعلته أحد أبرز الراعين «لاتحاد المسلمين والمسيحيين»، و«اتحاد الملونين»، و«اتحاد الوطنيين الأفريقيين والآسيويين» في الأطر الوطنية القومية...بل ومن موقعه فى لندن كان يساعد مقاتلى الحركة السنوسية والتنظيمات التركية الوطنية في مطلع هذا القرن ولعل ذلك هو السبب في أن محمد على دوس لم يجد عناية فى كثير من الأدبيات التى أرخت لحركة الجامعة الافريقية فى الغرب في الوقت الذي تجاهلته أيضا الدراسات العربية..

ونحن فى أشد الحاجة لمثل هذا «النفس الوطنى» . مهما اتفقنا معه واختلفنا.. نجد أن جهد الدكتور «أحمد محمد البدوى» الذى جاء من الخرطوم حاملاً ذكريات محمد على دوس لتنشر في القاهرة، يستحق تقديرنا وإعزازنا .. فى مثل هذا الوقت.

وإذ نستعير فى صدد هذا العمل تقديم باحثة مصرية هى الأستاذة إيزيس اسحاق مرقس لشخصية محمد على دوس الافريقية وتاريخه، فى إحدى دراساتها الافريقية، فإننا نستهدف إحاطة شبابنا - في الوطن والغربة - بأحد جوانب هذه الشخصية الوطنية الفنية التى عملت في الفكر والسياسة والمسرح طوال حياتها «الموارة» كما يسميها مترجم «الذكريات». ولعلنا بذلك نعالج بعض قصور الدراسات الغربية والعربية على السواء، بل ونعالج بعض قصور المهتمين بالأسس الفكرية والشعبية للعلاقات العربية الافريقية...

مركز البحوث العربية

محمد على دوس
وحركة الجامعة الأفريقية *

ايزيس اسحاق مرقس
باحثةبالهيئة العامة للاستعلامات (مصر)

قليلة جدا تلك الدراسات التي أشارت بعناية لدور المثقف المصرى « فى حركة الجامعة الأفريقية » رغم أن شخصيات مصرية ، مثقفة وسياسية متعددة قد قامت بأدوار مختلفة في هذا المجال . فبالإضافة لما ذكر عن صلة شخصيات الحزب الوطني المصري منذ مطلع هذا القرن بشباب حركة الجامعة الافريقية في أوروبا ، فإن هناك شخصية مصرية مثقفة كان لها دور بارز في تاريخ هذه الحركة ، سواء في أوروبا أو علي الأرض الافريقية لاكثر من نصف قرن . تلك هي شخصية (محمد علي دوس) التي تصدت في النصف الأول من القرن العشرين للدفاع عن فكرة الجامعة الأفريقية من (ارض الغربة) ، سواء من لندن أو نيويورك ثم علي أرض القارة ... نيجيريا .. لقد كرس ذلك المهاجر المصري حياته لخدمة القضية ، من خلال كتاباته الصحفية - لاسيما صحيفتيه " التايمز الافريقية " و " الكوميت النيجيرية " - فضلا عن تحركه اكاديميا وتنظيميا من اجل قضية الشعوب الملونة عامة ، وتحرر أفريقيا الغربية ونيجيريا خاصة ، كما قدم لمصر مؤلفه " في بلاد الفراعنة " الذي يعد باكورة الإنتاج للتاريخ الحديث لمصر ... فضلا عن عطائه لقضية التضامن الافروآسيوي منذ وقت مبكر.

لاشك أن دوس ، شخصية ذات أبعاد ثقافية وطنية مصرية وافريقية وإسلامية ، تستحق

* المقال منشور فى مجلة أفريقيا - العدد ١ ، دار المستقبل العربى، القاهرة، ١٩٨٦

الدراسة ، ولعل ما يلفت نظر الباحث ظاهرة طمس إسمه ضمن أقطاب حركة القومية الأفريقية التي برزت في سماء مصطلحات السياسة الدولية في النصف الأول من القرن العشرين .

تعريف

ولد محمد علي دوس (١٨٦٦ - ١٩٤٤) ، في الاسكندرية ٢١- ١١ - ١٨٦٦ لأب ضابط في الجيش المصري وأم سودانية كما تعكس ملامحه .

أرسله والده - الذى انتهي بعمق للمستقبل الى أهمية اللغة الانجليزية - الى بريطانيا وهو في سن التاسعة ليتلقي تعليمه ، حيث كان يقوم بالإشراف عليه كابتن فرنسي مقيم فى لندن منحه لقب عائلته (دوس) تميزا له عن غيره من الأعداد الغفيرة من المسلمين ممن تسمي بذلك الاسم محمد علي .

وأقام في بريطانيا حتي أتم دراسته في التاريخ بجامعة لندن ، ثم التحق بالمسرح على عكس ما كان أمل والده معلقا على تخصصه في الطب ليتدرج بعد ذلك ضابطا في الجيش .

استشهد والد دوس محمد فى التل الكبير وهو يحارب فى جيش عرابى ضد بريطانيا ، وفى عام ١٨٨٢ تعرضت أسرته المقيمة بالاسكندرية لوابل من قنابل الأسطول البريطاني كمقدمة للاحتلال البريطاني لمصر ، كان نتيجته أن انتقلت والدته وإخواته الى السودان حيث لم يعد يسمع شيئا عن أخبارهم [١].

لاشك أن لنشأة دوس محمد ، أثرا كبيرا فى أفكاره وآرائه ، فلقد كان لوالده صداقة وثيقة بالزعيم المصري والضابط الشهير أحمد عرابى باشا ، الذى تبني قضية الفلاح المصري ضد إستبداد ملاك الاراضي الأتراك .. مما سوف يبدو عمق أثره بالقضية التحررية عامة وقضية مصر خاصة .

ومما يجدر ذكره أن دوس كثيرا ما أبدى ندمه علي السلك الذى أدرجه فيه والده فيما يتعلق بثقافته اللغوية ، إذ أن إقامته الدائمة فى لندن قد أفقدته كلية معرفة اللغة العربية ، الأمر الذى اعتبره خسارة جسيمة ، تحول دون التفاهم مع الشخصيات المصرية الهامة التي كانت تتاح له فرصة مقابلتها في منزل والده بالقاهرة حين كان يقوم بزيارته .. علي سبيل المثال - كقوله انحصار الحوار بينه وبين عرابي باشا ، بسبب افتقار دوس للعربية ، كما سجل

ذلك في إحدي أعداد صحيفته " التايمز الأفريقية " ، الشهرية (مارس ١٩٢٠ - ص٥) .

يرى الرأى المتخصص أن حياة دوس محمد تقع في مراحل أربع [٢] .الأولى ، قضاها في المسرح البريطاني ، حيث برزت لديه آمال ، بأن يجعل من ذاته إنسانا منفتحا للنفس البشرية لايعوقه لون أو جنس أو دين ، وقد ظهر نشاطه المسرحى فى هذه الفترة بظهور العديد من مسرحياته .

وقد حاول دوس وفقا لهذا الرأي- من هذا المنطلق - أن يوجد نوعا من التنسيق في العلاقة بين الأجناس، بتطبيق ذلك علي حياته الخاصة ، فتزوج بأولي زوجاته إنجليزية ثم بثانيتها أمريكية بيضاء، كما يقال أنه كان مأخوذا بسحر مصر القديمة ، الأمر الذي بدا في قصائده ومسرحياته التي تفصح عن اعتقاده بأن مصر وطن أجداده يمكن أن تضطلع بدور ملطف للعلاقات العدائية بين الاجناس البيضاء والملونة ، وهي العلاقة التي وقف علي أبعادها في كافة المجتمعات التي عايشها.

بينما كرس المراحل الثلاث الأخري من حياته من أجل القضية القومية منطلقا من أرض الغربة ، في لندن ثم الولايات المتحدة وأخيرا من لاجوس عاصمة نتيجيريا ، حيث انهي البقية الباقية من حياته الثرية ، التي يدور محورها حول العطاء السخي لافريقيا ، كما سوف نري .

عام ١٩١١ و (في بلاد الفراعنة)

يعد عام ١٩١١ بدون شك حجر الاساس في حياة دوس محمد الفكرية وبالنسبة لقضية التحرر القومي عامة وقضية الرجل الاسود خاصة وهي القضية التي كرس لها دوس كما تقول مراحل حياته الثلاث في لندن ، (١٩١١ - ١٩٢٦)، والولايات المتحدة الامريكية (١٩٢٦ - ١٩٣١) ونيجيريا (١٩٣١ - ١٩٤٤) .

في هذا العام فاجأ دوس العالم المتحضر بمؤلفه الرائع (في بلاد الفراعنة) ، وهي السنة التي شهدت ايضا نشاطا ملموسا في قضية تحرر الشعوب الملونة ، بظهور مؤلف كيسلي هاينورد مثقف غرب افريقيا المقيم في لندن ، تحت عنوان (افريقيا بلا حدود) [٣] كما عقد المؤتمر العالمي الاول للاجناس العالمية بلندن .

ولعل مؤلف (في بلاد الفراعنة) هو أول وأهم ما يستوقف نظر الدارس (لدوس محمد)

علي اعتباره باكورة الانتاج لتاريخ مصر الحديث ، علي يد مصري وان صدر باللغة الانجليزية[٤] ، كتعليق الصحافة البريطانية في مدحها لهذا المؤلف ابان ظهوره .

وهو المؤلف الذي منح دوس شهرة مفاجئة ، ومنحته تلك الشهرة بدورها التعاقد للقيام باعداد البرنامج الفني للمؤتمر العالمي الاول للاجناس ، الامر الذي قام بتنفيذه باستمتاع وحيوية شديدة ، كما كان هذا التاريخ ايضا مؤشرا لإنطلاق دوس في عطائه لقضية الشعوب الملونة عامة ببزوغ صحيفته الشهرية (التايمز الافريقية) كما سوف نري .

اصدر دوس مؤلفه " فى بلاد الفراعنة " خلال ثلاثة اشهر بعد اعلان الرئيس الامريكي روزفلت بعض الملاحظات غير الصحيحة عن مصر وذلك ابان زيارته الخاطفة للقاهرة ، وهي الملاحظات التي اثارت دوس بسبب زيفها ، الامر الذي يورده ويقوم بدحضه لرؤياه بالنسبة لاحداث مصر ، بل ينتهي دوس الي رفض السياسة البريطانية خاصة والسياسة الاستعمارية عامة من قضايا التحرر بشكل عام وقضية افريقيا الشرقية علي وجه الخصوص [٥] .

يدور مجمل ما احتوته خطبة الرئيس الامريكي ، في القاهرة ، حول إدانة الشعب المصري وزعماء الحزب الوطني واتهامه بمسئولية اغتيال رئيس الوزراء المصري بطرس باشا غالي . كما يذهب الرئيس روزفلت الي اعتبار المظاهرات التي انتفض بها الحزب الوطني ابان امتعاضه من خطبة روزفلت (عند فندق شبرد) بانها انتفاضة الصبية الغوغاء .

كما احتوت خطبته بعض الشعارات مثل الحق هو الرفيق الامين للانسان في الحياة – وان كان يحمل عدم الرضا عنه – وليس الباطل والزيف – وان حمل في طياته كل عناصر اللطف وكذلك شعارات النضال ضد الاخطاء ، و " الشاعرية ... والحق " عمودي الحكم الغربي لتحقيق السعادة للجنس البشري ، ومستقبل الحضارة والمدنية في العالم .

في رحلة لاعماق مفاسد الحكم البريطاني في مصر وشرق افريقيا البريطانية والولايات المتحدة الامريكية ، قام دوس في مؤلفه ، برفض لتلك الادعاءات وكشف لزيف الشعارات التي رفعها الرئيس الامريكي في خطبته مؤكدا علي زيف مبدأ الشاعرية والحق رفيقي العمر للقوي الغربية ، وقد طالب الحزب الوطني المصري بالاستقلال والتحرك لوضع حد للاحتلال البريطاني ، كما كشف عن اوجه التعصب والتفرقة العنصرية داخل حدود اوغندة وشرق افريقيا

عامة ،فضلا عن الاضطرابات التي تعم الولايات المتحدة في مواجهة الزنوج وهي ما جعلت دوس يطلق نداء موجها للرئيس روزفلت بالقول: " يامن تنادي بفعل الخير للعالم فلتبدأه في وطنك وبين قومك " .

وفيما يتعلق بآراء روزفلت عن الوضع في مصر ، اكد انه احقاقا للحق الذي يتحدث عنه ، فان المسئولية الادبية لمقتل رئيس الوزراء المصري ملقاة علي عاتق النظام البريطاني ، وليس علي قادة الحزب الوطني كما يدعي هو . كما اكد خلو النظام البريطاني والامريكي من اي شاعرية او دفاع عن الحق ، وان القول بانه يهدف الي تحقيق رفاهية الشعوب المتخلفة ان هو الا مسرحية هزلية خاوية ، بل لعله من الطريف في هذا المجال ان يحول دوس محمد ملاحظاته علي خطبة روزفلت من مجرد رد عليها الي هجوم ضد النظام الغربي برمته ، سواء كان في مصر ام افريقيا ام زنوج امريكا ، بل ويقوم بتذييل لهذا الهجوم ، يتقدم فيه بالنصح والارشاد للرئيس الامريكي ، بان يتوخي الجدية في تناوله للمشاكل ، تأييدا لمطلب الفيلسوف الغربي الشهير بيرك الذي يعتبر ان عدم مراعاة الجدية في تناول المشاكل الهامة مسلك لاأخلاقي لاتجدي معه اية اعذار بحسن النية .

دوس والحركة الوطنية في مصر

لعل السؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد ، موقف دوس من الحركة الوطنية ، طالما له تلك الرؤية الواضحة لاحداث مصر كما اوردها في مؤلفه " فى بلاد الفراعنة " ... وهو السؤال الذي طرحته غالبية المصادر المتخصصة [٦] .

لاشك ان دوس لم يكن له اي دور تنظيمي في هذا المجال كما هو معروف ، ولكن مما لاشك فيه ايضا أنه كانت له رؤيته الواعية التي تعكسها دراسته المنظمة للحركة بابعادها الاصلية منذ حركة عرابي باشا والشخصيات الوطنية المصرية من بعده ، مصطفي كامل باشا و محمد فريد[٧] .

ويري الرأي المتخصص ان صحيفته " التايمز الافريقية " ، قد لعبت دورا هاما في الدعوة لآراء مصطفي كامل باشا (١٨٧٤ - ١٩٠٨) مؤسس لحزب الوطني ، بحيث يمكن اعتبارها جهازا باكمله في الدعوة لافكاره وافكار الزعيم محمد فريد من بعده ، الذي دافع بحماس من

اجل الحكم الذاتي لمصر في سنوات مابعد الحرب العالمية الاولى ، وينتهي هذا الرأي الي ان دوس كان لاشك مؤيدا لحركة سعد زغلول زعيم ثورة ١٩١٩ وحزبه الوفد ، الذي نجح في النهاية لتحقيق الاستقلال - القانوني - لمصر عن بريطانيا سنة ١٩٢٢ [٨] .

والمعروف أن دوس تعرض في مؤلفه الذي نحن بصدده ، أيضا " للصحوة الوطنية في مصر" والتي بدت - في كلماته - منذ سبتمبر ١٨٩٥ بصدي عبير امنيات السيدة جولييت آدم التي كتبت تقول أنها كم كانت تود لو أن مصر القديمة توقظ مصر الحديثة مشيرة الي دور ذلك البستاني الماهر مصطفي كامل الذي سوف يتألق نجمه كمحام للمصريين ورافع لواء القضية المصرية الوطنية .

لعله من الطريف أن يتعرض دوس بإطناب لما يعد أصداء الحركة الوطنية في هذه الفترة ، فتبدو ملامح الحياة المصرية من خلال جولات صحف " المقطم " ، " والطائف " ، للاديب عبد الله النديم و " اللواء " ، فضلا عن بعض مقتطفات بقلم السيدة جولييت آدم فى " مصر الفتية" ، ومن مقالات قام بترجمتها الزعيم مصطفي كامل من الفرنسية مؤكدا أنها أمور كان لها أكبر الاثر فى إشعال روح الحماس المصرية الوطنية .

ومن جانب آخر تطرق في حديثه فى هذا الصدد الى الدفاع عن شخصية مصطفي كامل ، فى مواجهة الشائعات البريطانية من أنه مجرد عقلية خاوية مثيرة للاضطرابات متطرف لعمله الخلاق لتأسيس " المدرسة الوطنية " ، في مصر (٣٠٠ تلميذ) ، وإصدار صحيفة اللواء ١٩٠٢ ذات الشعبية .. مؤكدا أن سبب تخلف مصر يكمن في دياجير ظلام الجهل المتفشي فيها وفقا للسياسة التعليمية الاستعمارية .

عطاء افريقي من لندن

لقد كلف دوس محمد بشغل منصب مدير الاعلانات والمراسم للاعداد للمؤتمر العالمي الاول للاجناس العالمية ، في لندن سنة ١٩١١ اي في نفس العام . وهو المؤتمر الذي يعد الاول من نوعه لإنشاء علاقة هامة بين الافريقيين والافروامريكيين وبينهم وبين الآسيويين ، وقد كان فرصة للتلاقي مع العديد من الشخصيات المهتمة بقضية الشعوب الملونة ، أمثال المعلق الصحفى الشهير (للافريقيات) ، تايلور المقيم في لندن ، والذي دعا دوس لاصدار صحيفته

" التايمز " بهدف تعميق المصالح التجارية في أفريقيا ، الامر الذي وافق عليه دوس ، فصدرت الطبعة الاولى في يولية ١٩١٢ تحت اسم The African Times and Orient Re-view وهي الصحيفة التى بدأت شهرية ثم تحولت الى أسبوعية لسنة ١٩١٤ ثم عادت شهرية في الفترة من ١٩١٧ - ١٩٢٠ . وقد صدرت الصحيفة بالتعاون من كيسلي هايفورد ، لرفع دعوة متاصرة قضية الشعوب الملونة في كافة مجالاته السياسية والادبية والفنية والتجارية .

يرى بعض المتخصصين أن صحيفة دوس تعد إحياء لذكري صحيفة الجامعة الافريقية Pan Afrecan - التى أصدرها سلفستر ويليامز محامي ترينداد الشهير وهى أول صحيفة في مجال الدعوة لقضية القومية الافريقية ، حيث ظهرت على شابهتها من حيث الشكل والقضية محور الاهتمام [٩] .

وفي الصحيفة التى تعد عاملا هاما كما سبق الذكر لرفع قضية الجنس الملون في شتى أنحاء العالم وزنوج أفريقيا والعالم الجديد خاصة ، فضلا عن اعتبارها منجما هاما للمعلومات بالنسبة للمؤرخين ، لاسيما وقد تخصصت في عرض القضايا المثارة آنئذ ، مثل مساوئ النظام الاستعماري البريطاني وتسجيل كافة المؤتمرات الافروامريكية - اوروبية ، وتقارير خاصة بالاكاديمية الامريكية للزنوج ، ونقد للسياسة البلجيكية في الكونجو ومقالات خاصة بشمال افريقيا ، مصر ومراكش علي سبيل المثال ، والاوضاع في بعض الدول الآسيوية مثل تركيا وفارس والهند واليابان والصين[١٠] ، مما اضفي عليها لونا جديدا علي اعتباره فتحا لآفاق أفروآسيوية ، كذلك تضمنت الصحيفة التعريف باهم زعماء حركة القومية الافريقية امثال سولانيك وجارفي ، وسيكي ود. كيسلي هايفورد زعيم منظمة (جامعة حقوق المواطنين الاصلية) ، والذي يقف علي قمة المهتمين بالقضية من مثقفي غرب افريقيا ، وممن حرصوا علي الحوار الدائم بالصحيفة كما يسجل له وقفته في العبور بها في ازمتها المالية فضلا عن القيام بالدعاية لها في قارة افريقيا .

ومما يذكر أيضا دعوة دوس في العدد الاول لصحيفته الى أهمية وجود صحيفة ناطقة بلسان الجامعة الافريقية وأخري ناطقة بلسان الجامعة الشرقية Pan - African , Pan -

Orient لتضع آمال وأهداف الجنس الاصفر والملون والاسود موضع التنفيذ .

وتذهب بعض الآراء الى استثناء غالبية مصادر جارفي من صحيفة دوس ، لاسيما فيما يتعلق بالتاريخ والطبوغرافية والوضع العمالي للافريقيين ، ومما يذكر أنه قام بنشر أول مقال له في صحيفة دوس تحت عنوان « جزر الهند الغربية مرآة الحضارة » .

يسجل لدوس من جانب آخر خدمته لقضية الافريقية ، تلك المذكرة الشهيرة - التي تشير إليها غالبية المصادر - لعصبة الامم ، وفيها يطالب بإقامة حكومة فى المستعمرة الالمانية السابقة لشرق أفريقيا اعضاؤها من مثقفي الزنوج الامريكيين وزنوج الهند الغربية البريطانية ، وهو المطلب الذي ذيله دوس بتعليق يتضمن عدالته وبعده عن الحماس العاطفي ، على اعتبار أن أمر عودة جماعة من مثقفي الزنوج الي الوطن الام للاضطلاع بمهمة انجاز مصالحه ، لهو من الامور التي يمكن تحقيقها ، منوها في نهاية تلك المذكرة لعصبة الامم بالمخاطر التي تهدد الكيان الزنجي في حالة افتقاره الي الاطار المناسب للتعبير عن ذاته سياسيا واقتصاديا وثقافيا .

لاشك أن تلك المذكرة تعد في حد ذاتها من الامور الهامة التي تضيف لنشاط دوس في مجال تلك القضية بعدا هاما له أهميته ، إلا أن كافة المصادر اكتفت بتلك الاشارة ولم ترد بأية تعليقات .

وفيما يتعلق بتعقيب دوس علي بعد مطلب مذكرته عن الحماس العاطفي ، فلا شك أن فيه تنويها بدعوة جارفي الخاصة بالعودة الي أفريقيا أرض الاجداد الامر الذي رأي ، دوس استحالة في تنفيذه .

في إطار تنوع النشاط القومي لدوس في الفترة مثار حديثنا (١٩١١ - ١٩٢٠) إشترك دوس في عقد مؤتمر تحت إشراف كل من " الجمعية الافريقية وجمعية المواطنين المناهضين للرق " في إبريل ١٩١٣ بهدف دراسة وضع الطلبة الافريقيين في لندن ، حيث أبرز دوس رؤيته الخاصة بالسياسة التعليمية الاستعمارية ، ويسجل لدوس بكل فخر مطالبته في هذا المؤتمر بضرورة إنشاء جامعة أفريقية ، وهي الدعوة التي تبلورت لديه في العقد الثالث إبان دعوته لإقامة كلية يابا في لاجوس عاصمة نيجيريا حيث كان يقيم - أن تلك الدعوة تعكس مدي

إيمان دوس طوال حياته بضرورة إحراز الافريقي لأرفع درجات العلم ، ولعلها الفكرة التي تبناها رائد القومية الافريقية الاول د. بلايدن (ق١٩) كما تجمع الآراء المتخصصة .

كذلك كان لدوس دور إيجابي في تعزيز اتحاد الطلبة ذوي الاصل الافريقي وهو الاتحاد الذي تأسس عام ١٩١٧ ، كأول تنظيم يجمع الطلبة الملونين من الهند الغربية وأفريقيا من المقيمين في لندن . كما يعد دوس من مؤسسي إتحاد التقدم الافريقي Ethiopian Progressive Association عام ١٩١٦ ، الذى كان هدفه تقرير الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية للافريقيين في شتي أنحاء العالم من المقيمين فى لندن ، وهو نفس الهدف الذى رفعت لواءه صحيفة التايمز الافريقية ، لذلك كانت أولى الصحف إشارة للاتحاد الجديد. على إعتباره اتحادا اجتماعيا بعيدا كل البعد عن النزعة السياسية ، مؤكدة أن محوره الاساسي إعداد البرامج الثقافية لتعميق الوعي التاريخي والاجتماعي بالنسبة للمنتمين الي الاصل الافريقي ، ولعله من الطريف ان نذكر ان اول المحاضرات التي نظمها الاتحاد جاءت تحت عنوان دور افريقيا في تاريخ العالم ، وهي المحاضرة التي القاها احد مشاهير الاساتذة المتخصصين ، الاستاذ بتس Betts ، حيث أبرز فيها " دور المصريين القدماء كزنوج " وهي الفكرة التي سوف يكرس " الشيخ انتا ديوب " حياته لإثبات صحتها .. وهي الفكرة التي تعد من الجدة التي تستحق مزيدا من الدراسة .

وتشير المصادر الي أهمية هذا الاتحاد - رغم ضآلة عدد أعضائه الذي لم يتجاوز ١٢٠ في عام ١٩٤٢ - بالنسبة لقضية الشعوب الملونة عامة وذوي الاصل الافريقي خاصة ، بحيث لم يفقه في تلك الاهمية سوي اتحاد طلبة غرب افريقيا W.A.S.U الذي تشكل رسميا في ٧ -٨ - ١٩٢٥ برئاسة كيسلي هايفورد ومقره لندن ايضا بينما امتدت فروعه لتشمل غالبية العواصم والمدن الافريقية الهامة آنئذ [١١] .

يمكن اجمال عطاء دوس للقضية الافريقية ، فى نجاحه في إشعال الحماس والاحساس بين الطلبة الافريقيين باهمية التاريخ الافريقي في اطار دعوته الشهيرة " العودة الي عظمة الماضي إذ ليس ثمة تاريخ لأمة دون ماض " وليس من شك ان عضوية دوس لجمعية الزنجية للابحاث التاريخية و الاكاديمية الامريكية للزنوج قد منحته سعة في مصادر الكتابة عن التاريخ

الافريقي وإسهامه في الحضارة البشرية .

لعل من هذا المنطلق يبدو مدي تاثير دوس علي افكار وشخصية الزعيم المعروف للقضية ماركوس جارفي الذي وجد في استاذه متجما خطيرا لاستقاء المعلومات التاريخية ، وذلك منذ ان التقيا معا في لندن ابان زيارة جارفي لها عام ١٩١٢ ، حتي لقد شجع بعض التعليقات علي تلك الصداقة بالقول : " لقد تلقي جارفي تعليمه علي يد مسلم قومي " (١٢) .

كذلك قام دوس في مجال عطائه لافريقيا صحفيا ، بتحرير " الكتاب السنوي والمرشد لغرب افريقيا " West African Directory and Year Book ، بالاشتراك مع احد ابناء ساحل العاج ، وهو المؤلف الذي تضمن اسماء الشركات والهيئات المهتمة بالتجارة فيما وراء البحار ، وكان توزيعها في شرق وغرب افريقيا والهند الغربية والولايات المتحدة الامريكية واوروبا فضلا عن مصر واليابان وسيلان وتركيا .

ولعله من الطريف ان تتضمن قائمة المشتركين في هذه الدورية ، اسماء علي فهمي ومحمد فريد بك من مصر وكل من بوكر واشنطن وجارفي زعيمي زنوج امريكا المعروفين و د. اجري الزعيم الافريقي الشهير ابن ساحل الذهب .. ومما يذكر ايضا ان تلك الدورية كانت تصدر في جزء منها بالعربية .

دوس في الولايات المتحدة الامريكية

في اطار اهتمام دوس بالقضية الافريقية قام بتحويل مكتبه الخاص بالتحرير الصحفي الي مقر لعمليات المقاصة ، تصفية حسابات الافريقيين ذوي المعاملات التجارية مع الشركات البريطانية ، وذلك انطلاقا من ايمانه بمبدأ العمل للزنوج . ويذهب الرأي المتخصص الي ان دوس كان من المعجبين بافكار بوكر واشنطن المفكر الامريكي الرائد للحركة والناطق بلسانها في عصره ، حيث عرف دأبه علي دراسة مؤلفه تحت عنوان Up from Slavery لاسيما الجزء الخاص بمبدأ العمل واهميته بالنسبة للزنوج الامريكيين .

عمل دوس منذ ان اقام في الولايات المتحدة الامريكية (١٩٢٦) ، في منصب سكرتير التجمع الآسيوي الامريكي في نيويورك ، حيث بدت اهتماماته اللغوية الشرقية ، وحيث شاركه في ذلك الاهتمام القائم بالاعمال الفارسي لدي الولايات المتحدة الامريكية ... الا اننا

نلاحظ ان هذا الاهتمام الجديد لم يجعله ينحرف عن القضية الاساسية محور حياته ، قضية افريقيا ، اذ ظل مناصرا لاتحاد المواطنين الافريقيين المقيمين في امريكا ، وهو الاتحاد الذي تشكل في ٦ - ٢ - ٢٧ ، وتم تسجيله رسميا عام ١٩٢٨ بهدف حماية مصالح الافريقيينّ في الولايات المتحدة الامريكية .

وفي عام ١٩٢٨ اوكل اليه مهمة اصدار مجلة شهرية مصورة تحت اسم افريقيا Africa ، وان كانت تلك الدورية ليست بذات اهمية علي اعتبارها كما كانت توصف سريعة الظهور وسريعة الزوال ، اذ كانت تمسك باهداف فكرة القومية الافريقية ليس الا ، كما كان يقوم في المجال الصحفي ايضا بالتحرير ككاتب عمود ثابت في صحيفة جارفي " عالم الزنوج " gro WorldNe .

وفضلا عن النشاط الصحفي ، ظل دوس يوالي دوره في المجال الاكاديمي للدعوة للقضية، فدأب علي القاء المحاضرات في نيويورك وواشنطن (الاكاديمية الزنجية) ، حيث كرر دعوته بضرورة وجود كرسي خاص بتدريس تاريخ الزنوج في الهيئات العلمية بالولايات المتحدة الامريكية ، فضلا عن محاضراته في بعض المؤسسات التي تعمل في اطار حركة الجامعة الافريقية ايضا مثل " الكنيسة الصهيونية " ، حيث القي في نيويورك كلمة حول افريقيا قديما وحديثا .

ولعل اهم ثماره في الولايات المتحدة الامريكية يبدو في اثارة اهتمام زنوجها باهمية التراث الافريقي . كما بدا بعد آخر الي جانب اهتمامه القومي ، اذ في الوقت الذي كان يكتب في صحيفة جارفي كما سبق الذكر ، كان يعمل في نفس الوقت لتنظيم جمعية اسلامية عالمية حتي نال لقب المسلم القومي [١٣] .

دوس في افريقيا

سوف يوالي دوس مهمته في العطاء للقضية الافريقية ، ولكن لاول مرة من القارة الام ، فلقد ابحر مع زوجته (في اغسطس ١٩٣١) مغادرا الولايات المتحدة الامريكية الي مسقط رأسه القارة ووصل الي افريقيا الغربية واختار لاجوس عاصمة نيجيريا ليقيم فيها ، رافضا الانصياع لرأي السلطات الاستعمارية بالاقامة في ساحل الذهب .

هنا في نيجيريا تمكن دوس من إصدار آخر عمل صحفي له تحت اسم Comet الصحيفة التي تجتمع الاراء حول خطورة دورها في التاريخ القومي لنيجيريا خاصة ولغرب افريقيا بصفة عامة .. بينما انغمس في العمل الوطني في نيجيريا من خلال عمله في اول مؤتمر قومي جماهيري لافريقيا جنوب الصحراء المجلس الوطني لنيجيريا والكاميرون National Council of Nigeria and Cameroons والذي كان بالفعل اول حزب وطني في القارة جنوب الصحراء.

لم تكن تلك هي اول زيارة يقوم بها دوس لاحدي دول افريقيا - فضلا عن مصر - فلقد سبق ان وصلها في يوليه ١٩٢٠ حيث قام بزيارة نيجيريا ايضا ، واستقبل استقبالا حافلا من اعضاء الجماعة الاسلامية ، وجاءت وسائل الاعلام تنبئ بمقدم دوس علي اعتباره الحلقة المفقودة للتلاقي بين المسلمين والمسيحيين في افريقيا ، الا ان بقاء واثر دوس في تلك الزيارة لم يدم، فلم تشر المصادر سوي الى ان هدف الزيارة كان العمل علي رفع ميزانية صحيفته لمواجهة الضائقة المالية التي تورط فيها . ولعله من هذا المنطلق لم يحقق الهدف ، اذ ان الصحيفة قد توقفت كلية منذ هذا التاريخ عن الصدور .

فيما يتعلق بعمله في نيجيريا ، فقد شغلت صحيفة الكوميت الاسبوعية الجانب الاكبر من تفكير واهتمام دوس في الحقبة الاخيرة من حياته منذ ١٩٣٣ ، وكانت ذات اثر كبير في الحياة القومية لنيجيريا في العقد الرابع ، وهي الفترة التي تعد من احلك فترات حياة نيجيريا السياسية ، وان كانت مبعث وجودها القومي حيث يجمعها الولاء القومي فترتفع فوق مستوي الهاوسا واليوروبا والايبو كجماعات متشرذمة ، لتتجمع حول السيادة القومية باستقلالها عام ١٩٦٠ ، متجاوزة الفجوات الرهيبة من الخلافات الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية .

كذلك كان دوس كاتب عمود متخصص في صحيفة الديلي تايمز النيجيرية Nigerian Daily Times ، ومحررا في الديلي تلجراف النيجيرية ايضا Nigerian Daily Telegraph منذ عام ١٩٣٢ .

من جانب آخر ظهر تفاعله مع احداث القارة ، فنسمع عن احتجاجه ضد الغزو الاثيوبي

للحبشة سنة ١٩٣٥ علي سبيل المثال ... كما يجدد دعوته القديمة بضرورة انشاء جامعة افريقية وهي الدعوة التي رفعها منذ ١٩١٣ ، كما سبق الذكر ، كما يلاحظ انه منذ السنة الاولي لاقامته في نيجيريا قد قرر تشييد مدرسة صناعية ليعلم الشعب الزراعي حرفا صناعية.. ولاشك ان الصحوة القومية تبدأ بالقضاء علي الجهل في الدولة .

والآن .. لعلنا نرفعها دعوة - احقاقا للحق - اهمية تقييم اعمال دوس محمد ذلك المهاجر المصري الذي ظل مرتبطا بدفاعه عن القضية التي وهبها حياته ، ولعب دورا ثريا في خدمة قضية الملونين عامة والافارقة خاصة ، فضلا عن ولائه لمصر الذي برز من خلال قلمه للتأريخ لاحداث مصر - كما رأينا - من خلال مؤلفه " في بلاد الفراعنة " ولعل لتلك الدعوة ابعادها :

١) إن هذا المطلب إنما من منطلق الدور الذي لعبه دوس خدمة لبزوغ القومية الافريقية عامة وقومية غرب أفريقيا خاصة ونيجيريا بدرجة اخص .

ولاشك في عدالة رؤية الزعيم النيجيري انتون انياهور ، والذي اكد ان بذور القومية في نيجيريا انما قد بذرت ونمت داخليا مع مقدم دوس الي البلاد واقامته فيها في الفترة من ٣١ - ١٩٤٤ . اذ تمكنت تلك الشخصية التي تعودت العطاء ان تقدم، في السن الذي ربما يعتزل فيها الانسان الحياة العامة (وهو سن ٦٥) وخلال ١٤ عام قضاها في البلاد ، الكثير من خلال عمله كسياسي وصحفي ناجح واكاديمي حق .

كما أعطي لقضية القومية في غرب أفريقيا الكثير ، من خلال رفع مطلب مواطني جامبيا وسيراليون وساحل الذهب ونيجيريا ، في " المؤتمر القومي لافريقيا الغربية البريطانية " ، بل وكثيرا ماتصدي في صحيفته مؤكدا عل حتمية الوحدة لغرب أفريقيا ، لتحقيق الرفاهية السياسية والاقتصادية لشعوب المنطقة .. فكان دوس ضمن الأعلام القومية من أبناء غرب افريقيا امثال، كيسلي هايفورد ودوف وسولانيك ممن انتظم عملهم في اطار المؤتمر الوطني لأفريقيا الغربية ، وممن أسهموا في القضية القومية لمنطقة غرب افريقيا .

لعل دوس وقد شق طريقه في خدمة قضية الجامعة الافريقية التي ازدهر نجمها في سماء السياسة الدولية في الفترة من (١٩٠٠ - ١٩٤٥) ، برافديها الناطق بالانجليزية حيث كان

د. ديبوا الاب الروحي لها وان ظهرت بعض المشروعات المتوهجة المثيرة وسريعة الزوال في آن واحد مثل الجارفيه ، والرافد الناطق بالفرنسية (الزنوجة) الذي رفع لواءه الشعراء ايمي سيزير من جزر الهند الغربية ومن بعده ابن افريقا الشاعر ورئيس دولة السنغال السابق ليوبولد سيدارسنجور .. نقول لعل دوس وقد شق هذا الطريق ، يمثل التيار الناطق بالعربية الذي وان طمست لغته (حيث جاء متحدثا بالانجليزية) الا انه يعد المتحدث باسمهم !

لعل مطلب تقييم دوس ينبع من عمله الرائد لجذور حركة باندونج من منظور تحركه ونشاطه في حقل التضامن الافروآسيوي ، من خلال اهتماماته الصحفية لا بالجامعة الافريقية و الجامعة الشرقية - كما سبق الذكر - فحسب ، بل بالعلاقة بين تلك الشعوب الملونة والصفراء وبين القوي الاوروبية والامريكية ايضا ، لعل دوس يعد في هذا المجال رائدا للحوار الافرواسيوي .

لعل مطلب اعادة تقييم دوس ينبع من دور مزدوج حاول القيام به ، تنظيم جمعية اسلامية عالمية في نيويورك ، فضلا عن عمله القومي ، فنال بها ذلك اللقب الفريد " المسلم القومي" كما سبق الذكر ، فنظرت اليه بعض المصادر الدراسة علي اعتباره حلقة وسط في خدمة قضية الشعوب الناهضة ، يقع بين حركة جمال الدين الافغاني صاحب الجامعة الاسلامية في القرن ١٩ وبين قومية الجامعة الافريقية التي يتسم ببزوغها القرن ٢٠ [١٤] .

لعل مايلفت نظر الباحث في شخصية دوس عدم بروز اسمه في عالم الحركة القومية للشعوب الملونة ، رغم رصيده الغني فيها .

ولعل السبب يرجع الي انه كان من مؤيدي الجارفية ، فلقد كان مع ساكي ابن افريقيا الشهير من المؤيدين لجارفي ، الامر الذي يبدو من مراسلاتهما ، وكما يبدو من اول توصيات قدمها الاستاذ دوس لتلميذه جارفي ، في اول لقاء بينهما في لندن بان " يتقدم بمشروعه الرائع نيابة عن زنوج العالم " ، وتشير غالبية المصادر المتخصصة الي تراجع دوس وتجاهله تلك الحقيقة - لعلاقته بتلميذه - علي سبيل المثال حين قام بزيارته الى الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٩٢٠ ليجري معه حواراً حول بعض افكاره التي نشرها في صحيفته " عالم الزنجى " Negro World وهي الافكار التي سوف تتحول فيما بعد الي مؤلفه المعروف باسم فلسفة وآراء .. وقد تم هذا التراجع ابان تدهور مشروع جارفي قرب انهياره .

تشير تلك المصادر الي ان دوس قد تراجع عن رأيه وذهب الي ان مشروع جارفي ليس سوي انعكاس لاشتياق زنوج العالم الجديد للتلاقي مع زنوج افريقيا في ارض الاباء ، وانه فيما عدا ذلك فهو زيف ومجرد كلمات طائشة ، بل وانه هو ذاته - اي دوس - قد تراجع وانكر تلك الحقيقة في سيرته الذاتية ، التي قام بتدوينها في آخر ايامه (١٥) .

ايا كانت الآراء ،، لاشك ان اعادة تقييم دوس ، ذلك المهاجر المصري، تعد واجبا قوميا ازاء عطائه بسخاء في عالم القضايا التحررية لبني عصره .

الهوامش

1) Geiss:the pan African mouvment,
translated by, keep- London,1974

٢) رأي لفيف من المتخصصين في دراسة دوس محمد ، وقد ورد فى مقدمة مؤلفه " في بلاد الفراعنة " الذي سوف نتعرض له فيما بعد .

3) Casely Hay ford, Ethiopia unbound.

4) Duse Mohamed, In, the land of the pharoos,a short History of Egypt.
From the fall of, Ismail to the assassination of Boutros Pasha. 2'nd.
ed. Frank case & Co LTD, 1968, London

5) Ibid, ch. xxv, pp. (348 -356)

٦) د. عوده (عبد الملك) فكرة الوحدة الافريقية .

7) Duse, op. cit., pp (7, 21, 24, 62 - 77, 270 - 286, 324).

8) Ibid., p.16.

9) Ajala (Adekunle) : Pan Africanism , Evalution, Progress, and prospects,

1973. London, Andre deutsch.

10) Geiss: op - cit, pp. (225 - 226).

11) Ajala, op. cit.,

12) Ibid.

وجارفي هو صاحب المشروع المتوهج والمثير في العقد الثاني وكان يرمي الي خلق قوي زنجية بنظرة الي قارة افريقيا لتكون ارض الميعاد لزنوج العالم بعد ان تشتتوا في الارض African Diaspora لذلك عرف جارفي بموسي الاسود وحركته الصهيونية السوداء او العودة الي افريقيا او الخروج الي افريقيا

Exodus to Africa Back to Africa

13) Duse, op. cit,. p.21

14) duse, op. cit., p.10

15) Ajala,op.cit,

تصدير المترجم

سمعت بدوس محمد على أول مرة فى مقال نشره محمد عمر بشير بمجلة " الاشتراكى" فى الخرطوم ، عام ١٩٧٣- كانت إشارة عابرة إلى دوس ، ضمن مجموعة من أسماء قادة الحركة الأفريقية .

ولما ذهبت إلى نيجيريا بعد عشرة أعوام ، نمت أثناءها معلوماتى عن دوس ، ولاسيما بعد اطلاعى على كتابه " فى بلاد الفراعنة " وانتفاعى بمقدمة خليل محمود، كنت عاقدا العزم على دراسة هذه الشخصية، وتكوين صورة معمقة عن جهودها، فكتبت رسالة إلى خليل محمود- أمين مكتبة جامعة أحمد بلوبزاريا- فرد عليها بجواب كريم ، ومعه نسخة من مقدمته لكتاب دوس " فى بلاد الفراعنة" مطبوعة على الرونيو. ثم سافرت إلى زاريا، وقدمنى أحمد محمد كاتى - الباحث بقسم التاريخ فى جامعة أحمد بلو يومئذ - إلى خليل محمود، وعرفنى بالرجل ، وزرناه معا من بعد مرات فى بيته، وزرته فى مكتبه، فتفضل بمنحى نسخة مصورة من السيرة الذاتية لدوس محمد على ، كان قد نشرها فى حلقات بجريدة " كومت " فاستنسخها خليل محمود على الآلة الكاتبة، وفرحت بها لأنها تنطوى على ذخيرة وافرة ، وهى ذات قيمة فى الدلالة على شخصية دوس ، من حيث هى وثيقة أدبية وتاريخية. ولما عرجت على لندن اطلعت على الأصل فى جريدة كومت، وهو منشور فى حلقات ، واعتمادا على النصين : النص المصور من الجريدة ، والنص المصور عن النص الذى نقله خليل محمود على الآلة الكاتبة ، كان استمتاعى بقراءة العمل والتأمل فيه ، ورأيت أن أترجمه إلى اللغة العربية ، لأنه يبرز شخصية دوس فى صورة صادقة وواضحة. فعكفت على ترجمة النص من الإنجليزية إلى العربية، ترجمة توخت نقل روح نص ، وملكة دوس فى التعبير المتين .

وسعيت إلى جمع معلومات عن دوس ، فى القاهرة ، ولندن، والخرطوم ، إلى أن عثرت على أطروحة ، "دوفيل" التى حدثنى خليل محمود عنها، وأوصانى بالاطلاع عليها، فلما

وقفت عليها، وجدتها جد نافعة. أفدت منها في معرفة دوس ، مثلما أفدت منها في عقد هوامش هذا العمل، وأسفت كثيرا، أن ظلت تلك الأطروحة حوالى عقدين من الزمان غير منشورة، وهى عمل عملى رفيع، وثمرة جهد كبير وتأن وتمحيص ، ووليدة موضوعية ونزاهة.

نشر دوس سيرته الذاتية، في جريدة " كومت" ابتداء من يوم ١٩٣٧/٦/١٢ وانتهاء بيوم ١٩٣٨/٣/٥ ، على مدى تسعة أشهر ، وحرص على نشر حلقة فى كل عدد من أعداد الجريدة الأسبوعية.

ونشرها تحت عنوان

"Leaves From An Active Life"

وترجمتها الحرفية أوراق من حياة نشطة، ولكننا آثرنا أن نترجمها، ترجمة ذات دلالة أوقع:

« حياة مورة في تاريخ العمل السياسى العربى الأفريقى».

وقد عرض دوس فيها لأطوار حياته ومنجزاته ، وللأعلام الذين اتصل بهم ، وكان لهم شأن فى حياته. ولأن دوس توفى عام ١٩٤٥ ، فإن سيرته التى نشرها عامى ١٩٣٧- ١٩٣٨ ، لم تعرض للسنوات الأخيرة من حياته، عند الشيخوخة.

وقد حاولنا عقد هوامش فى بعض المواطن، رأيناها ضرورية ، ونأينا عن الإكثار من الهوامش وحشدها.

وأود أن أزجى الشكر لكل من أعاننى ، وحبانى بمساعدته ، وأخص بالشكر الأستاذ خليل محمود ، المسلم الأمريكى ذا الأصل الأفريقى ، العالم الثبت الحجة فى تاريخ الحركة الأفريقية، والتراث الثقافى الأفرو- أمريكى فى أوربا وأمريكا. ورأيت أن أهدى العمل كله إليه. إقرارا بفضله، وإجلالا لعلمه ودماثة أخلاقه.

وقرنت معه الباحث الدكتور : إيان دوفيلد الذى مهد الطريق بدراسته الرائدة التى نال بها درجة الدكتوراه ، وبقيت غير منشورة، ومجهولة، إلى حد أن مكتبة جامعة أدنبرة أرسلت إلى ردا رسميا، عن خطاب أرسلته إليها مستفسرا عن أطروحة دوفيلد ، وتضمنت ذلك الرد الرسمى ، أن لاوجود لرسالة عن دوس محمد على فى مكتبة الرسائل العلمية فى الجامعة، وهى غير مذكورة فى فهرس الرسائل المجازة من قبل الجامعة، ولأننى متأكد من وجود الرسالة،

مضيت أنقب فى بريطانيا بإلحاح، وأسأل بإلحاف ، حتى اهتديت إليها ، وعلمت من بعد أنها موجودة الآن فى مكتبة جامعة أدنبرة.

وأخص بالشكر د. أحمد محمد كاتى الذى قدمنى إلى الأستاذ خليل محمود ، واتصل بى مرات بشأن موضوعى ، وأفادتنى كثيرا صلته الوطيدة بخليل، وأشكر السادة العاملين والعاملات فى مكتبة المجلات التابعة للمتحف البريطانى فى لندن، وفى مكتبة جامعة أدنبرة.

وقد كتبت رسالة شخصية الى الأستاذ : محمد عمر بشير ، أستاذ العلوم السياسية بمعهد الدراسات الآسيوية والأفريقية ، ولم أتلق ردا منه. لعلها لم تصل اليه فى الخرطوم.

والله الموفق

أحمد محمد البذوى

مقدمة

دوس محمد على

الاسم والهوية

دوس محمد على ، اسم يتكون من قسمين ، الأول : هو دوس . وهو اسم ضابط فرنسى رعى دوس، وأشرف على دراسته وتربيته ، وهو حدث صغير السن فى لندن، والقسم الثانى هو: محمد على ، أو محمد فقط، حسب ماورد فى غلاف كتابه " فى بلاد الفراعنة" عام ١٩١٥م. ثم استقر اسم محمد على من بعد وراج.

ولكن " دوفيلد" فى رسالة الدكتوراه التى أعدها عن دوس محمد على ، يخبرنا أن مجلة " هل لادى " Hull lady الإنجليزية فى بريطانيا ، ورد فيها اسم دوس عام ١٩٥٢ هكذا: عباس محمد على ، ويحدثنا ذلك الباحث أن البطاقة الشخصية الخاصة بدوس إبان الحرب العالمية الأولى، كانت تحمل اسم : عبد السلام على .[١]

غير أن اسم : دوس محمد على هو الذى تميز به صاحبنا وعرف. ونعرف منه أنه مولود فى الاسكندرية من أب مصرى، وأم سودانية ، وأن والده ضابط فى الجيش ، ولكننا نعرف من دوس أن والده الضابط مات شهيدا فى متاريس التل الكبير، إبان ثورة عرابى ، وأن السلطة الحاكمة ضيقت الخناق على أهله الأقربين ولاحقتهم ، وأقضت مضاجعهم، واضطرتهم للهرب والفرار، فاختفوا ، وأن أمه وأخواته سافرن إلى السودان ، إلى حد أن دوس عندما عاد من لندن إلى الاسكندرية ، لم يجد أحدا من أهل أبيه، وألفى أمه وأخواته قد رحلن إلى السودان ، وانقطعت عنه أخبارهن من بعد، ولكن دوس محمد على لم يحدد لنا المنطقة التى تقيم فيها عائلة أبيه، ولو أننا صدقنا ملاحقة السلطة لأقارب أبيه، فماذا فعلت بأهل أبيه فى موطنهم

الأصيل، في مكان ما من أرض مصر. فمن الممكن أن يختفي بعض الأقربين، لكن من الصعب التصديق بأن كل الأقارب قد بارحوا موطنهم.

ولهذا إذا تذكرنا رفض جهاز المخابرات البريطانية "M15" ادعاء دوس بأنه مصرى ، وتأييد مكتب المندوب السامي البريطاني في القاهرة، لذلك الرفض.

وبالرغم من ظفر دوس بشهادة ميلاد مصرية، بفضل جهود صديقه الشاعر د. أحمد زكي أبي شادي ، فإن وزارة المستعمرات البريطانية في لندن، أصرت على أن دوس من رعايا تركيا البريطانية ، وذلك عند نشوب الحرب العالمية الأولى ، وعندما أزمع دوس السفر إلى غرب أفريقيا وأمريكا، وألفى دوس نفسه مجبرا على الاتصال بسفارة تركيا التى كانت في حالة حرب مع بريطانيا، وحصل على جواز سفر، من سفارة بلد آخر، كانت ترعى الشؤون التركية في بريطانيا.

كل هذا، يدفعنا لإعادة النظر في هوية والد دوس ، في ضوء ملابسات شتى :

أولا: أن دوس مصرى الأب، ويؤيد ذلك حرص دوس دائما على توكيد مصريته ، واعتزازه بارتداء الطربوش الأحمر على رأسه، وكتابته عن تاريخ مصر، واهتمامه الجم بالشؤون المصرية.

ثانيا: إذا تذكرنا أن محمد على باشا عندما غزا السودان عام ١٨٢٠، كان في مقدمة المرامي التى هدف إلى تحقيقها من وراء الفتح أمران : المال والرجال . ويراد بالرجال تكوين جيش ضارب من الجنود السودانيين ، يساعد على حماية دولته، وتوطيد أركانها. وكان أن استقدم جموعا غفيرة من السودانيين، وصار جيشه في مصر يحتوى على نسبة غير قليلة من الجنود السودانيين، فهل يكون والد دوس واحدا من هؤلاء الجنود السودانيين الذين وصلوا إلى مراتب الضباط. وكان أولئك الجنود السودانيون المنضوون تحت لواء الجيش المصرى ، ينتمون إلى مصر ، وهذا تقليد استمر في داخل السودان نفسه، فحتى الربع الأول من القرن العشرين كان الجندى السوداني في الخرطوم يؤدى يمين الولاء لملك مصر، على أيام الاستعمار الإنجليزى.

ولأن دوس ألفى نفسه يعيش في بريطانيا، إبان شبوب الثورة المهدية وقيام دولتها المستقلة في السودان، فمما يجلب له كثيرا من المصاعب أو المصائب أن ينتمى إلى السودان، فضلا عن أن السودان نفسه لم يكن يشكل هوية مستقلة إبان العهد التركى، وإنما كان امتدادا لدولة محمد

على فى مصر، وإذا فرضنا جدلا وجود هوية مستقلة للسودان من الناحية الرسمية، فإن هذه الهوية تسقط عن الجنود المنخرطين فى صفوف الجيش المصرى، من ذوى الأصل السودانى. وفى حالة دوس محمد على، فهو مصرى بحكم مولده، ونشأته الأولى، وبحكم الواقع، وبحكم المكاسب التى يجنيها من وراء انتمائه المصرى، إبان إقامته فى بريطانيا قبل قيام الثورة المهدية، ومن بعد نشوبها. ولعل هذه الظاهرة ماتزال ماثلة الآن، فإن كثيرا من أبناء السودانيين المقيمين فى مصر، يعدون أنفسهم مصريين ، وهذا مسلك موافق للحق والصواب، لأن هوية المرء تتحدد بمكان مولده فى الغالب، فى حين أن آباء أولئك " الأبناء" مايزالون يحملون الجنسية السودانية.

ولهذا نميل ميلا قويا إلى أن والد دوس المصرى ، من أصل سودانى، استقدم هو أو والده من السودان، وربما كان أمر استقدامه قد تم على نحو أدى إلى انبثاث صلته بعشيرته الأقربين.

الإسهام

ليس لدوس إسهام باللغة العربية ، بل لم يكن يحسنها ، وتكاد معرفته بها تكون محصورة فى نطاق محدود وقليل، ويعزى ذلك إلى إقامته الطويلة فى بريطانيا منذ طفولته.

وقد دون كل نتاجه باللغة الإنجليزية، فى أداء تعبيرى متين دال على براعة وعلو كعب، مما لا يتأتى إلا للصفوة من المتقنين ، بل إن ميله إلى قوة التعبير باللغة الإنجليزية ، من حيث الصفاء والسلامة من الركاكة والأغلاط ، جعله ينعى عل الصحف اللندنية تدنى مستواها ، وشيوع العبارات العامية السوقية فيها إبان الثلاثينيات ، ولا يستثنى إلا مجموعة من الصحف اتسم بيانها بمراعاة الأصول الصارمة.

ويدل نتاج دوس محمد على ، على تنوع وسعة ، فهو كاتب صحفى ومؤرخ وسياسى . له أعمال مطبوعة فى صحف ومجلات شتى ، وله كتب منشوره ، وقد اضطلع بتأسيس صحف استمدت وجودها من تدبيره ودأبه ، فضلا عن نشاطه الدؤوب فى مضمار السياسة والصحافة والعمل الاجتماعى والثقافى. وهو مبدع كتب مسرحيات ، وله أعمال روائية ، ومارس قرض الشعر، واشتغل بالتمثيل المسرحى وقدم محاضرات شتى فى بريطانيا وأمريكا ونيجيريا

وبلجيكا ..الخ

فمن الصحف والمجلات التى كتب فيها، فى انجلترا نجد هل لادى Hull Lady ومجلة New Agc نيو أج ، وهى منبر للاشتراكية الفابية ، وفى أمريكا كتب فى مجلة نيجرو ورلد " Negru World" التى كان يصدرها " فارفى" القائد الذائع الصيت فى حركة الأفرو أمريكيين بأمريكا. وفى نيجريا كتب فى جريدة " نايجيريان ديلى تلغراف وجريدة ديلى تايمز فى لاجوس.

أما جهوده فى مجال تأسيس الصحف، فتأتى على رأسها مجلته الخطيرة التى أصدرها بين عام ١٩١٢ - وعام ١٩٢٠ ألا وهى AFmcom Time & Orient Reuew وهى مجلة لندنية كانت منبرا للشعوب الآسيوية والأفريقية، وإن تك أفريقيا وغرب أفريقيا على وجه الخصوص ، قد نالت نصيب الأسد من توجهات المجلة التى شملت الأفارقة فى أمريكا وجزر الكاريبى بعنايتها أيضا.

وفى أمريكا أشرف على إنشاء مجلة AFrice uhl عام ١٩٢٨ التى لم تعمر طويلا.

وختم حياته الصحفية فى نيجريا، حيث أنشأ جريدة كومت Comet الأسبوعية فى لاجوس عام ١٩٣٣ ، واستمرت حتى عام ١٩٤٥. حين باعها دوس قبل وفاته إلى " أزيكوى" المشهور " بزيك " السياسى النيجيرى الذى صار أول رئيس لجمهورية نيجريا عند استقلالها. وإن احتفظ دوس اسميا بالإشراف على الجريدة التى واصلت الصدور من بعد وفاة دوس ، وصارت يومية وانتقلت إلى مدينة كانونى شمال نيجريا، وعاشت إلى مابعد نيل نيجريا استقلالها ثم احتجبت عن الصدور.

ومن الكتب أصدر كتاب " فى بلاد الفراعنة " فى لندن عام ١٩١٥ ، وهو تاريخ سياسى لمصر الحديثة ، للدولة التى أنشأها محمد على، وهدف من وراء تأليف الكتاب إلى الدفاع عن مصر وسيادتها الوطنية وحقوقها، وكشف المظالم التى جرها عليها الاستعمار البريطانى، وينم الكتاب عن المواقف الخاصة بدوس من الحركة السياسية فى مصر، فهو مفتون بعرابى، ومؤيد لمصطفى كامل ، ومحمد فريد وعبد العزيز جاويش، تيار الحزب الوطنى.

ولقد حظى الكتاب بتقدير كبير فى بريطانيا، وكتبت عنه مقالات فى الدوريات، وفى

أمريكا لقى الكتاب اهتماما كبيرا، وخاصة من جانب الأفرو أمريكيين ، وصدرت منه طبعة ثانية خاصة بأمريكا.

وفى عام ١٩٦٨ ، نشرت جامعة إبادان الكتاب، مع مقدمة ضافية كتبها خليل محمود، وهو مسلم أمريكى من أصل أفريقى ، كان يعمل يومئذ أمينا للقسم الأفريقى فى مكتبة جامعة أبيدجان فى نيجريا - وهو اليوم الأمين العام لمكتبة جامعة أحمدو بلو فى زاريا بشمال نيجريا- وهو مهتم بالإسهام الثقافى للأفرو أمريكيين والأفارقة السود، وهو الذى اقترح على جامعة أبيدجان أن تطبع الكتاب، ونجح فى إقناعها بذلك.

ولدوس كتاب آخر أعده بالتعاون مع كاتب آخر هو "هوتشيسون" عنوانه: غرب أفريقيا : دليل وتقويم سنوى ، لندن ، ١٩٢١.

وهذا الدليل الخاص بغرب أفريقيا ، وهو كتاب يحوى معلومات عن النشاط التجارى فى غرب أفريقيا.

أما فى مجال المسرح، فقد جمع إسهامه بين التمثيل المسرحى والتأليف المسرحى، وكانت له مشاركة فى النقد المسرحى.

وفى مجال المسرح، اضطلع بأداء أدوار السود، والأدوار الهامشية ، وأدوار رئيسة فى بعض المسرحيات ، على مسارح لندن والأقاليم البريطانية، ونال أداؤه متابعة الصحافة المعنية بالمسرح، وأسبغت عليه من نعوت المدح والثناء فى مواطن كثيرة، وذهب مع بعض الفرق إلى أمريكا، حيث قدمت الفرقة عروضا فى بعض المدن.

وألف دوس مسرحيات ، وشارك فى عرضها وإخراجها من على خشبة المسرح، منها مسرحيته انتقام اليهودى : ١٩٠٤ فى لندن ، و١٩٠٨ فى مانشستر". ومسرحية ليل كليوباترا، وكتب مع تيرنجهام ، مسرحية غنائية هى ليلك برمودا، وعمل على إخراجها وتقديمها من على مسرح مانشستر عام ١٩٠٩. [٢]

ولدوس رواية منشورة فى جريدة " كومت " خلال عام ١٩٣٤ ، عنوانها عودة إر روزفلت ERE Roseuelt CQmr

وفى الشعر ، نظم دوس قصيدة عن مدينة " هل " Hull ونشرها فى مجلة " هل لادى " عام ١٩٠٢. [٣]

وقدم دوس فى رحلة عمره مجموعة من المحاضرات والأحاديث، فى لندن، وفى أمريكا، وفى لاجوس، تناول فيها مواضيع سياسية واجتماعية ودينية، أو عالج مسائل أدبية ذات طابع ثقافى، ونجده يطوف فى أمريكا فى رحلة عمل يقدم فيها محاضرات أو ينشد مقاطع من مسرحيات شكسبير ، وذلك لقاء أجر، تدفعه له وكالة متخصصة فى ذلك الشأن، فضلا عن قيامه بأداء بعض العروض المسرحية الخفيفة، أو المشاهد الاستعراضية فى بعض المناسبات.

حين نأتى إلى الجمعيات والمنظمات ، نجد دوس محمد على مشاركا نشطا فى كثير من الجمعيات المتنوعة ، وفى كثير من الأحيان يكون هو المؤسس أو المحرض والمنظم والقلب النابض ، منها : الجمعية الألبانية ١٩١٢ ، والجمعية التركية، والجمعية العثمانية الإنجليزية، والجمعية الإسلامية المركزية لمسلمى بريطانيا فى لندن، وجمعية رعاية الأرامل والأيتام التى ترعى عائلات المسلمين الهنود الذين قتلوا أثناء أدائهم الخدمة العسكرية فى الجيش البريطانى، والجمعية الآسيوية الأفريقية ، وجمعية نشر المعرفة، والجمعية المصرية ، والجمعية الأفريقية، وكل هذه الجمعيات قامت فى لندن .

وفى أمريكا عمل فى منظمة " فارفى " ، وأسس الجمعية الاسلامية فى مدينة " ديترويت"، والجمعية الآسيوية الأمريكية . وفى لاجوس صار رئيسا لجمعية أنصار الدين ،[٤] وهى جمعية إسلامية ، تولى رئاسة كثير من اجتماعاتها، وقدم مجموعة من المحاضرات باسمها ومن منبرها. وعندما دعا اتحاد الطلاب النيجريين إلى اجتماع ضم كل المنظمات والشخصيات الوطنية النيجرية، وانعقد الاجتماع فى لاجوس، وانبثقت عنه منظمة مكرسة لتوحيد الجهود الوطنية فى بوتقة واحدة، هى المجلس القومى لنيجيريا والكاميرون، فقد تولى دوس رئاسة ذلك الاجتماع التاريخى الخطير، ويرى خليل محمود فى إسناد رئاسة ذلك الاجتماع الذى ضم قادة الحركة الوطنية النيجرية نوعا من التكريم والعرفان [٥] بفضل شخصه.

وهذا يقودنا إلى إتمام القول عن النشاط السياسى لدوس محمد على الذى شمل الحرص على الدفاع عن مصر، وتسليط الضوء على القضية المصرية، والتضامن مع تركيا العثمانية والخلافة فى أحلك ظروفها، وهى فى الرمق الأخير، الرمق الأخير للرجل المريض. والدفاع عن المسلمين والشعوب المستعمرة فى الهند وألبانيا، وتوحيد جهود المسلمين فى بريطانيا، ورفع

لواء الأفريقيين، وكشف المظالم التى ارتكبها الاستعمار الإنجليزى فى المستعمرات. وكان له علاقة وطيدة مع العناصر النشيطة من المفكرين البريطانيين المسلمين والاشتراكيين، وذوى الجهود الحيوية من المثقفين الآسيويين والأفارقة والطلاب، ولاسيما المثقفين القادمين من غرب أفريقيا والهنود. والطلاب المصريين ، وبعض السودانيين.

وهذا مايجعله يخضع لرقابة مترصدة من قبل المخابرات البريطانية M15 التى لاحقته وأجرت معه تحقيقات شتى وداهمت مكتبه ومنزله مرات وفتشتهما، وكانت ترى فيه خطرا على الأمن، وشخصية لا تخلو من عداء أو تناقض مع المصالح البريطانية العليا. وقد وصل الأمر إلى حد أن المخابرات البريطانية M15 ، ترى فى وثيقة لها:

" أن دوس محمد على يعين الضباط الأتراك والعرب الموالين للسنوسية، على محاربة الإيطاليين ، وذلك ربما عن طريق الأمير عمر طوسون.

ويعتقد أن دوس محمد على جمع أموالا من بريطانيا، وأرسلها إلى طرابلس (فى ليبيا) عن أموان طريق مصر. وأنه كان نشطا فى حركة تزويد العرب (الليبيين) فى طرابلس ، بالأسلحة عام ١٩١٣" (٦).

وإلى جانب ذلك ، كان لدوس نشاط تجارى فى لندن وسيطا لرجال أعمال غرب أفريقيا، وحاول القيام بمشاريع تجارية طموحة مثل تسويق الكاكاو فى أمريكا، وعقد صلات تجارية بين غرب أفريقيا ورجال الأعمال الأمريكيين والسود منهم على وجه الخصوص.

ويظهر أن حياة دوس تنقسم إلى مرحلتين اثنتين :

المرحلة الأولى هى المرحلة اللندنية

والمرحلة الثانية هى مرحلة مابعد لندن، أو المرحلة الأمريكية - النيجرية .

المرحلة الأولى تبدأ منذ أن كان دوس طالبا، يافعا غضا، فى لندن، وتستمر حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، عندما غادر بريطانيا إلى أمريكا.

فى هذا الجزء من حياته، تكمن أصول التكوين ، التى تدين للنشأة اللندنية بهذا الاتقان المذهل للغة الإنجليزية، والإلمام بنماذج كثيرة من عيون أدبها، ممايدل على انكباب جاد توفر خلاله دوس على الدراسة المنهجية والمطالعة ، ما صقل شخصيته ورقى تكوينها الثقافى،

فتبدى ذلك فى مقدرة بيانية بارعة فى الكتابة، وفى أداء متفرد فى التبليغ اللسانى ، وفى العرض المسرحى الذى لا تغنى فيه الموهبة عن سلاسة النطق، ومقدرته على تشكيل الصوت حسب المواقف والانفعالات.

وليس من قبيل المصادفة أن دوس محمد على مؤلف المسرحيات هو دوس محمد على راوية أعمال شكسبير الذى يحفظ أشهر مسرحيات شكسبير- على الأقل - عن ظهر قلب . وقد طاف بعض أرجاء أمريكا يقدم مشاهد من مسرحيات شكسبير، يرويها من حافظته، غير مستعين بنص مكتوب ، وعندما نطلع على نقده لمسرحية " عطيل" فى أمريكا، نتعرف على إلمامه بالمسرحية، ومشاهدته للمسرحية مرات ومرات، يؤديها ممثلون مختلفون ، ونراه يوازن ويقارن بين أداء هؤلاء الممثلين المختلفين. وكذلك يدل كلامه عن " أوسكار وايلد" على دراسة لأعمال الكاتب وحياته ومادار حوله من لغط ، بيد أن له تخريجات مستقلة عن نتاج الكاتب وسلوكه، وصلت الى حد التنبؤ واستشراق المستقبل ، فأصدر أحكاما بشأن أهم أعماله، وأكثرها استئهالا للخلود، وأشدها قابلية للاستمرار من بعد وفاة الكاتب، وانصرام جيله ، وخمود نار الضجيج التى رافقت حياته ، بما لها من مؤثرات سلبية أو إيجابية.

ومن خصائص النشأة اللندنية المؤثرة فى تكوين الرجل ، أنه تربى تحت إشراف قس انجليزى بروتستانتى ، وعاش يفاعته فى كنف الكنيسة ، وتنسم هواءها بملء رئتيه ، وإن يكن قد تأبى على النصرانية، فاستعصم بإسلامه، ولم يعتنق دين المسيح، فإنه لم يمح كل مؤشرات النشأة الأولى من نفسه، وإلى هذه النشأة نرجع فى تبرير ممارسته الصلاة فى الكنيسة أكثر من مرة، ذكرها ونص عليها فى ثنايا مذكراته التى يسجل فيها سيرته الذاتية ، ولم ير فى شهود الصلاة فى الكنائس أيام الآحاد، ما يقدح فى ولائه للإسلام ، ولعله يعبر بذلك عن نزعة من التسامح الدينى المتصالح مع الدين الآخر، لايرى حرجا فى ارتياد الكنيسة من قبل المسلم، ويدل كلامه عن الكنيسة على إلمام جيد بالإنجيل والطقوس النصرانية، ونحسب دوس قد مارس أداء الشعائر النصرانية فى الكنائس إبان يفاعته ، وتلمذته وعيشه فى كنف الكنيسة، تحت إشراف القساوسة الذين لابد لهم من أن يكونوا قد لقنوه النصرانية وتعاليمها الى جانب مادرسوه له من علوم.

ولعل تجربة دوس جزء من ظاهرة عام، تعرض لمن ينتمى إلى دين ، ويعيش فى بيئة يدين السواد الأعظم من سكانها بعقيدة أخرى ، وعندئذ قد يحدث له أن يقدم بعض التنازلات، أو يشارك فى بعض الممارسات أو المناسبات الدينية بحكم المجاملة أو بدافع من ضرورة ما ، أو خضوعا لظروف وملابسات تقتضى ذلك. وهذا مايصل أحيانا الى حد بروز التأثير الإسلامى فى أقلية نصرانية أو بروز التأثير النصرانى فى أقلية مسلمة.

ويظهر أن دوس محمد على رأى أن لامفر من المواءمة بين عقيدته الكامنة فى ضميره، ومشاركته فى أداء الشعائر النصرانية، وربما مر بفترة أخرج فيها الدين والتدين من دائرة اهتمامه، وصار لامباليا بالتوجه نفسه، ولكنه سرعان ما حدد انحيازه ، وهو انحياز، إن عراه لون من القصور من حيث الإلمام الجيد بالدين، فإنه يمثل ايمانا قويا استعصى ترويضه وتغيير اتجاهه، وهذا أمر أسلفه كاردينال أمريكى جهور، عندما التقى بدوس ذات مرة ، فى رحلة بالقطار.

وقد رأينا صاحبنا بعد وفاة أبيه ، وعودته من رحلة إلى مصر، يمر بظروف قاسية ، يواجه الحياة القاسية فى لندن، دون موارد مالية، وبدون الاستناد إلى أى جهة تعضده أو تحمى ظهره، وإذا كان فى مرحلة ماقبل وفاة أبيه ينعم بإشراف ما، من جهة ما فى الكنيسة على رعايته، فإن المرحلة التالية لوفاة أبيه يبدو فيها وحيدا منفردا، لامعين له إلا اعتماده على نفسه، وعلى عطف بعض الخيرين من أصدقائه، ولعل هذه المرحلة لا تمثل الابتعاد عن الكنيسة بجسده فحسب، وإنما تعنى الابتعاد عنها بروحه، ولا نحسبه سيكابد من العسر والمشقة ما كابد لو أنه استظل بالكنيسة.

كانت ظروفه قاسية، عرف فيها الجوع والتشرد، فهو يمكث أياما فى لندن بلا طعام، وهو ينام فى العراء ، وقد يلجأ إلى بيت صديق، ويفيد من بيوت" جيش الخلاص" التى أقيمت لإيواء المتشردين والعاطلين فيقيم فيها.

وعندما لجأ إلى التمثيل المسرحى، والكتابة الصحفية، لم يكن غرضه ممارسة هواية، أوتزجية فراغ، وإنما كان يبحث عن مورد لكسب لقمة عيش يسد بها رمقه، وإذا كان قد أبدع

من قبل، ونجح فى ممارسة ألوان شتى من النشاط الفكرى والاجتماعى والسياسى ، فقد أدرك النجاح وسط طوفان من الظروف الشاقة الصعبة المثبطة لأى أمل ، المضادة لأى طموح.

ففى وحل التحدى ، وشوك الحاجة، وقف دوس وقاوم، وانتصر، وأبقى على شعلة روحه متوهجة، فلم يقهره الاستسلام ، ولا فت فى عضده الوهن والقنوط .

إن لندن بعد وفاة أبيه، عرفت التشرد والفاقة والجوع والفشل، ولكنها أيضا ازدانت بالتطلع والمثابرة، فعرفت الفوز والظفر، فنجح دوس فى التمثيل، وألف مسرحيات عرضت على خشبة المسرح، وصار كاتبا مرموقا أصدر مجلة ناجحة ذاعت شهرتها فى الآفاق، وصارله كتاب منشور حظى باحتفاء جم ، وغدا عاملا مهما ومؤثرا فى جمعيات دينية وسياسية وثقافية ، وعقد صلات شخصية مع طائفة من الخاصة، لساسة ومثقفين ومن بينهم كتاب مشهورون ، أو أفراد من وجوه المجتمع البريطانى. ولم يكن النجاح الذى أدركه دوس مادى الطابع، فما نحسب دوس قد عرف الثراء يوما ، وإن تأتى له الحصول على مورد عيش كريم، وإنما هو نجاح معنوى، فقد دأب على توظيف مقدراته. ليكون نافعا لغيره ومفيدا لهم، وليكون مساهما فى إحداث حركة ترمى الى تحقيق أهداف عامة آمن بها . ويظهر أنه لم يكن يرى نفسه محصورا فى خدمة أغراضه الذاتية البحته.. وانما يجد نفسه فى خدمة الآخرين ، وهذا مايجعله يأنف من المساومة ، ويرفض العروض المغرية المقدمة للتأثير عليه، بغية استقطابه .

ومن معالم المرحلة اللندنية ، تلك الرحلات الضاربة فى آفاق الدنيا، حيث زار الهند والصين، وأبدى تفضيلا للشخصية الصينية على الشخصية الهندية، وزار روسيا قبل الثورة البلشفية عام ١٩١٧، وأبدى تعبيرا عن الأحوال يومئذ كانت تنذر بقدوم خطر ماحق ، وزار أمريكا الجنوبية، وأمريكا الشمالية، وأبدى لفتات ثاقبة عن ثوابت الحياة فى أمريكا اللاتينية ، مثل شيوع إراقة الدماء ، وكثرة شبوب الفتن والثورات والقلاقل.

وعاد من تلك الرحلات يستقر فى بريطانيا .

أما مرحلة أمريكا - نيجريا ، فتشهد ضمور النشاط المسرحى تمثيلا وتأليفا إلى حد الغياب شبه التام، ويغلب عليها الطابع الأفريقى المترافق مع النشاط الإسلامى فى أمريكا ، ويبرز فى

الجزء الخاص بنيجريا الإلحاح على ربط القارىء إلى القارة الأفريقية ، والتخلى بنوع من الحس الوطنى غير المنحاز الى فريق، إلى جانب النشاط الإسلامى، وفى أمريكا ونيجريا يحاول ممارسة لون من النشاط التجارى ولكن لم يحالفه التوفيق. ومن ثم يكاد النشاط الصحفى يغلب على هذه المرحلة، ويطغى على أى نشاط آخر، حيث انهمك فى كتابة أعمال صحفية، والإشراف على صحف ، وشرع مع زوجته فى إقامة مدرسة صناعية بلاجوس .

وإذا أمعنا النظر فى شخصية دوس ، لوجدنا من مميزات الرجل ، أنه ذو روح مرحة، ذات دعابة وميل للفكاهة، مثل تصويره لنفسه بالملابس المسرحية، والتفاف الناس حوله فى لينج، ببلجيكا، على أساس أنه شاه إيران.

وهو محب للأكل وأطايب الطعام، تحوى سيرته الذاتية إشارات شتى إلى مواقف تتصل بنهمه.

ويظهر أنه شخص انبساطى ، له موهبة فى عقد صلات طيبة مع الآخرين، ولعله شخص يؤلف ، ويؤثر فى النفس ، أو يغدو قريبا منها بسرعة ، وهذا ما أتاح له عقد صداقات وصلات معرفة واسعة ، وهو فى الوقت نفسه يفتح صدره وأبواب مكتبه وبيته للآخرين.

وقد تنبه " دوفيل " فى أطروحته إلى صفة من لوازم شخصية دوس ، ألا وهى ولعه الشديد بلقاء المشاهير والتعرف إليهم.

فمن المشاهير الذين قابلهم وتحدث معهم ذات مرة عابرة، أمير ولز الذى صار ملكا لبريطانيا باسم الملك إدوارد ، والكاتب أوسكار وايلد والصحفى اللورد رسل .

ومن الشخصيات المشهورة التى اتصل بها ، وكانت له علاقة وطيدة معها ، النائب البرلمانى البريطانى دونيل ، والكاتب هـ . ولز ، وبكثال المستشرق الانجليزى الذى اعتنق الإسلام وترجم القرآن إلى الإنجليزية ، وأمير على صاحب كتاب روح الدين الإسلامى ، والمبشر القاديانى خواجه كمال الدين ، وفارفى القائد المشهور فى تاريخ حركة الأفرو أمريكية فى أمريكا ، وهو تتلمذ على دوس ، وعمل معه فى مكتب المجلة بلندن، ثم رجع إلى أمريكا وذاع صيته. وفى نيجريا نجد ماكاولى الزعيم الوطنى الوثيق الصلة بدوس . وممن عرفوه معرفة عامة، برنارد شو، وأولوو السياسى النيجرى وزعيم اليوربا ، وأيكو وى زعيم الإيبو فى نيجريا ، وأول رئيس لجمهورية نيجريا المستقلة.

ومن بين المصريين ، كان له علاقة صداقة وطيدة مع الشاعر أحمد زكى أبى شادى ، منذ أن كان طالب دراسات عليا فى كلية الطب بلندن. وهو الذى سعى لاستخراج شهادة ميلاد مصرية لدوس، وكان يتبادل الرسائل مع دوس، بعد أن عاد إلى مصر. وكان جهاز المخابرات البريطانية M15 يراقب تلك الرسائل المتبادلة [٧].

وبحكم انحياز دوس لتركيا العثمانية، وللحزب الوطنى فى مصر، حزب مصطفى كامل ، اتصل بمحمد فريد وعبد العزيز جاويش، وصارا من أصدقائه المقربين .

ومن أصدائه المصريين : عبد الحليم حلمى رئيس جمعية أبى الهول فى جنيف، ود. مصطفى أحمد عمر وإحسان البكرى اللذين أقاما فى بريطانيا فترة. [٨]

وتسنى لدوس أن يتعرف بالمستعرب البريطانى " بلنت " ، وقد دون لنا فصلا عن بلنت هذا فى سيرته الذاتية ، وفى الوقت نفسه كتب " بلنت " عن دوس فى يومياته ، ووصفه بأنه نصرانى ويحضر الصلوات، فى الكنيسة[٩] وأنه لا يعرف العربية، ويدعى الإسلام، ولا يعرف أول ماينبغى أن يعرف عن الإسلام. بل ينكر عليه انتماءه المصرى. أما أداء دوس الصلوات فى الكنائس ، فهذا مثبت فى سيرته الذاتية، بل إن الباحث دوفيلد يأخذ على دوس أداء بعض الأدوار المسرحية المعادية للإسلام، مثل دور النخاس ، أو عثمان دقنة . فليس فى الأمر سر محجوب ، وتدل حصيلة جهود دوس فى حياته الطويلة على تمسكه بالإسلام، وإن لم تكن معلوماته بالسعة التى تأتت لبلنت .

ولعل الموقف يرجع إلى إحساس " بلنت " بمزاحمة دوس له فى التحدث باسم مصر، ونفوره من هذه المزاحمة ، وتدل الوقائع على أن " بلنت " لم يكن شخصا متعاطفا مع عرابى والثورة العرابية، وصديقا لمصر، لأسباب مبرأة من الغرض والهوى ، وإنما كان على صلة بالدوائر البريطانية الحاكمة، وأجهزة الاستعمار ومخابراته ، يؤدى دورا محددا يخدم المصالح البريطانية، وهو يتجانس فى موقفه من دوس ، مع موقف مكتب المستعمرات وجهاز المخابرات البريطانية فى لندن ، من دوس ، المشاغب الذى يمارس نشاطا لايخلو من موقف مضاد للمصالح البريطانية.

وإن اعتز دوس بالشرف ، وانحاز إلى جانب قضايا النزعة الأفريقية، فإن نقده للاستعمار البريطانى ، والدور السياسى الذى أدته الكنيسة فى خدمة الاستعمار، والرأسمالية المتمثلة فى تسلط الأغنياء فى بريطانيا، إنما يستند إلى أسس موضوعية ، لم تحجب عنه رؤية الجوانب الإيجابية فى المجتمع البريطانى ، مثل نزاهة العدالة التى اتسم بها القضاء البريطانى ، وهو معجب بالديمقراطية، وصاحب موقف ودور متساوق مع التقاليد الملكية ، يكاد يبكى على أمجاد الأيام الماضية ، قبل أن يلوث التمييز العنصرى بريطانيا، حين كان لون المرء لا يحول دون ترقيه اجتماعيا، أو يؤدى إلى عزله من المشاركة الحميمة فى المجتمع ، على أيام الملكة فكتوريا. كان ناقدا للاستعمار، مهاجما لغطرسة بعض الإداريين فى المستعمرات الآسيوية والأفريقية، وتعاليهم على الشعوب المستعمرة ، وتجاوزهم حدود العدل فى التعامل، ولم يكن معاديا للمجتمع البريطانى ، أو الثقافة السكسونية .

إن شخصية دوس هى شخصية الكاتب المفكر والممارس النشط . فهو كاتب تربى فى كنف اللغة الإنجليزية ، ورضع ثقافتها ، وكتب بها نتاجه المتنوع ، على صعيد المسرح ، والصحافة التى تشمل المقالة والتعليق السياسى والقصة والرواية والقصيدة ، وهو ممارس للنشاط السياسى والاجتماعى والثقافى ، فى مجال الأفريقيين والتضامن الآسيوى الأفريقى ، والقضايا الإسلامية، وقضايا السود فى أمريكا، وفى مجال الحفلات الموسيقية والمسرحية، وبإنشاء صحف ، ومحاولة إنشاء أعمال تجارية تساعد على النهوض بالجماعة أكثر من الانحصار فى قلة من الأفراد ، وبإقامة علاقات مع الشخصيات والمنظمات العاملة من أجل الاستقلال وضد الاستعمار.

الحياة الخاصة لدوس عرفت الزواج مرتين: الأولى من بياتريس ، وهى سيدة إنجليزية مسلمة، ذات مشاركة فى نشاط الجمعية الإسلامية فى لندن، ولها أعمال منشورة فى مجلته.وقد انقطعت علاقته بها ، عند سفره إلى أمريكا، وهناك تزوج من أمريكية -Cer Trude La Page جير ترود لاباش[١٠] وهى سيدة تنتمى إلى جماعة دينية أمريكية، تعتنق دين قدماء المصريين ذهبت معه إلى لاجوس فى نيجريا، وأقامت معه فترة طويلة ، ثم

عادت إلى أمريكا، قبيل وفاته، وتركته فى لاجوس حيث عاش وحيدا، وتوفى وهى فى أمريكا.

وفى كلتا الحالتين تزوج دوس من امرأة بيضاء ، ولم ينجب ذرية من كلتيهما.

وفى الخامس وعشرين ، من يونيو عام ١٩٤٥ م ، توفى دوس فى لاجوس ، وشيعته جموع غفيرة إلى مثواه الأخير وكانت جنازته حدثا مشهودا [١١] يؤرخ به .(*)

١- الفصل الأول : مدخل

كومت ١٩٣٧/٦/٢١

عندما أروى لمستمع - طالت معاناته - حكاية أو حكايتين ، من حصيلة الذكريات التى اكتنزتها حياة زاخرة بتجارب متنوعة ورحبة عن الناس والأشياء ، فإنى ، فى أحايين كثيرة ، أواجه بإلحاح يلحف على ، أن أدون سيرة حياتى .

ولا ريب أن من يستمعون إلى ، يعتقدون أن من الميسور إغفال بعض الصفحات لو تسنى لى ناشر ذو جسارة كافية يمكن أن يغامر بتحمل تكاليف الطبع - بدلا من الإنصات إلى كل تفاصيل ذكرياتى المملة .

وهذا العمل لا يقتضى توظيف وقت أكثر مما يتسع لى الآن فحسب ، بل يتطلب تصنيف مجلدات وأكثر من كل المجلدات التى صنفها اللورد " جون مورلى " ، لإماطة اللثام عن اللغز السياسى البالغ التعقيد : و. إى ، قلادستون . [١٢]

حسنا، من هنا نسير . جاءت ولادتى مخالفة للمألوف فى ولادة معظم الأطفال، لأن القابلة خديجة خرجت من بيتها لزيارة بعض الجيران، فى جولة من جولاتها المخصصة للثرثرة، متناسية واجبها المهنى . ولأننى كنت فى حالة توق عارم الى ولوج عالمنا المجنون هذا ، كما حدثونى ، فقد ولجت هذا العالم بصراخ مزعج، غدا مصدر فزع من بعد ، لخديجة تيكم ، عندما وصلت بعد ساعتين من ميلادى ، لتجدنى مدثرا بالثياب، بعد الحمام، فى بكاء مؤلم.

ويبدو أن بكائى الزاعق دال على أننى لم أكن سعيدا بالعالم الذى تميزت بتوق حار إلى زيارته . وبما أننى لا أتذكر شيئا من الحادثة ، فلا مندوحة إزاء هذا الاتهام ، من الإقرار بأننى مذنب !

من ذكرياتى الباكرة ، أننى تعلمت حروف الهجاء الإنجليزية ، على يد مبشرة مسيحية صارمة إسكوتلاندية الجنسية ، كان من البين أنها تعدنى همجيا ساقطا. لماذا كان على أن

أتعلم حروف الهجاء الإنجليزية في تلك السن الغضة ، في الخامسة ؟ هذا سر غامض ! غير أنّ أبي اتسم باعتناق أفكار متقدمة. كان يحاول قائلا: مادام الخديوى إسماعيل باشا قد باع نصيبه من أسهم قنال السويس ، فلابد من أن تخضع مصر لسيطرة بريطانيا العظمى في يوم من الأيام . ولهذا أراد لي أن أتمكن من إتقان اللغة الانجليزية لأغدو ذا نفع لبلادى .

في السنة التاسعة من عمرى ، وضعت تحت وصاية الكاتب " دوس " الضابط في الجيش الفرنسي ، وهو زميل لوالدى ، درسا معا في الأكاديمية العسكرية الفرنسية، وهو الرجل الذى حملت اسمه في فترة لاحقة ، عندما بدأت نشر كتاباتي، وقد اخترت اسمه " دوس " اسما لي. مدفوعا بحقيقة أن هناك كثيرين يحملون اسم محمد على في العالم ، فإن كنت أصبو إلى تحقيق شيء نافع لبلادى ، فلا مناص من أن يكون لي اسم متفرد.

اسم " دوس " يحمله في ذلك الحين شخصان : إليونورا دوس ، الممثلة ، وهي آخر فرع في شجرة العائلة بايطاليا، في حين أن الكابتن دوس هو آخر فرد في عائلته بفرنسا، وحسب معلوماتى ، فأنا الشخص الوحيد في العالم الذى يحمل اسم دوس . (١٣) .

وضعني الكابتن دوس في رعاية أسقف بكنيسة ، في لندن . وسرعان ماترقى الكاهن إلى مرتبة أسقف ، ثم أدركته المنية ، قبل أن يستمتع استمتاعا تاما بما لعنايته من ربح.

في أبريل عام ١٨٨٢ ، طلب إلى أن أعود الى مصر على وجه السرعة ، وأنا في الخامسة عشرة ، قبل أن أكمل دراستي ، وبعيد ذلك ألقيت نفسي في وسط معمعة القصف البحرى لمدينة الاسكندرية ، وسلسلة من جولات الشغب المتلاحقة.

أرسلت أمي وأخواتي الى السودان طلبا للأمن . ولم أسمع عنهن أى شيء من بعد ، بالرغم من الجهود التي بذلتها ، بهدف الاهتداء إلى مكان إقامتهن، على مدى فترة ممتدة لأكثر من خمسة عشر عاما.

قتل أخي في أثناء القصف ، ومات أبي بعد شهرين في متاريس التل الكبير .(١٤)

كل الذين أعرفهم من أقاربي اختفوا ، لأنهم متهمون بالتمرد ، فخشوا على أنفسهم من انتقام الخديوى توفيق وبطشه . في سن السادسة عشرة ، وجدت نفسي غريبا في بلدى ، وكنت مجبرا على العودة إلى انجلترا. لي هناك - على الأقل - كثير من المعارف وقليل من الأصدقاء .

رصيدى المالى لا بأس به فى ذلك الحين ، لكنه محدود ، ولا يكاد يفى بمقابلة حاجتى لأكثر من عام، على أحسن تقدير ، ولهذا ، كنت مضطرا لقطع دراستى الاكاديمية ، والبحث عن مورد عيش.

ولأنه تسنى لى أن أظفر بشىء من النجاح فى أداء دور " المورى " فى مسرحية شكسبير " تاجر البندقية" ، على مسرح مدرستنا ، فقد نصحنى صديق شهد ذلك العرض ، بأن أتجه إلى العمل فى المسرح. وبعد تردد وتهيب ، وجدت من يقدمنى إلى " ولسون باريت " ، واخترت اسما مسرحيا، سرعان ما تخليت عنه . واستمسكت باسمى الأول ، وتحولت إلى " رجل متجول " كما كان يطلق على الممثلين الذين يؤدون أدورا جانبية ، وظهرت على خشبة مسرح "رويال برنسيس " فى شارع أكسفورد ، فى المسرحية الرومانية " كلا وديان ".

ثم زرت أمريكا مع مدير الفرقة ذاك الممثل ، حيث عهد إلى بأداء دور صغير.

وبعد نهاية جولة " باريت " فى أمريكا (١٥) حصلت على عقد عمل من " الماجور بوند " من كبار المتخصصين فى تنظم المحاضرات ، وذلك للتجول فى أنحاء أمريكا. مقدما محاضرات بوصفى " الشاب المصرى المعجزة " ، " الراوية منشد أعمال شكسبير " وقد داخلنى العجب من الأمر كله لم ؟! غير أنهم فى أمريكا يمارسون مثل هذه الأشياء .

ظفرت ببعض النجاح ، وختمت جولة المحاضرات ، وفى جيبى ألفان من الدولارت . عدت إلى إنجلترا، لأظهر فى مسارح " رامسفيت " و " مارجيت " و"برايتون " وغيرها من مدن الساحل الجنوبى ، مؤديا ، أدوار السود " فى فرقة " مس سارة ثورن ".حيث اكتسبت خبرة جيدة فى مجال العمل المسرحى ، تحت توجيه مديرة الفرقة الممثلة المشهورة.

٢ - الفصل الثانى : السلطة الرابعة

كومت ١٩٣٧/٦/١٩ ص ٧

ثم اتخذت وثبتى الأولى فى عالم الصحافة.

فى البداية كتبت رسائل إلى الصحف عن القضية المصرية ، وفق معرفتى لها ، وأعيدت إلى رسائل كثيرة ، تحمل عبارة " مع اعتذار المحرر " (عن النشر) ، حتى سنحت فرصة ، عندما أدلى " جلادستون " ببيان فى مجلس العموم البريطانى حافل بالأخطاء . ولأننى شاهد عيان على الواقعة، فقد غمست قلمى فى بحيرة من بلاد الغال، وبعثت ست رسائل ، تتحلى بقدر كبير من اللباقة والكياسة ، إلى صحف مختلفة ، ولدهشتى وسرورى ، نشرت كل صحيفة من تلك الصحف رسالتى فى اليوم التالى ، وبدا " فليت استريت " مندهشا يسأل " من يكون دوس محمد على ، مثير هذه الزوبعة " ؟!.

أدى نشر الرسالة إلى اهتمام الصحفيين فى " السلطة الرابعة" بشخصى ، واكسبنى شهرة وسطهم ، فكان أن عقدت صلة ب " جوش برسون " الصحفى العريق الراسخ الكعب .

جوش أو " جاشوا" وهذا هو اسمه الحقيقى ، شخصية ذائعة الصيت ، إنه يعرف كل رؤساء التحرير والصحفيين فى لندن. فى عنفوان شبابه كان يجلس مع " شارلس دكنز" [١٦]فى القاعة المخصصة للصحفيين ، فى مجلس العموم البريطانى . ولسبب لا أعرفه شملنى " جوش " بعطف أبوى ، فقد منى إلى " جورج أغطس سالا [١٧] علم " فليت استريت" يومئذ ، ولكمنت اسكوت الناقد المسرحى الشهير و" هنرى لامورشير" المحرر فى جريدة " شروث " و"لاوسون " المحرر فى جريدة " تلغراف " ، وكل المحررين خاصتهم وعامتهم ، ماعدا العاملين فى جريدة التايمز. إن " جاشو " يعرف رئيس تحرير " التايمز" ولكن معرفة عابرة. إن رئيس تحرير " الإله جوبتر" [١٨].كما كان يسميها " مارى كوريليت " وجيه صاحب مكانة رفيعة من العزة ،

لايتأنى معها غير صلة عابرة بزعيم الكتاب البوهيميين فى " فليت استريت" [١٩] وكانت تلك الأيام قد شهدت عددا من الكتاب البوهيميين الأقحاح ، داخل أسوار " النادى الهمجى " وخارجه.

كانوا مولعين بتعاطى الخمر إلى حد بعيد، غير أنهم اتسموا بروح التآخى والتضامن ، مع زملائهم فى " فليت استريت " ، فى السلطة الرابعة ، كانوا متواضعين وعلى استعداد دائم للتخلى عن آخر مليم يملكونه، من أجل زميل فى حاجة ماسة إليه .

باألله . الأيام الخوالى فى " فليت استريت" مضت إلى الأبد . شاعت الآن بوهيمية مصطنعة ، وتوارت روح التآخى إلا قليلا. إن الصحفيين الجدد متعظمون متكبرون . مغرمون بالمظاهر ، ممن تجمعهم " رابطة المدرسة الثانوية " أو " برطمة الجامعة " ، نادرا مايزوررون تلك الأماكن البهيجة مثل " جيشير جيس " . إنهم يهحرونها ويتهافتون على ارتياد فنادق " وست إند " ليلتقطوا شرائح من فضائح المجتمع المرفه ، يطعمون بها صحافة الإثارة الحسية ذات الشهوة الشرهة.

كانت الصحف البريطانية القيمة رزينة إلى حد مخيف ، ومستقيمة على نحو صارم مؤلم ، ولكن أداءها تميز بحسنات بيانية ، قد اختفت اليوم اختفاء يرثى له .

إن أقل الصحفيين شأنا وأبخسهم أجرا، فى عهد الصحافة القديمة ، فى الأيام الماضية ، سيكون مصيرهم الطرد من " فليت استريت " لو جرؤوا على استخدام الأساليب العامية ، والرطانة الإثارية التى راجت سوقها الآن (عام ١٩٣٧) فى بريطانيا) على أساس أنها صحافة حديثة ذات طلاوة وجمال.

إن آل " هارمسورت " مسؤولون مسؤولية مباشرة عن ابتداع ظاهرة " الصحافة " الحديثة التى بدأت مسارها بميلاد جريدة " ديلى ميل ".

إن الأعضاء القدامى فى " السلطة الرابعة " دفعتهم الغيرة لصون كمال المهنة واستقامتها ، ولابد أن السكتة القلبية ستردبهم ، إن اتيح لهم شهود العبارات العامية تزحف إلى صفحاتهم.
كانوا يعرفون اللغة الانجليزية ، ويتقنون التعبير البيانى بها، وقد جاءت أساليبهم فى أرفع مستويات الأداء الأدبى الراقى. ولا شك أن قدوم الأخ الأمريكى إلى بريطانيا ، انطوى على

تأثير " سلبى " بالغ فى الصحافة الإنجليزية . وباستثناء صحف مثل " ديلى تلغراف " ومانشستر جارديان ، وليفر بول بوست وسكوتمان ، ولندن مورننج بوست ، وأوبرزفر ، وتندرو العرديقة ، التى لا يمكن أن توصف لغتها بأنها هابطة ، عند أصحاب المقياس العالى مثل "نورث كليف " ، وباستثناء صحف أخرى قليلة مشرفة ، فإن المستوى العام للصحف البريطانية جد مخيف ومثير للعجب .

ولنعد إلى " جوش برسون " العتيق ، هذا الرجل هو ابن أخ الدكتور برسون ، القس العظيم، ذى الاتجاه التحررى ، الخارج على تقاليد الكنيسة الانجليزية البروستانتية، ذاك الذى أثار رجة عنيفة في الدوائر الأكلريكية الكنسية. نشأ " جوش " فى جو متدين ، وكما هو الحال دائما ، فإن المبالغة فى التدين تؤدى إلى أن يدور بندول الحياة فى الاتجاه المعاكس تماما .

ذات يوم ، كان " جوش " الكاتب الرئيسى فى صحف كثيرة، ورد ذكرها من قبل ، كان عضوا فى تحرير صحيفة " فود وردس " التى أنشأها " شارلس دكتر" فيما أحسب ، وترأس الرجل تحرير صحيفة " سالا " التى لم تعمر طويلا.

جورج أغسطس " سالا " العظيم انشغل بصياغة النشرات الخداعة للشركات فى مدينة لندن، وهذا مجال برزت فيه عبقريته. وهو يكسب من خمسة عشر إلى عشرين جنيها إسترلينيا فى دقائق معدودات . وبعدها يظهر فى " فليت استريت " متزينا بحلة سوداء ، وصديرى أبيض ناصع ، بجسم بطن بارز ، وبرباط عنق أحمر اللون صارخ ، هو منافس خطير لسحنته الحمراء ، وأنفه الأسفنجى .

وخلال فترة وجيزة من الزمان ، هزمت قارورة الخمر " جوشوا" وبدا يفقد عمله فى كل مكان يوما بعد يوم ، بسبب متكرر، ، إبان نوبات سكره ،حتى انتهى به الحال إلى شخص يعيش على الكفاف ، من اليد للفم ، مجرد بائع سندوتشات متجول .

وحسب حالى المتواضع ، حاولت إنقاذه مرات كثيرة ، ولكن " جوشوا " آل إلى منبوذ من المجتمع، ميؤوس من صلاحه ، وانتهى به الحال ، أن مات فى ملجأ للمسنين الفقراء.

سأظل أذكره دائما بكثير من الإجلال، لقد علمنى كل ما أعرف عن الصحافة . إنه صديقى الذى رعى مراحلى الأولى فى هذه المهنة.

٣-الفصل الثالث : المسرح وأوسكار وايلد والجيش

كومت ١٩٣٧/٦/٢٧

في إبان هذه الفترة ، كنت أظهر على خشبة المسرح ، بينما كنت أعمل في الصحف بالقطعة ، على نمط : مليم لكل سطر.

كنت مداوما على غشيان مسرح " سامِوي " ، حيث أحظى بمشاهدة مجانية، وكذلك مسرح " دروري لان " . وكنت أعرف " دولي كارت " في سافوي ، والسير أغسطس هاريس في "دورروري لاند" .

وفي مسرح سافوي ، تشرفت بمقابلة المرحوم الملك إدوارد "[٢٠] ملك بريطانيا السابق وكان يومئذ أمير ولز.

لقد أديت بعض المشاهد الصامتة، في خشبة مسرح " دروري لان " . وقمت بأداء دور عبد نوبي .، في مسرحية " هابياتيا" التي ألفها " بيربوم بتري "[٢١] الذي صار" السير هربرت " بعدئذ . وأثناء أدائنا لهذه المسرحية، وقع حادث مشؤوم أعتبر نفسي مسؤولا عنه ، وكاد الحادث يؤدي إلى إفساد عرض المسرحية .كان " تيري " يؤدي دور " اليهودي " ، ويقوم "والار" بدور " برفكت " ، وينهمكان في تقديم أشد مشاهد المسرحية توترا : اليهودي يتهدد "برفكت " وبرفكت يصفق بيديه مستدعيا خادمه النوبي الأمين. وهنا أدخل أنا إلى المسرح ومعي عبد آخر، شاهرا خنجري ، مستعدا لحسم المعضلة التي سببها اليهودي . وكان المشهد المسرحي يدور في غرفة استقبال فخمة في قصر حيث تسند ثلاثة أعمدة رخامية ضخمة السقف الرخامي مع ألواح فضية ، دخلنا معا بين هذه الأعمدة، ولأنني تعجلت في تلبية طلب " برفكت " فقد أزحت أحد الأعمدة عن موقعه وهو أمر أثار إعجاب الجمهور، أما " تيري " فقد كتم غيظه ، ونظر إلى شذرا ، ولكنه واصل تكملة أداء المشهد. ولحسن الحظ صرفنا "برفكت - حسب الخطة - مما مكنني من استعادة توازني ، قبل أن يغادر " تيري " خشبة

المسرح . ولقد بدا متفهما للموقف وكنت أتوقع لوما من " هاستنج " أو نائبه " شلتون " ، غير أن الأمر مر دون أن ينبسا بكلمة . وبعدئذ صرت حذرا جدا أثناء عبورى بين هذه الأعمدة الرخامية، حريصا على تجنب الوقوع فى الخطأ مرة أخرى .

وهذا يذكرنى بمقابلة لأوسكار وايلد فى "هاى ماركت " .

كان التدريب على تمثيل مسرحية " امرأة لا أهمية لها" يجرى على قدم وساق ، عندما أوقف " تيرى " عرض مسرحية " هاى باشيا" فى وسط نجاحها الغريب، وقيل إن السبب هو حرصه على الوفاء باتفاقه مع " أوسكار وايلد" لعرض مسرحيته " امرأة لا أهمية لها ".[٢٢]

كنت أجلس فى " الغرفة الخضراء " منتظرا وصول " تيرى " حسب وعد سابق ، حين ظهر أوسكار وايلد فى الغرفة.

لقد كان أوسكار وايلد " الشاعر البدين " بحق ، كما وصفه جلبرت ببراعة : كتفان عريضان ، وأنف أكولينى ، وعينان زرقاوان واسعتان، من فوقهما جفنان كثيفان متدليان ، فم شهوانى ، بشرة متوردة زاهية ، وهيئة مستديرة. طوله لا يتجاوز خمسة أقدام، وعشر بوصات، ولكن انحناءته تجعله يبدو أقصر مما هو عليه. يرتدى ملابس زاهية وفق أحدث طراز، ولكنه لم يمنع نفسه الحرية فى تخيل تقلب الطقس فى لندن ، فقد بدا فى معطف أزرق ، وياقة من القطيفة، وقبعة حريرية لاصقة على رأس يميل إلى الشقرة، وعليه خطوط بيض قليلة . إنه رجل إذا أبصرته فى وسط حشد من الناس ، فإنك لا يمكن أن تتجاوزه دون أن ترمقه بنظرة . إن فى تكوين شخصيته شيئا ما ، يأسرك ويستحوذ على انتباهك.

تحول أوسكار وايلد فى الغرفة الخضراء بتؤدة ، وكأنه يشعر بسأم ، ثم اتخذ مجلسا قريبا منى وأخرج مخطوطة المسرحية من جيب سترته ، وبدأ ينظر فيها على مهل ، مبديا بعض الملاحظات وهو يقلب الصفحات ، ولأن " تيرى " لم يحضر بعد ، ووقت التدريب على تمثيل المسرحية قد أزف ، فقد نادى " شليتون " الذى خلف " هاسننج " على إدارة الفرقة وسأله إن كان " تيرى " وصل ، فلما تلقى إجابة بالنفى ، أخذ يتجول فى داخل الغرفة الخضراء متمهلا، ولما أعوزه أن يجد تسلية مناسبة ، تنازل من تعاليه وتكلم.

سألنى عن بلدى ، وعن المدة التى قضيتها فى إنجلترا، إلى آخر هذه الأمور العادية ، وقد

كنت راغبا فى محادثته، ولكننى لم أتهيب الرجل العظيم ناقش قضايا السياسة المصرية، إبان عهد عرابى ، وإن المرء ليعجب من حجم المعلومات التى اكتنزها أوسكار وايلد ، ولكن معرفته بالأمور السياسية تبدو ممعنة فى السطحية. ويظهر أنه معنى بدراسة الفرد الإنسانى على نحو يفوق اهتمامه بالأهداف والميول السياسية لذلك الكائن البشرى إنه مفكر جيد بلا ريب ، ولكنه مفكر يتكلف التأثير . إن الجانب الملفق للحياة الاجتماعية يبدو عنده أكثر جاذبية من المقومات الأساسية للتجربة الإنسانية ، وهو على كل حال، يتميز بأسلوب أدبى هو أعجوبة زمانه ، ومثار حسد معاصريه.

عندما قابلته ، كانت الفضيحة التى نشرتها جريدة " ترث " أخذت تتفجر، ولكن فى دوائر معينة ، حين صار محاطا بالريبة. وهناك من يحتلون مناصب مرموقة يعجبون بنبوغه لكنهم يعيبون فى السر والخفاء . مايعرو أخلاقه من اتجاهات غريبة. إنى لأنظر إلى موهبته فى حدود المقدرة الأدبية على التنميق ، أكثر من أن يكون ذا عبقرية شعرية، وهذا لا يعنى أننى لا أستطيع الإعجاب بتدفقه الأدبى ، على العكس تماما، إنى لأعده من الزخارف الأدبية فى العصر الفكتورى ، ولكننى لا أرى أن أعماله - ولا سيما الأشعار التى نظمها قبل سجنه تستحق الإطراء الذى انهال عليه من " الثلة " المعجبة

وأرى أن " ذا بالاد أوف ردينج فود " هى قمة أعماله وأفضلها بلا شك ، وكذلك " دى بروفنديس " [٢٣] ولكن هذه الأعمال كتبت فى أيام المحنة، عندما وجد أوسكار وايلد نفسه ، وكانت أيام الاستمتاع غير الطبيعى بالملذات الحسية قد مضت إلى غير رجعة.

شخصية أوسكار وايلد جذابة فاتنة ، بالرغم من الاشمئزاز الذى خلفه فى العقول الحساسة الصافية.

إنه يمتلك مغناطيسية حيوانية على درجة عالية من التأثير . وكانت له مقدرة على اجتذاب الشبان من الرجال أكثر من الجنس اللطيف . الجنس اللطيف يعده نموذجا شهوانيا للهواية الجمالية . كانت النساء معجبات بنبوغه ذى الطابع السطحى ، بينما يميل الشبان من الرجال الذين عاصروه ، والذين لقنوا مبادىء دنسه فى المدارس العامة، إلى الإعجاب بأوسكار وايلد، بوصفه الكاهن الأكبر للأخلاق المتمردة .

فى عهد " شارلس الثانى " .. انفلت حبل الأخلاق فهامت على وجهها، لأن التطهريين، أخضعوها للمراجعة والضبط ، فلما جاء عهد الملكة فكتوريا، فإن الأخلاق التطهرية فى البلاط ارتبطت بالممارسات الأخلاقية المشبوهة من قبل،الحاشية كانت بطانة " أمير ولز " منتقاة من رجال منحلين ، وسيدات حذرات فى كتمان علاقاتهن الجنسية المحرمة ، عن مسامع الدوائر الداخلية لبلاط ملكى منضبط فى لبونة ، ومثلما حدث فى أيام الامبراطورية الرومانية، فإن النبلاء قد سئموا اللذة الحسية الطبيعية ، عندما أصيبوا بالتخمة ، من فرط انكبابهم على الاستماع بالملاطفات الأنثوية ، فإن أولئك قد جرتهم الغواية رويدا رويدا إلى ممارسة ماهو مخالف للطبيعة والعادة ، إلى أن بلغ الأمر ذروته فى"الشارع المؤدى إلى الخراب الماحق". وبعدها أصاب الانهيار " شلة أوسكار وايلد" وصار السجن والخزى من نصيب كبش الفداء .

أرى أن أوسكار وايلد عاش أكثر من أن يكون شخصا لا أخلاقيا ، لقد قادتنى ملاحظاتى الى نتيجة مؤداها أن وايلد متعطش الى التصفيق ، ولقد أبطل " جلبرت " الدعاوى الشعرية لوايلد ، فى المسرحية المتهكمة " الصبر" ، من أن العبث قد أجبره على اتخاذ قنوات جديدة ، وأن " الشلة " ذات الأخلاقيات المارقة قد تشكلت .

من البين ، أن النشأة الارستقراطية ، إذا اجتمع معها مثل نبوغ " وايلد " ستجعل السقوط أقل حدة ، ولكنه فرد من عامة الشعب ، فى حين أن رفاقه الشبان أصحاب مكانة سامية، مما يجعل من العسير أن تتخذ المسألة أى مسار غير المسار الذى اتخذته.

كانت جريدة " ترث " معثرة ، وكانت الأخلاقيات البريطانية تقتضى أن تؤخذ العبرة من خلال شخص ما ، وتسنى انتقاء " وايلد " ليكون الضحية.

الحصيفون من القوم أصبحوا يرون أن أوسكار وايلد ، لا يمكن أن يكون أبشع مقترف للخطيئة المحرمة. ولهذا فإن انتعاش الاهتمام بمسرحياته أمر ممكن الحدوث .وبصرف النظر عن سمة " الحوار الرائع " فى مسرحه ، فإن نصيب تلك المسرحيات من الرواج والاستمرار هو أمر ستحدده الأجيال المقبلة . ولكننى سأجازف بتقرير أن آخر عملين أصدرهما ، سيقرأهما الناس بمتعة واستفادة ، حين يخبو اللهيب الأدبى الذى أشعلته مسرحياته التى تثير حساسية البنات اليافعات فى المدارس العليا. (٢٤)

٤- الفصل الرابع : بادا - بهاى ناورودجى

كومت ١٩٨٧/٧/٣

فى ذلك الأوان ، طرح الجنرال " بون " عمله المثير " انجلترا فى أحلك أيامها والمخرج ". وطلب الى أن أطوف على " بيوت جيش الخلاص " [٢٥] وإعداد تقارير صحفية عن ذلك النهج . وما أن تركت " هاى ماركت " بعد العرض المسرحى ، حتى هرعت الى مسكنى ، وتنكرت فى هيئة عامل ميناء متعطل عن العمل ، يعانى الفاقة ، وكان أن تجولت فى " مأوى " جيش الخلاص ، فى شرق لندن ، أدفع مليما واحدا عن كل ليلة وأدون ملاحظاتى فى الخفاء، بحيث لا أثير الفضول .

وهناك رأيت ما لفظه المجتمع من حكام السفن الغارقة وطرح البحر، من القساوسه الذين جردتهم الكنيسة من مناصبهم الدينية ، والمحامين الذين شطبوا من سجل المحامين ، والأطباء الذين أدت ممارساتهم غير المشروعة إلى حرمانهم من مزاولة التطبيب ، من " القوم الساقطين " من المتسكعين الذين لا يحرمهم قضاء يوم فى أداء عمل ، إن قدم لهم فى طبق فضه ، ولكنهم قد يهشمون الطبق نفسه .

فى بيوت جيش الخلاص يشيع الصخب ويتخلله الشخير، وخاصة بعد إطفاء الأنوار ، مما يدفع المشرف على البيت فى الليل لتهديد من يعكرون صفو الهدوء بالطرد فورا من البيت .

لا شك أن مؤسسة الجنرال بوث ظفرت بقدر ما من النجاح ، لاحظت أن كثيرا من حالات الكرب الشديد قد تحسن أمرها بفضل الجيش، وفى الأيام الأولى كان الجيش يوفر أعمالا كثيرة للمتعطلين ، وكان الانتماء " للخلاص " يمهد الطريق أمام الراغبين ويمنحهم الأفضلية . كثيرون من الخبثاء أظهروا التوبة والتدين ، ليضمنوا الحصول على عمل فى جيش الخلاص ، وبسهولة ويسر.

قد انهمكت فى مواصلة تحقيقاتى ، وقضيت أسبوعين فى أحد البيوت حيث غدا رجال

محترمون متعطلين يقومون بممارسة أعمال طفيفة ، مثل فرز الأوراق والخرق البالية التى كان لى نصيب فى ممارستها. الأثرياء المتعاطفون مع جهود الجنرال أسهموا نوعا ما متبرعين بملابس قديمة وأثاث. ولكن المشرف على العمل ، يختار أفضل ما يقع فى يده ، من ملابس وأثاث ، ويرسلها ، على وجه السرعة ، الى أقاربه ، اليهود ، أو أصدقائه ، متى سنحت فرصة . ربما تغيرت أمور منذ ذلك الحين الى أحسن ، ولكن عدد المحتالين الدجالين الذين ادعوا أنهم " وجدوا المسيح " فى تلك الأيام، من أجل تيسير الحصول على عمل، كان كبيرا جدا، أثناء الأسبوعين الذين قضيتهما فى ذلك البيت .

عندما أجزت تقريرى عن الجيش ، ألفيت نفسى متبطلا ، فاتصلت بالسير أغسطس هارير فى " لان"، أسأله إن كان من الممكن إلحاقى بعمل ما فى عرض من عروضه المسرحية. حدثنى أنه مقدم على فتح دار الأوبرا الإنجليزية لتغدو مسرح متنوعات رفيعا، لأنها موصدة منذ إخفاق عرض " ايفانهو " الذى قدمه السير أرثر شليفان ، وحدثنى أنه بحث عنى طويلا، ولم يعثر على ، من أجل القيام بدور السير " راجاه خان " فى مسرحية ذات فصل واحد ، من تأليف " جوستين هنتلى مكارثى " ، تتناول تمردا هنديا ، وأخيرا منح الدور لريجنولد قبل يومين .

على أى ، صرت أزور المسرح ، بالاس شيبتر" كل يوم ، وأشهد التدريبات ، لأن "ريجنولد" ربما يتخلى عن أداء الدور فجأة، ولأن ذلك يتيح لى الحصول على تذكرة إكرامية لحضور الليلة الأولى لعرض المسرحية. حيث حظيت بسعادة أن أقابل مؤلف المسرحية ووالده ودادا بهاى ناورودجى .

ربما لم يكن فى بريطانيا فى أواخر الثمانينيات ، وأوائل التسعينيات ، (من القرن التاسع عشر) شخصية سياسية مثيرة للاهتمام مثل دادا بهاى ناورودجى ، الهندى عضو البرلمان البريطانى عن دائرة كلاركن ول .[٢٦]

حاول ناورودجى الحصول على مقعد " السير جون فورست " وفشل ، حتى تحرش به اللورد سالزبورى [٢٧] فى استفزاز فقال : ليس هناك دائرة بريطانية محترمة ستقدم على انتخاب شخص أسود ليمثلها فى مجلس العموم البريطانى .

هذه وأمثالها من التنبوءات الأخرى الكثيرة التى أطلقها المرحوم " ماركيز " دحضت بعدئذ فى ربيع عام ١٨٩٢ عندما استعاد ناورودجى مقعده ، بأغلبية محترمة .

لا ريب أن ناوورودجى هو السياسى الهندى الأول فى عصره ، وأن الحركة القومية الهندية اللاحقة تدين بكثير من نجاحها لجهوده الأولى ، وللتعاون النشط مع المرحوم فرانك هق أودونيل .

قابلت ناوورودجى أول مرة بعد فوزه فى الانتخابات . فقد كتبت رسالة الى المستر لابشوير، طالبا مقابلته فى مجلس العموم ، وقبل أن أتلقى ردا ، ذهبت إلى المجلس بهدف ملاقاته. وبينما كنت منتظرا، مر دادا بهاى ناوورودجى مع المرحوم " هنتلى مكارثى " [٢٨] الذى كنت أعرفه معرفة عابرة، فانحنيت لمستر مكارثى ، عندما مر بى ، فجاء إلى ذلك المؤرخ الدمث الأخلاق وصافحنى وبعد التحيات المعتادة ، نادى نارودجى وقدمه . هنأت نارودجى بفوزه فى الانتخابات ، الذى مايزال قريب العهد ، وعبرت عن رغبتى فى التحدث إليه عندما يتأنى له أن يقتطع قدرا قليلا من وقته المخصص للمهام السياسية . قال نارودجى أنه سيكون جد سعيد بملاقاتى فى مجلس العموم ، فى أى وقت أشاء ، لأنه موجود فى المجلس دائما خلال الدورة البرلمانية.

وبعد أسبوع ذهبت إليه، وشربنا الشاى معا ، وأدرنا مناقشة قصيرة عن مصر والهند . ولأنه لم يكن يعرفنى معرفة جيدة، أخشى أن يكون قد ظلم نفسه عندما تحدث عن الشؤون الهندية ، أو ربما ظننى حدثا صغير السن ، لا أفهم تعقيدات السياسة والأحزاب والسياسات فى الهند. كان نارودجى غير مدرك لشعور الطرف الآخر ، فيما أخشى ، وبحكم اندفاع الشباب ، ملأت لحظات الصمت بكثير من الخفة المرحة. استمع نارودجى بصبر شديد إلى هذرى الذى استغرق مايقارب ساعة، ثم نظر الرجل إلى ساعته ، وهب واقفا على قدميه مبتسما ، ومد إلى يده ، وافترقنا، وكما أسلفت قابلته مرة ثانية فى المسرح، بالاس شييتر ، ليلة افتتاح العرض المسرحى .

لا أذكر إن كانت المجموعة وصلت فى وقت مبكر إلى المسرح ، ولم ألحظ ذلك ! إلى أن انزاح الستار عن بداية المسرحية التى ألفها مكارثى الشاب ، وقبل نهاية العرض ذهبت إلى

المقصورة ، لتهنئة مكارثى الكبير على نجاح مسرحية ابنه ، وبطبيعة الحال، تحدثت مع ناورودجى . إن المسرحية - فيما أذكر- لم تكن عملا كبير الشأن والتألق . وفكرة أن يتحول وغد إلى أمير هندى ، لم تكن تروق بطولة ناورودجى ، كان يتسم بدماثة الخلق ، ولم يعبر عن حقيقة موقفه عندما سألته عن رأيه فى المسرحية . وأشك فى أن مسلكه نحوى كان متأثرا إلى حد كبير بالمنحى المتحمس الذى استقبلنى به ناورودجى الكبير.

ما أعجبنى فى ناورودجى أنه ولد ليكون مقاتلا ، وليس بقائد ، لم يكن يمتلك المغناطيسية التى تجتذب الرجال. وكذلك شعرت بأن نجاحه بدخول البرلمان قد تضخم ونال وزنا أكثر من حقيقته .

ناورودجى هو أول شخص ملون يدخل مجلس العموم البريطانى ممثلا لدائرة إنجليزية . لقد دخل التاريخ . ومن الممكن التماس شىء من العذر لحالته المتضخمة. إنه لم يسهم بأى شىء ذى أهمية فى مناقشات المجلس الخاصة بالهند . المرحوم اللورد " سينها" أفاد القضية الهندية خلال شهر أو نحو شهر قضاه فى مجلس اللوردات بأكثر مما قدم ناورودجى خلال سنوات الفترة التى قضاها نائبا فى مجلس العموم. إن انتخاب ناورودجى (عضوا فى البرلمان البريطانى) هو ريشة فى العمامة السياسية للهند . وقد حفز ذلك كثيرين منا آملين فى أن اليوم الذى يتم فيه إنشاء برلمانى وامبراطورى ملكى ليس ببعيد (٢٩).

قليلون من " مشرعى" الامبراطورية يعرفون شيئا ما عن الأخطار التى يشرعون لها، قليلون منهم يعرفون بعض أشياء عن جغرافية الامبراطورية ، وقدرا قليلا عن شعوب الامبراطورية . إن فوز المرحوم " ساكفانوالا " بدخول مجلس العموم ، هو مجرد شريحة لحم فى مقلاة الدعاية الشيوعية، ولم يكن لذلك شأن بالسياسة الهندية .

ربما عندما تحدث بضع هبات محلية عنيفة، مصحوبة بخسائر فى الأرواح ، عندئذ ستستيقظ الحكومة البريطانية على حقيقة أن هناك دافعى ضرائب آخرين فى الامبراطورية ، غير أولئك المقيمين فى المملكة المتحدة، وان دافعى الضرائب الآخرين قد أرغموا فى معظم الأحوال على الدخول عنوة فى الامبراطورية ، على عكس إرادتهم، ويطالبون بأن أصوات ممثليهم ينبغى أن تسمع فى عاصمة الحكومة (لندن) ، مثلما فعل الفرنسيون قبل سنوات

مضت . وإلى أن يتحقق تبنى نظام مشابه فى انجلترا، فإنه يتوقع حدوث قلاقل وحركات احتجاج فى الأجزاء الواقعة تحت سيطرة الاستعمار البريطانى ، التى غالبية سكانها من الناس السود والسمر والصفر ، ومثلما اتجه الشعب البريطانى فى السنوات الأخيرة إلى الأخذ برأى "ماركيز سالزبورى " فإن الفرصة ضيقة فى هذه الأيام، أيام التحامل باسم اللون المتفوق فى بريطانيا ، أمام أى هندى آخر، أو أى شخص ملون آخر، لدخول مجلس العموم لتمثيل دائرة انتخابية انجليزية .

كومت ص ٧ ص ١٧

٥- تكملة الفصل الرابع

كومت ١٩٣٧/٧/١٠

الإشارة إلى مسرح " درورى لان " مع مكانته التاريخية - تنبهنى إلى ذكرى نيل جوين ، وماكريدى . وإدموند كين ، وإزار ألديش، الذى تفوق فى تقديم عطيل مع الشابة مادج روبرتسون - التى غدت مدام كندال فيما بعد - فى دور ديمونة . نذكر أسماء قليلة عفوا دون انتقاء .

مسرح " لان " سقط فى أيام مشؤومة ، إلى أن اضطلع " جس هاريس " بأمور الإدارة، فصار المسرح موئل الميلودراما والتمثيل الصامت .

إن عندى ذكريات سعيدة عن ليالٍ قضيتها فى مسرح " اللان " أثناء التدريب على مشاهد صامته ، حين كان " هاريس " مسؤولا عن معظم الإضافات البديعة ، وفتيات جوقة الكورس ، ذوات الرؤوس الخشبية ، اللاتى يبدو أنهن لم يحسن هضم التوجيهات التى يرسلها فى عبارات مصبوغة بعناية .

أذكر أنه سجن المجموعة كلها حتى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحا، معيدا أداء المشاهد مرة تلو مرة، إلى أن نالت رضاه، ولكن عندما شعر بالرضى ، حين وصل مزاج كل واحد إلى

الحافة ، سمعناه ينادي :" تعالوا أيها الفتيان والفتيات نتناول طعاما " !.

وكانت وجبهة وفيرة من السندوتشات والمشروبات بلا قيد ولا شرط ، شارك فيها الجميع . وتحول " هاريس " فجأة من غول مخيف ، الى أكثر أعضاء المجموعة مرحا.

وفى ذلك الحين ، كان " ارثركولينس " فتى كل الأعمال : المراسلة ، وفتى غرفة الطلاء ، مستعدا لتلبية أى طلب متوقع من قبل " الحاكم " . فى تلك الأيام البعيدة ، لم يكن ثمة أحد يحلم بأن " كوالينس " سيخلف " الحاكم " المهول فى إدارة المسرح القومى ، لكنه نجح نجاحا باهرا، فى حمل تقاليد أستاذه والذهاب ، إلى الأمام.

وهذا يذكرنى بحادثة تثبت أن لكولينز شخصية نبيلة . فعندما أجرى " مخبر صحفى " مقابلة مع كولينز احتفالا بمرور خمسة وعشرين عاما على توليه الإدارة فى مسرح " لان " ، وعن الفضل الذى يدين به للسير أغسطس هاريس ، بسطوعه المشهود ، لم يخجل من سرد بدايتة المتواضعة . وكان هناك عدد نادر جدا من الأحياء الذين يذكرون سطوعه مترقبا من فتى غرفة الطلاء الى مدير مسرح . كان ذلك مسلكا شجاعا. كتبت إليه رسالة مهنئا ، متمنيا له حياة طويلة ومزيدا من الأمجاد للمسرح العتيق . ورد شاكرا تذكرى إياه ، ومعبرا عن تمنياته الطيبة ، آملا أن أعود مرة أخرى إلى اعتلاء خشبة المسرح العتيق .

وما كنت أتوقع أن " الحاصدة الشكسة " ستجمعه بسرعة ، ليلحق بأستاذه فى ذلك الإقليم المجهول ، تلك التخوم من حيث لا يعود مسافر ".

خلال مدة قصيرة ، غدت إدارة " بالاس ثيتر" عبئا عظيما على الاكتاف الواهنة لهاريس الهرم ، وقد أجبر على زيادة الاعتماد على كولينز ، الذى ألقى نفسه مرغما على تقسيم جهوده بين المسرحين . هذه الحقيقة اقتضت ضرورة تعيين نائب قادر، فاستدعى مورثون المجرب، مدير قاعة الموسيقى " أولد مويسيك هول " من الطرف الجنوبى لنهر التايمز، لمسرح "بالاس "، ليخلفه من بعد " السير ألفرد بت ". " مورتون " ذو كفاءة عالية، ولكن منحاه قديم الطراز. و" بت " أكثر تقدمية ، وقد هدت رؤاه المسرح إلى بلوغ النجاح، الذى واصل المسرح الأتسام به فترة طويلة ، إلى أن ظهرت مسارح " هيبودرم " و " كلوزيوم " بخشباتها الدوارة وبالبهما الروسى ، والأوركسترا، تلك التى صار لها تأثير كبير فى اضمحلال أمجاد مسرح " بالاس ".

٦- الفصل الخامس : عندما بدأت ترحالى

كومت ١٩٣٧/٧/١٠

إن اقامتى فى مساكن جيش الخلاص ، أثرت بصورة عكسية على بنية جسمى الواهنة ، وهنا نصحنى الأطباء بالبحث عن مناخ دافيء ، أعيش فى كنفه ، ولأنى لم أكن أريد أن أعلى من شأن الإقامة مع الرجل المشهور بالإشراف على المساكن ذات التدفئة الجيدة ، فقد قبلت دعوة ملحة من " مهراجا كوسن بيهار" لزيارة الهند من أجل الاضطلاع بأعباء رئاسة تحرير جريدة يومية فى بومباى ، كان المهراجا يود إصدارها وتمويل مشروعها.

وصلت بومباى بخمول ، وزرت مدنا هندية كثيرة ، ولكن لم يرق لى سكان الهند ، ولا القاذورات المبثوثة حول مدينة بومباى ، ولا الإداريون البريطانيون فى تسعينيات القرن التاسع عشر ، وباستثناء نماذج مشرفة من أولئك الإداريين ، فإن الطابع المميز للبريطان فى الهند، هو احتقار أهل الهند بأعلى مستوى . [٣٠]

من الأمثلة الدالة على ذلك، أن للمهراجا درجة عسكرية رفيعة ، هى ياور صاحبة الجلالة الملكة فكتوريا، لكننى رأيت أثناء تجوالى مع المهراجا فى عربته ، أن الجنود البريطان الذين يمتطون خيولهم، وهم يرتدون بزاتهم العسكرية، ما أن يشعروا باقتراب عربة المهراجا، حتى يتحسسوا دوابهم بالمهاميز، فتنتفض وتضطرب حركتها، كل ذلك من أجل تفادى منح التحية العسكرية للمهراجا ياور الملكة .

وقد لفت الأمير المهراجا نظرى الى مثل تلك الواقعة مازحا ، وقد شهدت بنفسى تكرر حدوثها غير مرة.

كذلك شكا المهراجا من أن سيدات قصره يذهبن من حين لآخر، لشراء سلع ، من متاجر بومباى ، ويقسرن على الانتظار وقتا طويلا، حيث ينهمك البائع فى المتجر ساعة أو أكثر فى تلبية رغبات السيدات المبعوثات من قبل الإداريين البريطانيين ، اللاتى يشغلن وقت البائع فى المتجر في استعراض كثير من السلع ، ثم لا يشترين فى نهاية الأمر سوى بكرة خيط أو سلعة

ذات ثمن بخس ، فى حين تعانى سيدات قصر (المهراجا) مرارة الانتظار. وهن يكظمن غيظهن فى صمت الى حين الفراغ من الزيارات شبه الرسمية وربما تبدل هذا المنحى فى المعاملة من بعد.

إن أحوال الهند لم تكن تتجانس مع عاداتى ومزاجى ، فنفضت غبار الهند عن أقدامى ، وعدت إلى مصر، ولأسباب عملية كنت قد أنسيت لسانى الأول ، وجدت نفسى غريبا فى وطنى ، فجمعت شباكى وأبحرت نحو " شرق السويس ".

بعد فترة قصيرة ألفيت نفسى فى هونج كونج ، إنى لأميل كثيرا إلى تفضيل الشخصية الصينية على الشخصية الهندية، علاوة على أن الجو الاجتماعى ملائم، مكثت فى الصين قرابة شهر ، ثم عدت إلى انجلترا.

ما كان هذا التغيير نافعا لرئتى وصدرى ، فرأيت أن أتجه الى غرب الأنديز، وأمريكا الجنوبية، زرت جزر بربادوس وترينيداد والمارتينيك وسانت لويس وجرينادا، وتجولت فى ساحل أمريكا الجنوبية حتى بلغت برزخ بناما، من أجل اكتشاف مافعله " م . دلسيس " [٣١] بالقنال الذى أسهمت ببضعة الآف من الفرنكات فى تمويل مشروعه، معللا النفس بأمل خائب أن قنال سويس آخر سيتم إنجازه ، ولكن بالله ياللهول ، وجدت المشروع فى حالة خراب موحش، لايستطاع التعبير عنها.

الرافعات ، الجرافات ، الناقلات ، وكل أدوات الحفر ملقاة مكومة يعلوها الصدأ، حيث صارت الشجيرات والحشائش تنمو فى ثنايا الرافعات المهملة ، وعليها غطاء كثيف من الصدأ، وما أزال بعد هذا الزمن الطويل يعتصرنى الألم ، كلما تذكرت تلك الصورة الموحشة الناجمة عن الاختلاس والعجز الفظيع.

"م.د لسيس " فشل فشلا ذريعا فى فهم طبيعة الأرض التى يتعامل معها، فمن البين أنه لم تجر أى دراسة مستفيضة ، من الثابت أنه توهم أنه سيشق قنال بنما فى السويس برماله المتحركة، ويتحمل معه وزر الفشل معاونوه من رجال الحكومة الفرنسية الذين استحوذوا على كل المال المستثمر.

إن التعرض لقنال السويس ليذكرنى بمحادثة جرت بينى وبين " السير قاربت وسلى " الذى

قال لى :

" لو كان عرابى ملما بأبسط أوليات التكتيك العسكرى ، يوم أن نزل الجيش البريطانى فى الاسماعيلية ، فإنه - أى عرابى - كان يستطيع حشد وحدات قليلة من سلاح المدفعية، ونسف الجيش البريطانى حتى يستحيل كتلا مشتعلة ". إنها القسمة ؟

فى مكان آخر. ربما انهمك هذان الاثنان فى مناقشة ذلك الحدث العسكرى ، مثالبه ومناقبه محتكمين الى يوليوس قيصر والإسكندر المقدونى وهانيبجل.

٧ - تكملة الفصل الخامس :

عندما بدأت ترحالى : جريمة قتل

كومت ١٩٨٧/٧/١٧

غادرت ، بنما ، على متن سفينة طافت بنا كل موانى أمريكا الجنوبية ، على ساحل المحيط الأطلسى ، وما أن ألقت مراسيها فى ميناء " لاجوريا" حتى نزلت وذهبت لزيارة رجل إنجليزى ، صاحب أعمال خاصة فى ذلك الميناء .

وبعد غداء شهى ، أخذ الرجل الإنجليزى يطوف بى فى المدينة ، فتجولنا فى ناحية الميدان ، وفى زاوية قصية ، كانت جماعة من المقامرين منهمكة فى لعب الميسر.

كنت متحفزا لأن أسأل مضيفى ، عما إذا كانت ممارسة لعب الميسر مباحة فى الميادين العامة، لولا أن طلقة رصاص دوت ، تبعتها طلقة ثانية ، وأخرى ثالثة ، طلقات دوت فى تتابع سريع. مضيت لاستوثق من الأمر، وجدت ثلاثة رجال قتلى ، فى حين كان الرابع يجمع الغنائم فى جراب معلق على كتفه ، متمهلا فى غير اكتراث ، بينما شرطى محلى يقدم من شارع مجاور، يسير فى بطء ، ليستغرق فى محادثة مع القاتل المتهم الآثم ، وتحلق أناس يشيرون بأيديهم وأجسامهم ، من حولهما، ويظهر أن المحادثة كانت ممتعة. ثم نقلت جثث القتلى ، ومضى " الحفيظ على القانون " فى صحبة القاتل .

سألت صديقى عما إذا كان الرجل القاتل سيشنق جزاء على الجريمة التى ارتكبها، " يشنق"له أجابنى صديقى فى استغراب " إنهم نادرا مايفعلون مثل ذلك الشىء هنا"! الحياة بخسة لا قيمة لها فى هذا الجزء من العالم. إن القاتل سيقتاده الشرطى إلى رؤسائه ، وسيشرع الرؤساء فى تفتيش القاتل ، وبعد أن يحصروا الغنائم يقتسمونها معه وقد يقضى القاتل فترة الليل فى السجن مدة شهر أو شهرين ، وفى أثناء النهار يستطيع زيارة أسرته ، ويتناول الطعام حيث شاء ، ويعود عند مغيب الشمس ليقضى ليلة فى السجن . وفى ذات ليلة سينسى العودة إلى السجن وستنسى حادثة القتل برمتها.

"يظهر أنهم غير متحضرين !" قلت فى جرأة.

"متحضرون " قال صديقى : " مامعنى الحضارة ؟ ما الحضارة ؟! نحن جميعا بداة متوحشون فى الأصل ، بعضنا فى أوج ازدهار الحضارة يموتون على أسرتهم المريحة، بعضنا يكون مآلهم الشنق ، آخرون يتاح لهم أن يموتوا جوعا. وبعض الناس يقاسى الاغتيال مثل هؤلاء الرجال الثلاثة. إذا نقبت وراء جلودنا ، فنحن جميعا متوحشون ، الاختلاف يكون فى الدرجة والكم. أيها الشاب ياصديقى ، وغدا نرجع لنشرب كأسا من النبيذ الجيد ولننسى ماجرى ".

لقد فشلت الكلمات وأعوزتها الحيلة . رجعت مع صديقى الى مكتبه ، واحتسيت من النبيذ ، ودوى البوق منبها أن السفينة على وشك المغادرة . رافقنى صديقى الى أن وصلت السفينة ، وودعته وافترقنا. ولكننى لم أنس قط ماحدث .

وما أن وصلت ميناء ترينيداد ، وأنا أكتب هذه السطور، حتى كان المذياع يخبرنا عن حدوث قلاقل ومقاتل . يظهر أن الدم حار فى ذلك المناخ. ولكن القوم فى ظل الحكم البريطانى يتحرون احترام القانون ، مالم تخرجهم استثارة قوية عن أطوارهم.

هناك - مثلا - انتفاضة جردون فى جامايكا على عهد الحاكم " إيير" الذى أساء إدارة شؤون الحكم، والهبات التى وقعت فى " باربادوس " على عهد السير " بوب هننسى " الذى كان يرأس حكومة الجزيرة.

وفى كل حالة من تلك الحالات لم يكن أصحاب المزارع ينسون أن أجدادهم الأوائل

استعبدوا أسلاف سكان تلك الجزر من الأفارقة ، فى عهد سابق ، عندما كان المنافق القديم السير جون هاوكينس يسرق الأفارقة العزل، ويقسرهم على الخضوع للاسترقاق " من أجل مجد الرب المسيح ". بيد أن حفدة أولئك العبيد أثبتوا مقدرتهم على امتلاك ناصية الثقافة الغربية، حيث برعوا وتفوقوا فى المنافسات الأكاديمية والفكرية فى مواجهة أبناء الجماعة الأوربية المسيطرة.

"ترينداد " من أجمل الجزر التى رأيتها ، وفيها التقيت بملونين كثيرين من المحامين ، والأطباء وأصحاب المزارع والتجار، وهم يمتازون بكفاءة عالية فى تخصصات مهمة . هذا بالرغم من أن الإسكوتلانديين والبرتغاليين يسعون بدأب لإبعاد الملونين عن خلية النشاط التجارى، وهذا عين مايحدث فى غيانا البريطانية.

أما فى " باردبادوس :" فإن ذوى الأصول الأفريقية ، فى صراعهم من أجل البقاء ، قد نجحوا فى منافسة رصفائهم الأوربيين ، حفدة الأقدمين من أصحاب المزارع ، وكل أولئك من السود والبيض والحمر والصفر عانوا الأمرين من الظلم الفادح الذى ألحقته بهم زراعة قصب السكر، وصناعته فى جزر الهند الغربية ، وعلى كل يظهر أن الترينيداد هى أكثر تلك الجزر ثراء ورفاهية . ومن العجيب أن سكان تلك الجزر أكثر وطنية وولاء من المواطن البريطانى العادى فى المملكة المتحدة،وهذا ينطبق أيضا على"باربادوس" أول جزيرة أقام فيها البريطانيون مستوطنة ، فى" العالم الجديد" وهم يطلقون على أنفسهم سكان "انجلترا الصغرى ". ويقدسون الملكة فكتوريا إلى درجة العبادة، تقديرا للحرية التى يتمتعون بها.

من " ترينيداد " ذهبت إلى باربادوس ، حيث وقعت لى تجربة جد عجيبة ، حين كنت جالسا فى ردهة الفندق، المطلة على شارع ضيق ، جاء رجل غريب ، واتخذ له مجلسا قريبا منى ، ولأنى كنت أرتدى الطربوش ، سألنى الرجل إن كنت أعرف الإنجليزية ، فأخبرته ، ومن ثم بدأت المحادثة بيننا بالإنجليزية.

فى أثناء الحديث أخبرنى أنه ربان سفينة، ودعانى لتناول العشاء معه فى سفينته، فى ليلة الغد. قبلت الدعوة، وفى الساعة السادسة من مساء اليوم التالى ، كنت أتجول على

الشاطىء، باحثا عن السفينة، وكدت أزهد فى العثور عليها، إلى أن مررت بشرطى ، سألته عن السفينة، فاقتادنى الى سفينة صغيرة الحجم، مررت بها مرات كثيرة أثناء بحثى ، دون أن أعيرها أى اهتمام، وصعدت على ظهر السفينة ، فجاء الربان بدون قبعة ولا سترة ليرحب بى فى حرارة وود .

وبينما كنا على مائدة الطعام، دعانى الربان لأن أزور معه جزيرة "جرينادا"، وقال إن سفينته ستقلع فى اليوم التالى عند غروب الشمس . ولأن الرحلة لم تكن تستغرق أكثر من يوم وليلة، فقد وافقت على مصاحبته فى الرحلة على ظهر السفينة التى لا تزيد حمولتها على أربعة أطنان ولأنها مقامرة على أقل تقدير.

كانت الرحلة فى مساء اليوم التالى ممتعة شائقة، وعند وصولنا ، رأى الربان أن نمضى الليلة فى السفينة، ليصطحبنى فى الصباح . لزيارة مزرعته .

وبعد رحلة مضنية عبر التلال التى بدت غير متناهية لا آخر لها، وصلنا إلى مزرعة مضيفى ،فى الواحدة والنصف ، وكنا بدأنا الرحلة فى السادسة صباحا، فاستلقيت على مقعد خشبى فى غرفة الجلوس ، واستغرقت فى نوم عميق ، فى حين مضى مضيفى يتفقد مزرعته، وبعد ثلاث ساعات أيقظتنى رائحة نفاذة مثيرة انبعثت من طعام شهى مايزال فى طور الإعداد.

٨- تكملة الفصل الخامس
عندما بدأت نجوالى : جريمة قتل

كومت ١٩٨٧/٧/٢٤

أحسست بجوع شديد ، لأننى ما تناولت منذ كنت فى السفينة غير كوب قهوة وشريحة بسكويت . ولما صحوت مضيت الى الحديقة ، فألفيت خابية مملوءة بماء المطر، ولها صنبور تحته سطل ، لم ألتق بأحد من القاطنين فى المنزل ، حتى ذلك الحين ، وإن كنت أسمع أصوات قوم تنبعث من الجانب الآخر فى المنزل ، فكان أن اغتسلت ، وجففت وجهى ويدى فى المنديل الذى أحمله فى جيبى ، وأخذت أتجول فى الحديقة، ممنيا نفسى بأنى سأسكن جوعى بوجبة شهية بعد لحظات . وبعد قليل لمحت مضيفى قادما ، يهبط من تل قريب ، وسألنى بمجرد وصولى :

- "أأنت جائع "
- " نوعا ما ! أجبته ."

"سنأكل الآن ، إنى أشمهم ، أمشى لأرى " !

وانطلق إلى داخل المنزل ، وبعد هنيهة جاءت فتاة صغيرة السن ظننتها بنته، وونضدت الملاعق والسكاكين والشوك على المائدة، ورجعت ، فى حين صارت رائحة الطعام نفاذة وأشد ماتكون استثارة، ثم وصل الطعام بصحبة رب المنزل، وجلسنا نلتهم طعاما شهى المذاق، يشتمل على إدام من اللحم، واليام والبطاطس والأرز المغلى ، وكان مضيفى أكثر شراهة فى تناول الطعام، نلت وطرى واكتفيت ، غير أن مضيفى غمغم وفمه مملوء بالطعام، فقال : " ألا تنال مزيدا من الطعام" ورددت عليه أننى بلغت حد الامتلاء، وأشرت إلى أن اللحم شهى لذيذ الطعم شديد الإغراء ، وتناولت شوكة، وبدأت أحاول اختيار قطعة صغيرة من اللحم، وكانت كل قطعة التقطها بالشوكة تبدو كبيرة الحجم، ومضيت أقلب فى اللحم كأننى أصطاد سمكا، إلى أن أمسكت الشوكة بقطعة من اللحم تشبه كف طفل صغير. فتركتها فى جزع وصحت

والله ماهذا "؟

نظر مضيفى إلى فى استغراب وبفم مملوء أجاب :

- إيه قرد ، إنه لحم قرد رائع جدا "!

" لحم قرد " ! صحت فى حيرة ، وهرعت الى الحديقة ، وفى حلقى غصة غثيان حاد . وحاولت أن أتقيأ لحم هذا الوحش ، البغيض المقرف ، أن أنزعه من أحشائى ، ولكن ذلك القرد الجهنمى أنشب أظافره فى أحشائى ، فاستحكمت قبضته ، وبدا مصمما على ألا يسمح لمثقال ذرة منه ، أن تعود من حيث أتت.

ولحسن الحظ نجحت أخيرا فى التقيؤ. غير أن الرائحة النفاذة التى كانت جذابة ومثيرة ، صارت على العكس تماما منفرة ومقززة ، فعزمت على ألا أعود إلى ذلك المنزل أبدا، فكان أن توغلت فى المزرعة ، متخذا طريقى إلى شاطىء البحر ، حيث انتظرت مضيفى ، فأبحرنا على السفينة ، يظللنا صمت متبادل . وفى تلك الليلة ، وفى ليال أخر تاليات ، كانت أحلامى تغص بمرائى الغابات المزدحمة بالقرود ، وصارت القرود تخصنى بوابل من ثمار الكولاتارة ، أو تمسك بحناقى تريد إزهاق روحى تارة أخرى ، بيد أنى كنت على موعد مع مفاجأة أخرى مماثلة .

فى إبحارى على متن سفينة من " باربادوس " إلى ترينيداد ، بينما كنت أتمشى على سطح السفينة رأيت أقفاصا ملأى بالجراد الأخضر، وشاهدت الطاهى يتولى تغذيتها بأوراق الخضار، فسألته عما فى الأقفاص ، فأجابنى :

" إنه جراد ! "

" ومادا تفعلون بهذا الجراد" ؟ سألته .

" إننا نأكله ! " أجاب مستعجبا من جهلى .

" تأكلونها" ! سألت !

" نعم ، وأنت أكلت الجراد اليوم فى وجبهة الغداء " وهكذا توالى الغثيان !

ومنذ ذلك الحين ، صرت أمتنع أثناء زياراتى لباريس من أكل لحم الأرانب والدجاج، لأن

أفخاذ الضفادع تقدم فى المطاعم على أساس أنها لحم دجاج. ولأن لحم القطط يقدم على أساس أنه لحم أرانب . وإمعانا فى التمويه يشترون رؤس الأرانب من الفنادق الكبرى ، ثم يضعونها فوق لحم القطط ثم عرفت من بعد أنهم الآن يربون الضفادع فى إنجلترا من أجل إرضاء الذوق الفرنسى. والحمد لله أننى نباتى.

عند عودتى الى "بردج تاون" اتخذت من أحد المنتديات مجلسا كل ظهيره ، وذات مرة، وأنا جالس فى الشرفة لمحت رجلا طويلا أسود اللون ، حليق الوجه ، له سيماء النبلاء، يرتدىء نظارة إطارها من الذهب الخالص ، كان يسير فى الشارع ومعه رجل أبيض اللون، أثار انتباهى مظهر العزة فى ذلك الرجل الملون، فسألت عن اسم ذاك الرجل الأسود البشرة المتميز السمت ، فعلمت أنه السير " ويليام كونراد ريفس " ، رئيس القضاء فى باربادوس " إنه صاحب أسمى مقام بلغة رجل ملون فى غرب الإنديز، ومن فرط اهتمامى بالرجل، عرض على محدثى ، وهو تاجر ذو شأن فى المستعمرة أن يتولى تقديمى إليه .

وبعد أيام ، أخذنى محدثى التاجر الى دار القضاء ، حيث كان رئيس القضاء فى جلسة لمحاكمة رجل استخدم مدية ببراعة فنان فى طعن شخص آخر، بعد خلاف على أمر هين . وكان الشخص الجريح ماثلا أمام المحكمة وقد تزين جسده بالضمادات الطبية . وفى الجلسة خاطب رئيس القضاء المتهم السجين قائلا، إن إراقة الدماء عمل متوحش ، وإنه يفهم أن يستفز المرء، فيستخدم قبضة يده ، ولكن استخدام السلاح الفتاك ، ينتفى معه أى مبرر لتخفيف الحكم : ولعله فيما أحسب حكم عليه بالسجن مدة سبع سنوات .

ولما انفضت الجلسة عند منتصف النهار،أخذنى صاحبى التاجر الى اللقاء المهيب ، فى حجرة خلف قاعة المحكمة، وبعد شعائر التقديم والتعارف ، سألنى السير " كونراد " عن بلدى، ومهمتى فى الجزيرة ، والمدة التى أزمع قضاءها فى غرب الإنديز، فأجبته عن كل ما أراد معرفته عن أمرى ، ثم أعطانى موعدا لمقابلته فى الصباح، قبيل جلسة الغد.

فى صباح اليوم التالى تحدثنا فى قضايا شتى ، حدثنى عن نشأته وكفاحه. بدأ حياته عاملا فى صحيفة محلية، وبفضل المساعدة المالية التى قدمها له أهل بلده استطاع الصعود إلى هذه المرتبة السامقة. وإن هذه الوظيفة فرضت عليه أن ينعزل عن معاشرة قومه. وقال إنه لا

يليق به أن يختلط بأصحاب الوظائف الصغرى ، مهما كانت صلته بهم قوية من قبل . وهو الآن يتبوأ الوظيفة الثالثة من بين الوظائف الإدارية الكبرى فى المستعمرة ، وهذا هو مايُملى عليه أن يحتفظ بمسافة بينه وبين عامة قومه ، وهو لايستطيع أن يجهر بهذا الرأى على الملأ، لأن كبرياءه ومكانته لا تسمحان بذلك . إنه ترقى فى سلك الوظائف، صاعدا الى الوظيفة الثالثة فى المستعمرة ، بفضل ملكاته الخاصة ومجهوده الشخصى ، وما كان للمساعدات المالية التى قدمها له أبناء قومه لتجدى نفعا لولا مواهبه ونبوغه.

راعنى أن الرجل فى وضع مأساوى ، ويبدو عليه أنه منعزل تماما عن قومه . إن البيض فى المستعمرة ليحسدونه ، ولكن ليس من بينهم ثمة شخص يصلح لأن يكون ندا له ، وبالرغم من أن القوم الملونين يفخرون به ، لأن مكانته تنطوى على دعم معنوى لوضعهم، فإنهم لا يجدون مبررا لمسلكه وهم يجهرون علنا بنقده وثلبه . إن البيض والسود لا يختلفون فى أن الرجل عبقرى متميز، وأنه زينة القضاء ، ولكن تعوزه ملكة المصانعة والتمويه . لقد خلق الرجل من أجل ذلك المقام السامى .

ولا نستطيع أن نصف الرجل بأنه ذو شخصية جذابة، فقليل من الرجال العظماء اتسمت شخصياتهم بالجاذبية.

حدثنى عن واقعة جرت إبان زيارته لرئاسة الدولة فى المستعمرة ذات يوم ، فقد سمع أحد الضباط يسأل بصوت مسموع :

" من هذا الرجل (الجعد الشعر) كأن رأسه فروة "

وكان ضابطا مستعليا على غيره، يحضر أول حفل استقبال منذ قدومه ، ولم يكن يعرف السير كونراد. وبالطبع تجاهل رئيس القضاء هذا السؤال الوقح، ولكن الواقعة دالة على البراعة المتعجرفة التى عومل بها يومئذ ، ولعلها أثرت على نحو ما فى عزوفه .

لقد أطلعت على كتاب " جيمس أنطونى فروند" : تاريخ الإنجليز فى غرب الإنديز، وكان المنحى الرومانسى الذى انتهجه المؤلف المؤرخ جعلنى أتوقع أن يكون السير كونراد ريفز رجلا جلفا باهت المظهر، وعلى العكس تماما، فإن السير ريفز طويل القامة ، حوالى ستة أقدام ، أسمر اللون ، يدل شعره على مقدار قليل من الدم الأوربى يجرى فى عروقه. إنه ليس من

الخلاسيين المولدين ، ولكنه ليس بأفريقى أسود قح ، ملامحه وسيمة ومنسجمة ، وجهه أشبه مايكون بوجوه عامة النيجريين ، صوتهِ واضح جهورى قوى ، وطباعه مصقولة ، يأنس المرء بمعاشرته ، ولكن المرء لا يشعر بأنه يستطيع أن يكون حرا منطلقا معه.

ولا شك أن ترقى الرجل هو ثمرة الرغبة المخلصة التى أبدتها المرحومة الملكة فكتوريا ، فى تمكين سكان المستعمرات البريطانية من المشاركة فى حكم الامبراطورية، ويعزى ذلك أيضا إلى أثر الهبات التى وقعت فى الهند وجامايكا وهى ثورات ولدها الظلم ، وقد انجلت رغبة الملكة فكتوريا فى مواقف كثيرة دالة على اتجاهها الى تحقيق العدالة بين رعيتها، بصرف النظر عن ألوانهم وظروفهم . نذكر من تلك المواقف زواج أمير هندى من فتاة سليلة عائلة انجليزية أرستقراطية واستعانة الملكة بجنود من الهند فى تكوين حرسها الخاص ، ومنح لقب سير لكونراد ريفز وصمويل لويس المحامى الأفريقى السريالونى ، وصدور المرسوم الموجه إلى الأفارقة عام ١٨٤٣.

ثم ماتت الملكة فكتوريا ، وذهب معها النظام القديم بمثاليته الرفيعة وجاء النظام الجديد الذى يفتقر إلى المثالية الرفيعة والخلق السياسى ، فقضى على النظام القديم قضاء مبرما.

ولا ريب أن غياب المقومات الأساسية ، التى ترسخ جذور العدالة والمساواة على المستوى الإدارى والسياسى ، إنما سيؤدى حتما إلى نشوب القلاقل والثورات .

٩-الفصل السادس
غيانا البريطانية وما بعدها

كومت ١٩٣٧/٧/٣١

بربادوس بلد طقسه يفيض عافية ، الناس في بربادوس من الفقر بمكان ، ولكنهم على حظ من الكرم عظيم . وإنه لرائع حقا أن نشهد كيف يعيش الناس في الجزيرة . إنهم كالجامايكيين، وسائر سكان جزر الكاريبى ، يمتازون بالذكاء الحاد ، والتعطش الشره الى تلقى المعرفة ، ولكن المرء حين يطوف بنفسه في الجزيرة يجد الفسق المحلى فيها مروعا، لمن ألف الحركة فى العالم الأكبر مثل أوربا وأمريكا.

ولهذا ، فى ذات يوم مائع حزمت أمتعتى وأبحرت على سفينة إلى غيانا البريطانية .

ألفيت مدينة " جورج تاون " تنبض بالحيوية ، وإن تلك زياراتى المتوغلة فى داخل الجزيرة، أفرغت قلبى من أى أوهام يمكن أن تخامره بشأن شيوع الرخاء فى البلد ، لأن التدهور المستمر أصاب بلدا، كان غنيا مزدهرا، وذلك إثر توقف القوم عن زراعة قصب السكر مما ولد شعورا بالكآبة والإحباط ، غير أن اكتشاف الذهب أنقذ البلد من الإفلاس.

وبمناسبة ذكر الذهب ، أتذكر واقعة حدثت لى بعيد وصولى الى الجزيرة ، وأنا أتجول فى شارع، ذاهبا إلى مطعم لتناول طعام الغداء ، فإذا برجل اسكوتلاندى ، سبق أن لقيته فى "جلاسجو " فى مناسبة عابرة، يربت على كتفى ، ولما استدرت إليه واجهنى بالسؤال :

ماذا فى الجحيم جاء بك إلى هذا الصقع من الدنيا ؟ يامحمد ؟

فأجبته وأنا منزعج : من تكون أنت تحت عاصفة الرعد ؟

" كيف يارجل " أجاب فى لهجة إسكوتلاندية " أنا جراهام ، جوك جراهام"! من جلاسجو ، أولم تعرفنى الآن ؟

فتأملت هنيهة ، ثم تذكرت الشاب النحيل ، الشاحب ، الأشقر الشعر الذى يعمل عند صاحب مطعم فى جلاسجو ، يساعده فى الإدارة . ولكن ازدهرت حاله وأينعت ، وامتلأ لحما من فرط الشبع ، وانتفخ وجهه الصغير الذى لفحته الشمس المدارية ، وتصافحنا ومضينا الى المطعم، يد أحدنا فى يد الآخر، وعلى مائدة الغداء أخبرنى عن اشتغاله بتعدين الذهب ، وأن له مؤسسة خاصة به تعمل فى حقول الذهب. وفى اليوم التالى سافرت بباخرة نهرية إلى "باتريكا جروف " بعد أن عرف أن زورقه لن يصل إلا يوم الاثنين القادم ، وقضينا الليلة فى فندق محلى، وفى ذلك المساء أتى الى الفندق كل موظفى الإدارة المحلية بقضهم وقضيضهم ، مزدانين بكل مظاهر السلطة وكان معهم القس المشرف على الكنيسة، وبعد العشاء ، انهمكوا فى لعب الورق ، ودارت كؤوس الخمر مدرارة وافرة ، وكنت مجرد متفرج ، لأننى لا أمارس الميسر. وتصاعد المجون بصخب واهتياج حتى الساعة الرابعة صباحا، حيث تفرقت الجماعة - ومن بينهم القس الذى يشبه " بنلى " - وانصرفوا الى بيوتهم.

فى الصباح ، بعد الإفطار، أصر " جراهام " على أن نذهب معا الى الكنيسة [٣٢] التى لم تكن بعيدة من الفندق ، ووصلنا ووجدنا موظفى الإدارة المحلية قد حضروا ، مصطحبين زوجاتهم معهم ، فجلسنا بينهم . وبعد أن كف الجرس عن الرنين . دخل القس الذى نسى أن يحلق لحيته ، وأسرع فى قراءة الصلوات ، بصوت غير مسموع ، ثم وقف على المذبح ، وقرأ نصا من الإنجيل (ينهى عن الخمر).

كان الذهول قد سرى وسط الرجال قاطبة، وكانت النظرات الدالة ، وهزات الرؤوس المؤكده، من قبل زوجاتهم ، قد توالت وأحدثت تشويشا.

موعظة القس كانت أشد المواعظ التى سمعتها اعتدالا موحيا ، ولما انتهت ، قال لى جراهام :

- ستشهد أمرا عجبا بعد لحظة واحدة.

إن أكثر القوم عبا للخمر بالأمس ، هم شماسو الكنيسة الذين يعينون القس ، كانوا يجمعون الصدقات فى صندوق النذور، ووضعوه بين يدى القس ، بعد أن فرغوا من الجمع، وانتهى القس من تقديم الدعوات والبركات ، وخرج القس من قاعة الصلوات ، يتبعه

الشماسون الذين تركوا زوجاتهم فى القاعة، وهمس لى جراهام :" هيا بنا" وجذبنى من مقعدى قائلا :

" الآن يبدأ الأمر العجب ".

دخلنا غرفة الملابس الكامنة وراء قاعة الصلاة ، ووجدنا القس المسكين يحيط به الشماسون ، وهم فى سورة احتجاج محتدم.

" لقد كنت ثملا مثل أى واحد منا "! صاح أحدهم ، وهو ممسك بالقس .

" بل كان أشدنا سكرا " قال ثان .

" كيف تجرؤ على قول ماقلت " ! قال ثالث .

" سيختفى السلام من بيوتنا مدة أسبوع " احتج آخر فى حين كان القس المسكين يصيح :

"أيها السادة " أيها السادة ، اسمعونى أرجوكم ، أسمعونى .

وأخيرا فكوا الحصار عنه :

" والآن ماذا تريد أن تقول ؟!

" نعم ماذا عندك من القول "؟

"أيها السادة " بدأ القس يتكلم بقلب منسحق:

" إنكم ترون أننى لم أغتسل ، ولم أحلق ، لقد نمت الليلة الماضية بكل ماكنت أرتدى من ملابس ، وتوقف الجرس الثانى عن الرنين ، قبل أن توقظنى المشرفة على شؤون منزلى من النوم ! لو نهض أحدكم من النوم ، وهو يعانى ما أعانيه من صداع ، لألفى نفسه مدفوعا لأن يقدم موعظة أقوى من موعظتى "!

وتنحى القس بعيدا.

فى اليوم التالى ، رجعت الى " جورج تاون ". إن مناجم الذهب ماعادت مغرية خلابة .

١٠ - الفصل السادس : (تكملة)

عندما التقيت بالكاردينال

كومت ١٩٣٧/٨/٧

لما رجعت الى " جورج تاون " زرت الساحل الشرقى حيث وقفت على الاندثار، متمثلا فى أيلولة حقول " قصب السكر" إلى خرائب بلاقع ، وأبحرت على سفينة شحن إلى " بربادوس " آملا فى التوجه منها الى بريطانيا، لكن عاصفة محتدمة واجهت السفينة ، فوصلتها متأخرة،. ولهذا فإننى تأخرت عن السفينة المتوجهة إلى إنجلترا بخمس ساعات ، وصرت مجبرا على الانتظار ثلاثة أسابيع أو أربعة.

أقمت فى فندق قديم خرب " بكاستريس "، فظل على الشاطىء ، يديره رجل وزوجته . المناضد قديمة، الكراسى أكبر سنا من المناضد، فى غرفة الاستقبال ، وهى أيضا غرفة الطعام طاولة بلياردو عتيقة ، جانب منها يستند إلى مساند من الطوب ، قطعة القماش المفروشة عليها متهرئة ممزقة ، لصقت فى بعض المواضع بشمع أو بمادة صمغية . غرفة نومى نظيفة جدا، وتمثل موئل راحة حقيقيا فى المؤسسة كلها.

رأيت أن أزور جزر " المارتنيك "، المستعمرة الفرنسية ، فأبحرت إلى " سان بيير " ووصلتها فى الصباح، وارتديت ملابسى عند شروق الشمس ، وحين حانت منى التفاتة إلى ماحولى ، رأيت مجموعة من أجمل النساء الأفريقيات يتبرجن على الشاطىء، وكن سباحات ممتازات، لعلهن كن يستمتعن بحمام الصباح .

ذهبت مع قبطان السفينة إلى بيته ، عند طرف المدينة ، حيث نعمت بتناول وجبة إفطار شهية رائعة، وتركنى القبطان فى صحبة أحد أقاربه الذى طاف بى أنحاء المدينة، وكان ينتصب من فوقنا جبل " مونت بل " الذى ثارت حممه ، فى سنوات تالية.

حاولنا العودة فى ليلة الغد، ولكننا صرنا منقطعين بين الجزيرتين . وفجأة رأيت السفينة التى كانت ستقلنى ، تلوح فى الأفق من بعيد، لكنها أبحرت الى إنجلترا، قبل وصولنا إلى

الميناء ، ومن ثم تركتنى " استمتع " بقضاء عشرة أيام أو اثنى عشر يوما، حتى تصل سفينة أخرى ، لتحملنى من الجزيرة.

بعد ثلاثة أيام من الضياع ، قدمت سفينة أمريكية ، رأيت قبطانها ، وأنا أطل من نافذة الفندق ، يقفز إلى الشاطىء ، ومكث بضع دقائق، ثم جاء إلى الفندق ، ولما وصل حيانى، ووجد جرسا عتيقا على مائدة فقرعه ، ولم يأت أحد ، فقرعه مرة أخرى ، وبعد أن انتظر خمس دقائق ، جاء إلى مائدتى يستفسر إن كنت صاحب الشأن، فأجبته بأنى " غير مذنب "، وصحت مستدعيا الفتى المناول : فطلب القبطان زجاجة ليموناده ، وبدأ يتحدث معى ، وأخذت أحكى له جوانب من رحلاتى ومتاعبى ، فكان أن دعانى لتناول العشاء معه ، على متن السفينة فى ذلك المساء ، وكان يصطحب معه زوجته وابنه وابنته ، وبعدها أبحرت معهم من " سانت لوسيا" إلى هافانا، مدة ثمانية أيام ، كانت جد ممتعة.

البحر هادىء، والمجموعة على ظهر السفينة مثل عائلة واحدة، كنت أشارك الملاحين طلى السفينة ، وبعد العشاء كل ليلة نقيم حفلة، بنت القبطان وزوجته نقيتان وتمثلان ، وكذلك بعض الملاحين ، وكنت أنشدهم أشعارا إنجليزية .أمضينا فترة قصيرة حافلة بمتعة حقيقية.

عندما وصلنا إلى هافانا، تلقت السفينة توجيها بأن تذهب إلى ميناء " بورت تاميس" بفلوريدا.وجاءنى القبطان يعتذر ، إن كان تغيير المسار سيؤثر على ارتباطاتى ، وأجبته بالنفى. وبعد أيام وصلنا الميناء ، وودعت السفينة ، وأنا أسف ، والقبطان والملاحون أسفون على الفراق.

بعد أن زرت مناطق شتى فى فلوريدا، عرجت على مدينة " أوكالا" لأزور صديقا إسكوتلانديا، كنت أعرفه منذ كان فى لندن ، وهناك قدمنى إلى عمدة المدينة ، ومدير الشرطة، وعلية التجار، وكذلك تعرفت بشاب يهودى ، يحرر صحيفة مسائية، طلب إلى أن أكتب انطباعاتى عن فلوريدا، وفى اليوم الثالث تلقى الشاب اليهودى برقية ، تقتضى سفره إلى " سافنتا " فى جورجيا، ولما دهمته الحيرة، لأن ليس معه محرر أخر ينوب عنه فى إخراج الصحيفة المسائية ، اتصل بصديقى ، وطلب اليه أن يسعى لإقناعى بقبول مهمة الإشراف على إصدار الصحيفة ، أثناء فترة غيابه.

ولم تكن عندى دراية بالأحوال المحلية، ولكنه أخبرنى بأن الجرائد اليومية التى تصدر فى المدن الكبرى ، ستزودنى بالأخبار المحلية، وأن صديقى الاسكوتلاندى سيكون عونا لى فى الحصول على الأنباء المحلية، ومن ثم دخلت التجربة ، ففى ذلك اليوم ذهبت الى مكتب الصحيفة لأتأقلم مع الأحوال الداخلية، وفى الصباح التالى وجدتنى أنوب عن ذلك العبرانى الشاب فى الأداء .

كان يقوم بمهمة الطبع شخص لا يبقى فى أى مدينة إلا ريثما يجمع حفنة من الدولارت، حيث يغدو مخمورا جزلا فى يوم الحصول على المرتب، ثم يغادر الى مدينة أخرى ليؤدى نفس الدور، وكان اليهودى قد استخدم ذلك الرجل قبل قدومى الى المدينة بأسبوعين ، ولم يكن ذلك الشخص الطامع ليأبه لأن يعمل تحت إمرة يهودى ، لأنه منقطع وفى حال صعب ، ولأن ليس من سبيل إلى عمل آخر متاح ، فلا خيار له ، أن يعمل فى تلك الصحيفة أو يموت جوعا.

ولما شرعت فى العمل، ألفيت الرجل متجهم الوجه عابسا ، لا يتلقى التوجيهات الصادرة منى إلا على مضض ، وفى امتعاض ، غير أننى كنت مشغولا بأن أكون عند حسن ظن صاحب الصحيفة، حريصا على إثبات أن ثقته وجدت وفاء بصدقها، فلم آبه لوقاحة الشخص الطابع.

وهكذا عملنا معا مدة أسبوع، إلى أن جاء صباح السبت، عندما خلط الشخص الطابع البروفات، وكان على أن أعيدها مع أحد العاملين إلى صاحبنا ، من أجل إخراج طبعة متقنة مبرأة من الأخطاء ، ثم وجدت نفسى مضطرا لتوجيه تحذير اليه ، بأنه مالم يفرغ من طبع الصحيفة كلها طباعة حسنة لا أخطاء فيها، وأن تكون معدة للتوزيع فى الرابعة صباحا. فإنى لن أوقع على الأوراق الخاصة بالمرتبات ، وسأخبر والد الشاب اليهودى ، بأن يمتنع عن صرف أى قدر من المال، مالم يتلق تعليمات مكتوبة من قبل شخصى .

ولما سمع ما سمع ، أطلق لمزاجه الحاد العنان ، وبدا مهتاجا يصب اللعنات بلا حد ، وفى سورة غضبه يتوعدنى ، وحذرته من إحداث ضجة فى حجرة العمل، ولكنه أقسم بأن يريق دمى، بعد حصوله على مرتبه.

أخرج الصحيفة فى وقتها المحدد، لكنه استمر فى استعمال لغة قذرة جدا ، والتفوه بشتائم

وقحة. ففار دمي وبلغ درجة الغليان. وبعد أن وقعت الأوراق الخاصة بمستحقاته المالية، اختفى فجأة وعلى نحو غامض ، وفي الوقت نفسه هرع الاسكوتلاندي الى رئيس الشرطة ، وأخبره عما يتوقع أن يحدث، وعلمت بعدها أني في حمى القانون .، قال لصديقي : " دعه يقذف (استعمل نعتا لا تجوز كتابته) في الجحيم .

إنني رجل سلم ووئام ، ولكنني بلا شك قتلت ذلك الرجل بقلبي في ذلك المساء ، إن أتيح لي أن أظفر به في ذلك المساء ، لشهد يوم الراحة جنازة واحدة على الأقل في تلك الليلة.

وفي مساء الأحد عاد محرر الصحيفة، وأعلمته بوقائع كل ماجرى أثناء تولي مسؤولية التحرير، وأعطاني خمسين دولارا، نظير ما أديته من عمل ، استلمتها وسافرت بالقطار الى نيويورك، عن طريق واشنطن ، فوصلتها في المساء .

في القطار كنت سعيدا بلقاء نيافة المطران، مطران الكنيسة الرومانية، والتحدث إليه ، وهو مؤلف كتاب" عقيدة آبائنا " وكتاب " التراث النصراني ". صعد المطران الى القطار في "بالتيمور" ، وجلس على المقعد المخصص له ، وكان مجاورا لمقعدي ، فنظر إلي في فضول ، ولما أخبرت النادل المشرف على حجرة الطعام عن رغبتي في غداء ، مال المطران الى جانب وقال إنه ليس بين كنيسته وديننا أي خلاف، لأننا لم نخرج على تعاليم " الكنيسة الحقة "، ولكنه بطبيعة الحال ، لم يكن يروق له أن أكتفي أنا باحترام كنيسته فحسب ، بل كان يفضل لي أن أعتنق عقيدة الكنيسة، فأخبرته أنني تلقيت تعليمي على يد قس من الكنيسة الإنجليزية، ولكنني لم أعتنق النصرانية، إنني شديد الازدهار والشموخ في إيماني بالدين الذي أعتنقه .

قال لي : على أية حال ، المسألة بين الفرد والإله ، الحياة التي نحيا، الاعتراف بوجود جارنا، هي المسائل البالغة الأهمية، إن كنا نستطيع التعامل بإخلاص وعدل مع مسؤوليتنا، فإن الإله سيحاسبنا حسب أعمالنا.

اليوم وبعد مسافة زمنية طويلة ، لا أستطيع تذكر المحادثة بكل تفاصيلها، ولكنني أعترف برسوخ الانطباع الذي ترسب في نفسي ، عن قدسية الكاردينال التي لا شك فيها.

كان قصير القامة، ذا تركيب جسماني مرفه ، له وجه مستدير، وعينان عطوفتان زرقاوان ،

تفيضان قدسية ، ولم يكن مدعيا، فلربما أخطأ المرء ، فحسبه، وهو يلبس الطيلسان القرمزى، مجرد كاهن عادى .

وتلبية لطلب الكاردينال ، أعطيته بطاقتى ، وكنت سعيدا ومندهشا لدى عودتى الى لندن، بعد عامين من لقائنا ، بأن أجد رسالة لطيفة منه ونسخة من كتابه " عقيدة آبائنا " وأخرى من كتابه " التراث النصرانى "، أرسلها الى جريدة " إستاج " وهى جريدة معنية بشؤون المسرح، كنت أتخذ منها عنوانا دائما لى ، أثناء فترة غيابى عن لندن.

١١ - الفصل السابع : نيويورك ومابعدها

الكومت ١٩٣٧/٨/١٤

وصلت نيويورك ، وحصيلتى من المال حوالى مائتين وخمسين دولارا ، أى مايساوى خمسين جنيها استرلينيا.

حجزت حجرة فى فندق، عند المركز التجارى للمدينة، وهرعت الى مكتب " الماجور بوند" أملا فى التعاقد معه على جولة أقدم فيها محاضرات ، من أجل دعم وضعى المالى ، وبعد زورات غير مجدية تبين لى أن جهودى ضاعت سدى ، لأن الماجور مشغول لا يتأتى له أن يضيع طاقته مع شخص ضئيل الشأن، سمكة صغيرة مثل شخصى . ولم ينجم عن زياراتى لوكلاء الأنشطة المسرحية إلا نتيجة مماثلة، فرأيت أن من الأفضل العودة الى إنجلترا، فى أسرع فرصة ممكنة . أجريت اتفاقا شفويا مع شركة نقل بحرى ، على أن أدفع تكاليف السفر فى اليوم التالى للاتفاق. وفى المساء ذهبت لمشاهدة مسرحية عطيل لشكسبير التى يقدمها "إدوين بوث " و، " لورنس باريت" فى مسرح " فيفث أفنيو" . وكنت قد شاهدت "إدوين بوث " وهنرى إرفنج" يتبادلان أداء دور " عطيل " ،و" لافو " فى " ليسيم " . وكان أداء بوث أفضل فى دور " لافو " منه فى دور عطيل . وهذا ينطبق أيضا على " هنرى إرفنج". غير أنى كنت شغوفا بمشاهدة منحى " لورنس باريث " فى أداء دور الموردى الأسود ، وقد وجدت "عطيل باريث " أحسن أداء من " عطيل إرفنج " و"عطيل بوث" . ولكنهم مجتمعين لايمتلكون الحرارة المأساوية التى شهر بها أداء " سالفينى " الذى شهدته من قبل . ولم أرقط أحدا من الممثلين البريطان والأمريكان يبلغ مستوى " سالفينى " فى أداء ذلك الدور . ويأتى من بعده الممثل الصقلى " فراسو" الذى يقترب أداؤه من أداء سالفينى ، والبون شاسع بين أداء سالفينى وأداء بوث وإرفنج.

بعد مشاهدة المسرحية سرت متمهلا فى الشارع الخامس " فيفث أفينو" ووصلت الفندق فى

الساعة الواحدة والنصف صباحا ، وجلست فى حجرة الاستقبال أتحدث مع أحد النزلاء حتى الساعة الثانية، ونمت ، وفى الصباح نهضت مبكرا ، ونزلت لتناول طعام الإفطار ، ثم عدت الى غرفتى لآخذ المال الذى يغطى تكلفة نقلى إلى إنجلترا، فوجدت الغرفة الموصدة ، قد كسر زجاج بابها، وضاع المال كله . هرعت إلى مدير الفندق وأبلغته، فجاء معى إلى الغرفة ، وفتش معى فى نواحيها ، ثم استدعى العمال الذين كانوا مسؤولين عن العمل فى الفندق ليلة البارحة، وصباح اليوم ، ولكن ، مثلما هو متوقع ، لا أحد يعرف شيئا عن الأمر. جاء شرطى، وأجرى تحقيقا دون جدوى ، وألفيت نفسى عابر سبيل منقطعا فى نيويورك ليس فى جيبى إلا خمسة عشر دولارا. الرجل الذى تعرفت اليه فى الليلة الماضية ، فى حجرة الاستقبال ، اهتم بالأمر، وكان حقا خير معين ، قال لى :

" مادمت تريد العودة إلى انجلترا، لم لا تحصل على عمل فى سفينة مسافرة إلى هناك، لقاء نقلك إلى انجلترا.

قفزت فرحا من وجاهة النصيحة، وأبنت جهلى بمنحى إجراء اتصال بشأن هذا الأمر، وتفضل الرجل بمساعدتى ، ذهب معى الى الميناء ، واستفسر هنا وهناك ، وعن طريق أحد أصدقائه عثرنا فى الظهيرة على سفينة محملة بالأبقار، ذاهبة الى " ليفربول" فى اليوم التالى ، وأن من الممكن الاتفاق مع صاحب الأبقار صباح غد، وبعد سعى حثيث كأنه فى متاهة لا نهاية لها، عثرنا على الرجل، الذى بدا سعيدا بحصوله على عامل يعنى بشؤون الأبقار، فوافق على نقلى الى إنجلترا ، إن كنت لا أجد حرجا فى تلويث قفاز يدى ، بأن أطعم الأبقار وأسقيها، وأن أكنس الروث . أخبرته أننى لن أقوم بأداء ذلك العمل ويدى مغطاة بقفاز، إن كان موافقا على منحى الفرصة . وكنت أظن أننى لن أخيب ظنه. ولم يكن سيدفع لى أى مقابل. وأنا ضقت ذرعا بنيويورك أبتغى مغادرتها بأى وسيلة ، قبلت العمل . رجعت إلى الفندق . دفعت عشرة دولارات من خمسة عشر دولارا. حزمت أمتعتى وعدت الى الميناء فى الخامسة، وفى المساء أبحرت السفينة، وعبر خمسة عشر يوما، وجدتنى أطعم الأبقار وأسقيها، لا غذاء لى غير حساء وقليل من البطاطس ، وشىء من اللحم.

لا أدرى كيف قضيت أيام المحنة العسيرة. وفى ذات صباح بارد وصلنا ليفربول ، وانتهى

قيامي بأداء ذلك الجهد، وما أن وصلت الميناء حتى مضيت أبحث عن مطعم، فوجدت مطعماً يقدم وجبات زهيدة الثمن ، حيث استمتعت بالتهام وجبة اشتملت على خبز وقهوة وبيض مسكوك في " عمره ".

ولأني زرت مدينة " لفربول " في مرات سابقة ، فقد تخيرت أحد الممثلين من معارفي ، واستضافني الرجل، بالمعنى الإنجيلي للاستضافة . وبعد الحمام ، وارتداء ملابس جديدة ، اقترح على أن نزور أحد أصدقائه ، فذهبنا معا لزيارة " الفرد جونس " صاحب شركة السفن الذي قصصت عليه مغامراتي ، وزياراتي للإنديز الغربي ، حدثته عن الفواكة، كالموز والبرتقال، التي تضيع سدى ولا يستفاد منها، من فرط كثرتها.

وبينت أن مقادير طائلة من المال ، يمكن اكتسابها، إن كان من الممكن تسيير عدد من السفن، لنقل الفواكة من الإنديز، وكان النقاش طويلا عامرا بالتفاصيل ، ودون الرجل بعض النقاط. وقال إن الأمر يستحق أن ينظر فيه . وبعد عام اطلعت على إعلان في صحيفة لندنية، عن أن سفينة من سفن ذلك الرجل ، قد قدمت من جامايا محملة بالموز، ولا أدعي لنفسي فضلا في هذه التجارة، ولكني للاقتران بين الأمرين دلالة.

بعد أيام قليلة ، زرت " إدوارد رسل " رئيس تحرير جريدة " ليفربول بوست " إنه رجل ملتح ، قصير القامة، ذو نظارات ، له عينان رماديتان ، ولم يكن قد حصل بعد على لقب نبيل ، ولم يكن اللقب رخيصا سهل المنال في عهد الملكة فكتوريا، التي كانت دقيقة في خلع الألقاب ومنح الرتب، بالرغم من إلحاح الوزراء ولهاثهم بغية الحصول على الألقاب . ولكن الملكة منحته لقب فارس .

عندما دخلت المكتب صافحني " مستر رسل " بحرارة ، وأجلسني على مقعد ، وعبر عن سعادته بلقائي ، حدث ذلك قبل أربعين عاما. في تلك الأيام كان شعر لحيته يغلب عليه الشيب . وكان قد تلقى مقالة مني عن المسرح الانجليزي ، اعتذر عن نشرها، غير أنه أرسل إلى طالبا مقابلتي . كما أخبرني " جورج أغسطس سالا " بشأني مشينا على ومقرظا . وهذا ما أثار استغرابي ، لأني قابلت " سالا" ثلاث مرات . في الأولى أخذ هو بزمام الحديث ، وظل كل الوقت يتكلم ، وفي المرة الثانية ، انفرد " كلمنت سكوت " بمعظم الحديث ، ولا أذكر

أنني قلت يومها أمرا دالا على نباهة يستحق أن يعلق بذهن سالا ، وعلى أى حال ، فقد ذكرت على نحو ما لادوارارد جورج، فلم ينسنى .

ولما جلست إليه ، بدأنا نتحدث عن المقالة ، ومستقبلى الصحفى ، وعن أمور أخرى مشابهة، ومن بينها ما يدخل فى السياسة . تكلمنا عن مصر واحتلالها، وعلى ذكر تلك المحادثة، فقد أدركنى العجب من مقولة له : فى رسالة وجهها إلى ، فى يناير ١٩١٢ ، على صفحات جريدة " أفريكان أورينت ديفيو" ، قال فيها:

"إن تاريخ حكمنا لمصر يتضمن وقائع منسبكة فى تركيبة معقدة وكل ماحدث أخيرا يزيد التركيبة المعقدة تعقيدا.

وإن أفضل رأى يصدر عن الإنجليز هو تحذير الحكومة البريطانية من العواقب الوخيمة المترتبة على إنصاف الحكومة بالقسوة وأن أفضل مايمكن توقعه هو الاستمرار فى أداء عمل أثبتت الحوادث أنه واجب وطنى ".

وفى تلك المرة حدثنى عن أن" قرار" اللورد الكستر" بضرب الاسكندرية له مبررات ، منها ثقته فى فلادستون ، وأن احتلال مصر لن يدوم أكثر من عشرة أعوام، لأن الشعب البريطانى لايفكر فى استلاب الشعوب الحرة من حريتها.

فذكرته بأن انجلترا قد مشت شوطها بعيدا فى تلك السياسة المتقنة . ففى عام ١٨٥٧ عندما اقترح نابليون الثالث أن تتولى بريطانيا وفرنسا وسردينيا تقسيم شمال أفريقيا بينهما من الممكن أن تكون مناطق كثيرة جديرة بأن تحكمها فرنسا وبريطانيا وسردينيا، على نحو أفضل من وضعها الراهن " . رد بلامرستون على لورد كلارندرن قائلا : نحن لا نريد امتلاك مصر، مانريده من مصر أن تكون تابعة للامبراطورية التركية، وفى ذلك ضمان من أن تخضع للقوة الأوربية. ولكننا لانريد أن نثقل كاهلنا بعبء حكم مصر، فلتصلح من الحال فى تلك البلدان عن طريق التأثير العام لتجارتنا، ولنمتنع عن إشعال حرب صليبية بشأن الاحتلال، لأنها تجلب لنا نقمة كل الدول الأخرى المتحضرة.

ورد "ادوارارد رسل " بأن كل الأمور ومن بينها السياسة تمر بمرحلة تدفق ، وأنه لايظن أن بلامرستون، إن تبوأ الحكم فى ظل ظروف مماثلة، ستيبع سياسة مختلفة عن السياسة التى

انتهجها قلادستون ، وأخبرته بأنى لا أتفق مع رأيه ، ولكننى لا أرى جدوى من مناقشة الأمر.

وبعد تأمل ، قال إن من العسير على المرء أن يفهم وجهة نظر الجانب الآخر إلا إذا كان يعرفه معرفة حميمة.

وقال " إن جون برايت " لا يوافق على سياسة " فلادستون " ، وأنا معجب " بجون برايت هذا ، لأنه أمين وبعيد النظر، وأظن أن " جون برايت " اتخذ الموقف الصحيح، ولا أعتقد أننى أستطيع أن أقول أكثر مما قلت فى الوقت الراهن ".

وكنت أظن أننى أدركت مرمى حديثه. إلى أن تلقيت رسالته بشأن قضية مصر، لنشرها فى الجريدة " أفريكان أورينت ريفيو". وأذكر أنه استخدم عبارة " أن كل الأمور تمر بمرحلة تدفق".

وكان أكبر موضوع توسع فى الحديث عنه هو المسرح ولا سيما شكسبير ، ولأنى شهدت "عطيل" - فردى على المسرح فى باريس . فقد رغب الرجل فى معرفة رأيى ، (فى تلك الأوبرا، أخبرته أن عطيل " تاه اجنو" كان جيدا. ولكنى أعتقد أنه كان على " فردى " أن يكون أداء عطيل بصوت وسط ، فى حين يكون أداء " كاسيو" فى صوت صادح، (والصوت الصادح أقوى أصوات الرجال فى الأوبرا). ووافق رسل على رأيى . ولكنه قال " إن من أصول الأوبرا أن يخرج أداء " البطل أو الشخصية الرئيسية فى صوت صادح " وإن كان دوره تافها فى نظر الناقد، وقال إنه تنبه الى ذلك بصورة عامة ولكن مادمت قد لفت انتباهه الى الموضوع، فإنه سيقول شيئا عنه فى وقت قادم. وسألنى عن لون المورى فى دوره الصادح ، فقلت إنه أسود اللون . قال إن شكسبير أراد لعطيل أن يكون زنجيا بلاريب . وأنه باستثناء "سالفينى "، فإن أفضل أداء شهده كان من عمل " ابرا الدرديج " ، الممثل الأفريقى - الأمريكى ، الذى جعلته الطبيعة مستغنيا عن أى مكياج.

ومن الطريف أن كان لى حديث مماثل عن لون عطيل، مع الناقد الرائع : " كلمنت سكوت " الذى عبر عن رأى مطابق لرأى " لورد رسل " ولرأيى .

انطباعى عن اللورد رسل ، أنه رجل حاد الذكاء ، رجل إنجليزى ذو طبع مرح لا يؤثر على نظرته الجادة للحياة ، إنه رجل لطيف ودود ، صاحب ينبوع إلهى من التعاطف الإنسانى . وبالرغم من مؤهلاته الفكرية الحادة، فإن رؤيته محدودة الأفق، نظرا لعزلة موطنه : الجزيرة البريطانية . وهذه سمة لمحتها فى معظم الإنجليز- ومن بينهم من مارسوا الترحال وسافروا

كثيرا فى الآفاق - ترجع إلى تحفظهم ، الى درجة بعيدة ، وهذا يقترن باعتقاد مألوف بالتفوق، غير أن ذلك لا يضايق الأجنبى إلا لماما. ومن المناسب أن أذكر حادثة كنت شاهدا عليها ، بغية توضيح الأمر، فقد صحبت فرقة مسرحية تضم رجالا من الإنجليز، ونساء إنجليزيات ، فى جولة بالقطار ، وفى إحدى المحطات ، كان شخصان بلجيكيان فى فناء المحطة يرتديان ملابس العمال، ولمحتهما امرأة انجليزية فصاحت : " أقول يابنات ، انظرن إلى هؤلاء الأجانب "، وفى لحظة ، ازدحم القوم على النوافذ ينظرون من نوافذ عربة القطار، وأمطروا البلجيكيين المندهشين بوابل من السخرية المرحة. وقد رأيت سواحا إنجليزا يدخلون كنيسة نوتردام فى باريس ، دون أن يخلعوا قبعاتهم من رؤوسهم ، ودون أن ينزعوا الغلايين من أفواههم.

ولا أريد أن يتم كلامى عن أن اللورد رسل تنازل وانخرط فى عرض مجانى لحذاقة رخيصة أو فظاظة . الحق أننى سأتوغل خطوة فى تناول الأمر، فأقول إنه ربما كان قد صدم ولكن مع كل ذلك أعتقد أنه من المحتمل جدا أن يكون اللورد - ربما على نحو لا شعورى - قد لف نفسه فى عباءة التعالى البريطانى .

إنه لمن آخر الرموز التى تمثل الاحترام اللطيف فى منتصف العهد الفكتورى ضيق الأفق، ولكنه راجح العقل ، من طبقة بيوريتانية ومستقيمة ، ولكنها جد عادلة فى ممارساتها مع الآخرين . وغياب هذا النمط هو خسارة فادحة لانجلترا.

ومع أن فئة الكتاب تضم أمثال كلمنت سكوت ، وجورج أغسطس سالا وإدمون ياتس ولابوشير ، إلا أن اللورد رسل مختلف عنهم ، أولئك القوم بوهيميون فى مجال الأذواق غالبا، فى حين أن اللورد زوج حريص على ملازمة بيته ، أتخيله يجد متعته الكبرى فى الجلوس عند مدفأة بيته ، أكثر من أن يجدها فى مجالسة الكتاب العاديين.وهو متساوق مع " لفربول " بجوها غير المترف ، وإلى ذلك الجو المتحرر يرجع نجاح رسل وشهرته فى المدينة ، إلى حد كبير.

إنه يمثل المدرسة القديمة فى الصحافة، التى تراعى المثل العليا فى السياسة والفن والأدب. المدرسة التى ينتمى اليها و.ت . ستيد وجون مورلى .ومادام قد مضى إلى حيث تمكث الأغلبية . فبخسارته تكون انجلترا أفقر ماتكون.

١٢ - الفصل الثامن : ومضيت

كومت ١٩٣٧/٨/٢١

أنا الآن صفر اليد خالي الجيب، ولا أريد أن أبهظ كاهل كرم صديقي . وكنت راضيا بالقبول الطفيف الذى لقيه نشاطي الصحفي في لفربول . عثرت على ممثل وزوجته يزاولان نشاطهما في مسرح قديم وسط حي شعبي .

المسرح الذى أنسيت اسمه الآن، متخصص في تقديم الأعمال الميلودرامية ذات الجو الكئيب، يقدمها الزوجان وفق خطة مرتجلة. وقد تمضى أسابيع وأحيانا أشهر، دون أن يضطلع المسرح بأى نشاط، إلى أن يفد على المدينة بعض الممثلين المتعطلين . وعندئذ تقدم مسرحية ما يؤدى فيها الزوجان الدورين الرئيسين، وتتراوح أسعار التذاكر من بنس واحد إلى ثلاثة بنسات ، وتختلف أجور الممثلين حسب أهمية الدور الذى يؤدونه ، وذلك من الدخل ، بعد أن يستولى الممثلان الزوجان على نصفه ، باسم إيجار المسرح ونصيب كل منهما لقاء خدماته وقيامه بالتمثيل . وكانت الضوضاء تزدهر بين المشاهدين الذين يتألفون من سكان الأحياء الشعبية المجاورة، ومعظمهم من عمال الميناء ، أي من فئران الرصيف وسمكه الزاهي الألوان. وكل ممثل لاينال رضاهم يكون عرضة لسخريتهم وربما أمطروه بوابل من الخضار المتختر أو من بقايا وجبة عشائهم من السمك ورقائق البطاطس.

وفي الفترات التى يتعطل فيها المسرح، فإن الزوجين العجوز والشيخ .. يبقيان على السطح، بما يحصلان عليه من عائد ، لقاء توزيع شراب رخيص مشكوك في جودته على العامة من رواد المسارح وصالات الموسيقى المجاورة. وذلك في بار يمتلكانه ، يسمى " البار المسرحي ". كل عضو يدفع ثلاثة بنسات كل أسبوع ، تؤهله لشراء مايريد من خمر نقدا، في ذلك المكان .

في هذا المكان ، حصلت على وظيفة " نجم " وأديت مع طائفة من الممثلين المهملين

مسرحيات " جسي براون " و" أوكتورون ، و كوخ العم توم " (٣٣). عملت فى هذا المسرح ثلاثة أسابيع ، لقاء ثلاثين شلنا كل أسبوع ، كلها من فئة البنس الواحد حين تصل يدى .

ثم جاء " إدموند تيرل " إلى لفربول ، ومنحنى مدير مسرح شكسبير دورا ثانويا لقاء ثمانية عشر بنسا كل ليلة.

وبعد قضاء زهاء ثمانية أسابيع ، تمكنت من جمع جنيهين كاملين من عملى ، وقررت مغادرة لفربول دون أدنى تأخير. ولأن الصيف حل ، وغدا من الصعب الحصول على عمل فى مسرح ما فى لندن، ولأنى ابتعدت فترة طويلة عن عالم الصحافة، فقد قررت - ولسبب لا أعرفه - أن أذهب الى "همل " ، وكنت قد عملت على مسارحها فى مناسبات مختلفة ، ولى بعض الأصدقاء فيها، فسافرت إليها يملؤنى الأمل ، ولا أدرى ماذا تخبىء لى الأيام فيها. ولما وصلت نزلت فى فندق زهيد التكلفة ، وذهبت الى أحد معارفى الذى يعمل فى إدارة شركة من شركات النقل البحرى فى الميناء ، وكان ذلك الصديق مستغربا وفرحا بلقائى . وبعد أن دعانى إلى وجبة غداء ، رويت له مغامراتى السابقة، وموقفى الحالى ، وأنى محتاج الى عمل، أى عمل ، ورجوته أن يساعدنى ، وأخبرنى بأن لا عمل ميسور إلا أن أكون عاملا فى الميناء ، وقال : إنه يعرف أننى لن أقبله ، وأن ذلك العمل لا يليق بى إطلاقا. أخبرته أن الضرورة لا تعترف بأى قانون ، وأننى راغب فى أى عمل ، لأنى أحتاج الى مال. وبدا غير مصدق الأمر، ريثما قال : إنى معجب بجرأتك ، غير أننى إ ن كنت سأمنحك الفرصة ، سأتربص لأعرف هل ستمارس هذا العمل لفترة طويلة أم لا ، هذا العمل اليدوى الشاق ، وأعطانى اسم سفينة، وطلب إلى أن أذهب الى مرساها فى السادسة من صباح غد.

عدت الى الفندق واخترت أحسن حلة عندى ، وأخذتها لأرهنها، عند " محل رهن" يعير المال بالفائظ لقاء رهن يودع عنده ، وهو أمر يتطلب قدرا كبيرا من الشجاعة، مادخلت فيه من قبل ، أمر بمثل ذلك الدكان رائحا وغاديا ، غير أننى استجمعت شجاعتى ودخلت المحل ولاسيما بعد أن حدجنى شرطى بنظرة شذراء فيها ارتياب ، وكنت أريد جنيهين فأعطانى خمسة عشر شلنا، أعطيت منها صاحبة الفندق عشر بنسات ، لتجهز حساء مركزا يقوى من عضد عامل فى الميناء ، ونمت الى أن صحوت فى الخامسة صباحا.

وعندما وصلت الى الميناء وجدت عددا كبيرا من العمال الذين لا يحيط بهم وصف ، تبدو عليهم الغلظة ومتانة العضلات ، مما جعل قلبي يهبط ويهبط الى أن وصل أخمص قدمي ، إذ قارنت حالهم بحالي الذي تبدو عليه سيماء النعومة.

ثم قدم المشرف على العمل، وبدا يستدعي أسماء مختارة، يتلوها من قائمة : "بيل" "هاري" "ديك" حتى نيف على ثلاثين شخصا ، ثم صاح : انتهى الأمر". وارتج قلبي. لعلي أخطأت فضللت الطريق ، وجئت الى سفينة أخرى ، احترت وهبط قلبي مرة أخرى . ولما لاحظت أن العمال الذين لم يقع عليهم الاختيار مازالوا واقفين ينتظرون ، فقد أبقيت نفسي واقفا معهم انتظر ريثما تتجلى نهاية الأمر، ثم أخذوا ينصرفون واحدا تلو الآخر. ولم يبق سوى أربعة .هممت بالانصراف لولا أن المشرف على العمل ، أتى إلى جانب السفينة وأشار إلى بطرف أصبعه ، وأومأ برأسه الى السفينة ، كمن يدعوني ، فصعدت على ظهرها، وهناك أخبرني بأن الأمر قد صدر إليه باختياري ، ولكنه محتار ماذا يفعل بي . وبقيت واقفا برهة من الزمان.

وعندما فتحت مستودعات السفينة ثم وجهني الى نقل جوالات القمح. وكنت بطيئا فدربني على طريقة سهلة في حل الجوالات من شناكل الآلات الرافعة ودفعها. في الساعة الثامنة ، وقت الإفطار، بعد ساعتين من العمل الشاق ، شعرت بأن أطرافي المكدودة المجهدة لا تنتمي الى جسدي ، وعلى كل ذهبت الى المقهى وشربت قهوة والتهمت شريحتين . وعدت في الثامنة والنصف ، لأواصل العمل في أسوأ يوم عرفته في حياتي . وفي المساء حين عدت الى الفندق كانت ثورة الألم تجتاح كل عضو في جسدي . وبعد الحمام الساخن، نمت على السرير بقدر ماتسمح به عظامي المتألمة، وهكذا واصلت العمل مدة ثلاثة أيام الى أن أكملنا تفريغ مستودعات السفينة: وكان نصيبي جنيها استرلينيا عن عناء أربعة أيام.

ولأن السفن تأتي بين الحين والآخر، من روسيا والهند ، فقد طلب مني أن آتي بعد يومين ، حيث عملت هناك ثلاثة أسابيع أخرى.

وفي ذلك الوقت اهتاجت عاصفة ، وأصابتني الانفلونزا ، وتفاقم حالي ، فتغيبت عن العمل

فى اليوم التالى ، فأرسل المشرف على العمل ابنه ليطلع على حالى ، وفى المساء جاءنى المشرف بنفسه ، ومعه زجاجة وسكى ، وكمية من الكينا السائلة. كما أن صديقى الذى يعمل فى إدارة الشركة عادنى فى اليوم التالى ، فألفانى أستعيد العافية على نحو بطىء وأخبرنى بأنى مارست عملا ، لم أكن مؤهلا للقيام به ، من الناحية الجسمانية ، وأنه حذرنى من البداية، ووعد بأن يزورنى مرة أخرى ، ودعانى الى زيارته فى المكتب ، بعد أن أسترد عافيتى.

وعندما ذهبت إليه ، حاضرنى فى مغامرتى البليدة ، وعيننى تحت امرة كاتب قائما بحصر البضائع، وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر، أوكلت الى مهمة جديدة وهى مساعدة الكاتب فى العمل الإدارى ، والإشراف على بعض العمال.

وبدا الشتاء يقترب وصارت المياه فى بحر البلطيق تتجمد ، ولم يكن يفد من روسيا إلا سفن قليلة. وعندئذ اشتغلت عاملا فى السكك الحديدية .

وفى هذه الفترة اكتسبت قدرا من التعود على ذلك النوع من العمل الذى يؤدى خارج نطاق المكاتب ، ووجدته مفيدا لصحتى . غير أنى لم أفقد ميولى الصحفية، فكتبت مقالا عن أوبرا " مودى مانررز" ، نشرته صحيفة " هل ديلى ميل "، وكتب الى رئيس التحرير يدعونى الى مقابلته. وأثنى على مساهمتى ، ورحب بأى مساهمة أخرى تتسم بالأصالة وتحتوى على فائدة علمية، شكرته وعدت لأعكف على إنجاز عمل متقن .

كنت من قبل قد تعرفت على شيخ يهودى ، " أولرمان سيمرنز" المهتم بالتاريخ القديم ، وكان يتحدث عن مدينة " هل " القديمة ، وعن تاريخها الذى يعود إلى عهد الملك إدواردالرابع. اقتربت من الرجل ، دفعته ليتحدث عن اهتمامه الأثير، فأمدنى بمعلومات جمة عن " هل " وتاريخها المغمور، وحدثنى عن كتاب قديم نادر ، غير معروف إلا لقلة معدودة ، وهناك نسخة من الكتاب فى المكتبة العامة. قلما يحتفل الناس بالاطلاع عليها. وفى المكتبة العامة أتيت على الكتاب وهضمت معطياته الرومانسية عن تاريخ هل. ثم كتبت قصة خيالية عن مدينة هل ، مستخدما الحقائق التاريخية التى استوعبتها كخلفية . ولما اطلع رئيس التحرير على

القصة، سره منحاها، وطلب منى أن أكتب كل أسبوع قصة وفق ذلك النمط لتنشر فى صحيفة " هل ويكلى تايمز" ، ونشرت عددا من القصص المماثلة فى الصحيفة لقاء جنيه ذهبى عن كل قصة، غير أنى غادرت هل لأجدد علاقتى بخشبة المسرح ، وذلك عندما تلقيت دعوة من لندن، لأداء دور " عثمان دقنة ، فى مسرحية " ميلودرامية " يخرجها " هربرت ليونارد ".

١٣ - الفصل التاسع : العودة الى خشبة المسرح

الكومت ١٩٣٧/٨/٢٨

إثر عودتى الى لندن ، شرعت فى أداء التمارين الاستعدادية ،و صحبت الفرقة المسرحية فى جولتين عبر الأقاليم ، مؤديا دور عثمان دقنه ، وقائما بمهام مساعد مدير الخشبة.

سارت الأمور على مايرام فى الجولة الأولى ، حيث صرنا نحن أعضاء الفرقة نؤلف عائلة سعيدة ، ومن بين النفوس المتسمة بالوداعة أذكر " هنرى بريسيفال ريلى " وهو ممثل مسرحى ذو كفاءة متفردة ، وكاتب قصة قصيرة ذو أصالة. وقد اشتهر هنرى برسيفال بشىء من "الدروشة" . فهو يقدس شارلس دكنز إلى حد العبادة ، ويعلن أن روح المسيح المخلص جلبت فى " دكنز" ، وهو يحمل صورة " دكنز" معه أينما حل ، وبمجرد أن يصل الى مدينة ما فى جولة من الجولات، يحرص على تعليق الصورة فى مكان بارز عال ، على جدار غرفة الاستقبال فى الفندق الذى ينزل فيه ، بحيث تبدو الصورة وكأنها تنظر اليه.

فى " سرى " قدمت مسرحيتى ذات الفصل الواحد " انتقام اليهودى "، التى وجدت ترحيبا حارا من النقاد.

وفى الجولة الثانية، عندما كنا نتنقل فى الأقاليم ، مع أننى كنت أظهر فى الفصلين الرابع والخامس من المسرحية، فإننى كنت أحظى بتقدير المعلقين فى الصحف، مما زرع الغيرة فى نفوس زملائى الممثلين ، فأخذوا يهملون أداءهم المسرحى. ولأننى مكلف بمهام مساعد مدير الخشبة، كنت أدعو الممثلين إلى أداء عروض استعدادية فى بعض الأحوال، ولكنهم تمردوا ، متآمرين ضدى ، ولم أجد بدا من كتابة رسالة إلى مؤلف المسرحية، من موقع الدفاع عن نفسى، وحضر المؤلف فى زيارة مفاجئة وشهد المسرحية دون أن يشعر بذلك أحد ، واطلع على ماعرا مسرحيته من تشويه . وبإسدال الستار فى نهاية العرض ، واجه المؤلف الممثلين فى ثورة اهتياج محتدم ، وأخبر كل الممثلين بأننى الشخص الوحيد الذى يستحق الأجر الذى يدفع له

عن جدارة، ثم دعاهم الى عرض استعدادى صباح الغد امتد حتى الظهر، ولكنه بعد أن غادر المدينة، وبالرغم من أن الأداء المسرحى تحسن ، لكن زملائى المثلين لم يصفحوا عنى قط، متناسين أننى قمت بما يمليه على واجبى ، وأننى لم أبلغ المؤلف بتردى الأداء المسرحى ، إلا بعد أن حذرتهم مرات كثيرة.

بعد انقضاء الجولة التحقت بالفرقة المسرحية التى تؤدى مسرحية " بريستون " "أسرار الحريم" وهى مسرحية اشتهرت باسم " أسرار" وتكتب بعد كلمة أسرار فواصل " أسرار..." وهى مكيدة دبرها " بريستون " ببراعة لتدل على خضوع المسرحية للرقابة، وكان قد تجول بالمسرحية فى الأقاليم حتى بليث . ولكنه فى لندن عند نهاية الجولة ، شارك فى إرسال خطاب الى السفير التركى ، وربما كتب بريستون ذلك الخطاب بيده. تضمن الخطاب زعما بأن السلطان عبد الحميد يظهر فى المسرحية بهيئة مهينة ومستهجنة ، وما كان من السفير التركى إلا أن يشهد العرض المسرحى ، ويشمئز منه ، ثم يتصل بمكتب الشؤون الخارجية محتجا، ويستدعى مكتب الشؤون الخارجية " الرقيب " حيث أصيب الرقيب بصدمة لأنه هو الذى أذن بعرض المسرحية ، وأجاز إخراجها، وعندئذ قرر " الرقيب " أن تخضع المسرحية لتمحيص جديد،وأن تحذف كلمة " الحريم " وأن يجرى تعديل فى " الشخصية" التى تؤدى دور السلطان.

حقق " بريستون " قدرا من الذيوع الممتاز فى أوساط الصحافة . صحف حزب الأحرار جهرت بالاحتجاج ، على أساس أن المسرحية فن ، وأن السلطان عبد الحميد شخصية عامة مشهورة لا مبرر لها فى أن تتقدم بشكوى ضد مواطن بريطانى ينبغى أن تكفل له مطلق الحرية ليكتب أو يخرج مسرحية كيفما شاء وفق إرادته فى انجلترا الحرة. أما صحف حزب المحافظين فقد لهجت بالسخرية من المسألة كلها ، ودافعت عن موقف السفير التركى والسلطان عبد الحميد، لأنه من غير اللائق أن يسخر من حاكم صديق علنا على الملأ.

كتب برستون رسائل احتجاج الى الصحف ، حاذفا العبارة الدالة على الحريم، مستعيضا عنها بنقاط من الحبر ، دالة على الطمس والكشط ، تشى بأثر الرقابة ثم حول مشاهد المسرحية من القسطنطينية الى " بالسورا" ، وضمن بذلك إقبالا جيدا على حجز المقاعد ، مما استثار عواطف كل الناس لشهود هذه المسرحية التى خضعت للرقابة .

أسند إلى أداء دور مهم هو نخاس عربى يبيع جارية جركسية لسلطان " بالسورا" (٣٤). ولما انتهت الجولة ، عدت الى هل ، وانضممت الى أسرة تحرير " هل لادى " المجلة الشهرية، وأسست جمعية شكسبير فى هل ، ووفقت فى أن يوافق " السير هنرى إرفنج" على أن يكون راعى الجمعية ، فى حين قبل المستر فرانك بنسون " بتولى منصب أول رئيس لجمعية ، ومن بعد صار يحمل لقب " السر فرانك بنسون " . واضطلعت بتنسيق عروض لبعض مسرحيات شكسبير، واشتركت مع أعضاء الجمعية فى تأدية الأدوار . وعلى نحو خاص نهضت بتدريب أعضاء جمعية الدراما فى شرق يوركشير على الأداء المسرحى، وطاب لى المقام ، فاستقررت فى هل بصورة دائمة.

وبعد عامين من متابعة هذا النشاط، قدم " فرانك سكدمور" إلى " هل " ومعه مسرحية من تأليف أبيه عنوانها " لأنى أحبك " وعرض على أن أنهض بالدور الرئيسى فيها، وراقنى الدور البديع ، ولكن لما عرانى من إرهاق بعيد الجولات المسرحية، ودع عنك ماسبق أن ألمعت اليه من حسد وغيره يغص بهما عالم المسرح ، فقد آثرت الإحجام . ولأن تلاميذى كانوا يقضون عطلة الصيف ، دعانى " سكدمور" لمرافقة فرقته فى تجوالها أثناء عطلة الصيف ، وإمعانا فى الإغراء ، رغب فى ضم مسرحيتين من تأليفى إلى برنامج الفرقة ، .. ومن بعد وافقت على أداء الدور الرئيسى فى مسرحية " لأنى أحبك " ثم نفضت يدى من عملى فى " هل " وانهمكت فى ممارسة التجوال مع الفرقة .

ولما بدأنا جولتنا الثانية على مسرح " دنتجتون" فى لندن ، كتبت رسالة إلى " كلمنت سكوت " الذى كان يحرر صحيفة " فرى لانس " راجيا منه أن يشهد العرض المسرحى ، فإن بدا له أنه يستحق التنويه ، كان له أن يكتب عنه . وكان جد كريم بما كتب من تناول نقدى مع توجيه تقدير خاص إلى أدائى . (٣٥)

ثم انتقلنا الى مسرح " ستاندرد " ، وكان صديقى " والتر ملفيل " مداوما على متابعة العرض ، وذات ليلة ذهبت اليه محييا ، وصافحتى وشد على يدى قائلا :

"أداؤك المسرحى عظيم ، ولو كنت رجلا إنجليزيا ، لتبوأت المكانة الأولى بين الممثلين فى "وست إند " بجدارة.ينبغى أن تقابلنى ، بعد انتهاء هذا الموسم المسرحى، لأننى أزمع كتابة

مسرحية مفصلة عليك ".

شكرت له هذه اللفتة الحانية ، وأخبرته أننى أنتظر وفاءه بعهده ،غير أنه للأسف لم يجد وقتا للوفاء بما التزم به .

عندما كنا فى الأقاليم ، شهد ممثل عادى المسرحية وشغف بالدور الذى أوديه ، وعرض على " سكدمور" مبلغا مغريا من المال، لقاء السماح له بأداء الدور، وحظى عرضه بالقبول ، وعندئذ تخلى " سكدمور" عن خدمات شخصى والممثلة الأولى ، بعد منحنا تكاليف السفر الى لندن ، ومرتب أسبوعين ، هذا ماحدث .

ووصلت الى مدينة العزلة الموحشة ربما لا توجد فى العالم كله مدينة يشعر المرء الذى لاعلاقات عائلية له فى رحابها بالوحدة الموحشة مثل مدينة لندن، إننى أتحدث معتمدا على تجربتى الخاصة ، ذات مرة أمضيت ثلاثة أيام بلا طعام فى صوم اضطرارى ، كنت أعيش خلالها على قوت الماء . فى أمسية سبت استرخيت فى حديقة " هايدبارك " حضرت القداس فى كنيسة مرجريت حتى نهايته [٣٦]. وفى لحظة قنوط ذهبت الى منزل صديق آملا فى الحظوة بطعام لم أكن أملك الشجاعة لإبداء الرغبة فى الحصول عليه صراحة : وكان أن نلت مالم أكن أتوقع ، من طعام ، وقضيت تلك الليلة فى ضيافة الصديق .

ومن ثم لم أكن أستطيب العودة الى لندن ، ولأننى كنت خجلا من العودة الى " هل " بعد رحلتى البائسة التعسة بعد أن تركت الجوهر وحصدت الهشيم ، وقبضت الريح.

ومن حسن الحظ ، أننى قابلت يوم أن وصلت الى لندن أحد معارفى ممن يعملون فى صنع الشعر المستعار، وسألنى إن كنت مرتبطا بعمل ، ولأنه كان يسعى لتوظيف واحد مثلى للمساعدة فى رعاية فرقة باليه ستسافر أثناء الصيف الى " ليج " للمشاركة فى المعرض الدولى ، وأن هناك دور سلطان شرقى يحتاج الى أحد يتولى أداءه، وأنه يسعده أن أقوم بأداء الدور لقاء مرتب مغر فصحبته الى مكتبه . وتناولنا الأمر بمناقشة مفصلة ، وحصلت على عقد لمدة ستة أشهر. وانجابت عن قلبى غمة ، بحسب الحظ الذى أتيح لى ، وبعد أيام بدأنا التمارين الاستعدادية، وبعد ستة أسابيع غادر لى بلجيكا.

١٤ - الفصل العاشر : ليج

كومت ١٩٣٧/٤/٤

وصلنا ليج فى الخامسة ظهر يوم بارد شاحب ، لنكتشف غياب أى تنسيق لاستضافة أعضاء الفرقة ، كل الفنادق ذات الأسعار المعقولة مقطونة ، والفنادق التى تشمل أمكنة خالية أسعارها لا تطاق ، لأن من المفروض أن ندفع نفقات معيشتنا من جيوبنا الخاصة ، ولهذا سرنا من محطة السكة الحديدية الى أرض المعرض ، حيث وجدنا حشدا مختلطا من الأسمنت ومواد البناء فى أكوام متراكمة، ولم يبق على يوم افتتاح المعرض غير ثلاثة أسابيع .

قسمنا الذى يسمى " الشرق الحق " يعطى صورة للتداعى ، المسرح نصف مكتمل ، ولحسن الحظ ، كان السقف مكتملا ، وفى ذلك المكان طرحت فرقتنا التى يبلغ عدد أفرادها خمسة وعشرين شخصا، ومعهم أمتعتهم، إلى أن يتنسنى لمديرنا الإدارى العثور على مساكن خاصة نقيم فيها.

التهمنا زادنا من السندوتشات والفواكة، عندما توقف قطارنا فى محطة بروكسل ، ولحسن الحظ بعضنا نحن القائمين على الإشراف، ممن نفذ زادهم من الطعام، دلنا على مطاعم محلية ، حيث نلنا من طعام عشاء جيدا حتى شبعنا. وتلك الخطوة ضرورية ، لأننا نعرف أنه من الخطأ ترك أمتعتنا تحت رحمة من لا نعرف من الحرس الليلى فى أرض المعارض ، إلى أن يتأتى تدبير مساكن ننام فيها.

عاد الإدارى المسؤول فى العاشرة والنصف ومعه عدد من المرشدين والمصابيح . وكان القسم يسربله ظلام دامس منذ غروب الشمس . وأحس أفراد الفرقة بجوع شديد ، وكأنهم صائمون منذ شهر. وأخذونا الى المساكن المختلفة التى أعدت لنا ، حيث حصل المحظوظون على طعام ما . وعاد أعضاء الفرقة الذين لا يعرفون الفرنسية جوعى مرهقين ، الى أسرتهم.

لم أشعر بالراحة ولا نمت لحظة فى كل ذلك الليل، ليل العذاب. إن جيشا من الهوام الجائعة نزل على مستمتعا بوليمة شهية ، مما أبقانى مشغولا طول الليل بقتل فرق من الحشرات، المتعطشة لمص الدماء التى قررت استنزاف دمى . وبعد لأى أقبل الصباح فخرجت فرحا أتمشى. حيث وجدت مطعما ولجته لأصلح من حال الدمار الجسدى الذى حدث فى أثناء الليل. وبعدها ذهبت الى موقع المعرض لأطلع على الأمور هناك، فالتقيت بصديق قديم جاء مندوبنا عن مؤسسة فى " بون إستريت " تعمل فى تجارة بيع الجواهر. وكان مشغولا بالإشراف على تنسيق صناديق المعرض، فوقفت برهة أشاهد الأداء ، ثم التفت الى وكانت التحيات والترحاب والسرور المتبادل ، والأسئلة عن سير العمل .

ارتفعت عن كاهلى كل مشاكلى ، فأخذنى صديقى إلى الخارج ، فى الحال، وبعد وقت قصير عثر لى على مأوى مريح ونظيف .

وفى اليوم التالى كانت خشبة المسرح معدة ، فأخذنا نجرى عروضا استعدادية ، وسط دوى المطارق ، وصياح العمال المندهشين المتواصل ، إلى أن حل يوم الافتتاح الرسمى ، وفى غضون هذه الفترة ، وصلت أفواج من الرعايا الأجانب المختصين بجناحنا، وفى هذه الأفواج، حواة ولاعبو أكروبات من الصين .و" فقراء" هنود وراقصون مصريون من الدراويش وأكلة النار، سحرة وحرفيون فى مجال تشكيل المعادن والعاج والخشب ، وموسيقى شعبية مصاحبة لكل جماعة قادمة . وبدا جناحنا يتخذ شكله وحركته . وضجة جديدة مضافة بتدافع الأقسام المختلفة على اقتسام المساحة المحدودة من حولنا.

الاستفادة من وسائل الطهى كانت تمثل عظم النزاع . المسلمون لايريدون طهى طعامهم جنبا الى جنب مع الهندوس ، والصينيون لايريدون ممارسة الطهى مع المسلمين والهندوس، ولهذا حلت المعضلة بالسماح لأى جماعة بالطهى فى ركن قريب من موضع سكنها.

وعلى أى ، وضعت حلول موقتة ، واستطاع الجناح استقبال الجمهور فى اليوم التالى ليوم الافتتاح الرسمى ، وكنا قد أجرينا عروضا استعدادية على مدى ستة أسابيع ، قبل مجيئنا الى بلجيكا. وكانت تشتمل على أغان جماعية ذات قواف تافهة ، خليط نغمى مسروق من

الكوميديات الغنائية الرائجة فى ذلك الحين. وكان سيناريو رقصات " الباليه " لا يمت بصلة الى الأغانى الجماعية، بدا بدون هدف .

العروض الاستعدادية فى لندن سطحية، ولم تبلغ حد الاتقان . وكان المؤلف والمنتج راقصا ماهرا ، ليس عنده أبسط المعلومات عن أصول فن الدراما. هذا الرجل ترك مهمة تدريب فرقة الرقص فى يد سيدة على حظ ما من الاستواء ، كانت راقصة فى فرقة " تيلور" للرقص ، تقدم عروضها فى قاعات الموسيقى الانجليزية.

هذه السيدة كما يقول جلبرت :

"تبدو فعلا فى التاسعة والأربعين

عند الغروب ، والضوء من ورائها."

وبوصفى السلطان الشهوانى ، فقد كان من المتوقع أن أكون مستعدا للتخلى عن ثروتى الهائلة، تعبيرا عن حبى لهذه الفاتنة الصبية العذراء، وأن ألقى عمامتى المزدانة بالجواهر عند أقدامها التى لا تبدو على قدر كبير من الحسن. كانت الحاجة شديدة الى شخص معجزة يقوم بعمل شاق ، وهو تعديل السيناريو ليبدو فى صورة أقل شطحا . وقد اقترحت تعديلا يجعل السيناريو أقل إثارة للاستهزاء ، ولكن المؤلف المزعوم بدا غيورا على نتاجه الرائع الى حد أنه لا يقبل أن يسمع أى كلام عن تعديل فى نتاجه الكلاسيكى . ومن ثم نفضت يدى من الأمر، وأطعت الأوامر. فى لندن ألححت على إجراء عروض استعدادية مع تلك السيدة ، وكان الراقص الماهر يرد على طلبى مؤكدا أن كل شيء سيكون على أحسن حال عندما تصل الى " ليج" ويشرع المؤلف الموسيقى فى أداء تمارين استعدادية،وما أن شرع فى عزف تلك الموسيقى فى ليج ، حتى أيقنت أنه أكثر تأليف موسيقى مجرد من الإحساس سمعته فى حياتى.

وما دمت حاصلا على عمل لمدة ستة أشهر ، فقد عزمت على أن أفعل مافى وسعى من أجل مصلحتى ومستخدمى ، ومن أجل الفن الذى أكون لبنة متواضعة فيه . استمر عرض الباليه المزعوم أربعة أو خمسة أسابيع، وفشل فى اجتذاب جمهور ، وأدركه الموت بلا مجد . وفى ذلك المعرض قابلت عددا من الزوار المتميزين ، مثل المرحوم ملك بلجيكا السابق "البرت"، وكان يومئذ دبوك برميانت " ، الذى زار المعرض مرات ، وقابلت اثنين من كبار

الأمراء ،" الديوك الروسى " كانا يزوران القارة فى الصيف ، ويضمنان المعرض فى جولتهما . وكان هذان الأميران الروسيان يزوران المعرض من حين لآخر، وفى ذلك منفعة مالية للسيدات فى فرقة الغناء والرقص .

ولأن اليهودى النمساوى ، المسؤول عن الجناح، شخص يؤثر العزلة ، وكان الراقص الماهر المشرف متغيبا دائما، فقد كنت انتقل بعد أداء دورى على المسرح الى مرافقة الزوار المتميزين فى جولة فى أنحاء الجناح وهذا يذكرنى بتجربة لاتنسى .

كان صديقى مندوب مؤسسة الجواهر يصطحبنى الى مشاهدة رياضة سباق الخيل المحلية ، ظهر كل أحد ، عند توقف العروض حتى المساء . ولقد حدثت هزه عظيمة بمناسبة زيارة شاه إيران للمعرض الذى يضم جناحا مهيبا وجذابا خاصا بايران ، وذات أحد من تلك الآحاد ، راجت إشاعة عن أن الشاه سيزور ليج فى ذلك اليوم ، وسرى الاهتياج بطبيعة الحال فى المدينة، وكان أن استأجرت عربة يجرها حصانان حملتنى الى الفندق الذى ينزل فيه صديقى ، فى ميدان مجاور للسجن ، واضطررت سائق العربة لعبور جسر قريب من فندق " آوتيك سكوير"، وعندما عبرت الجسر رأيت جمهرة عظيمة من الناس تحيط بالفندق، ملأت الميدان كله. وظننت أن الجمهرة احتشدت فى عيد من الأعياد الدينية الكثيرة فى الأقطار التى تدين بالكاثوليكية ، أو ربما فر مجرم من السجن. ولدهشتى غدا اقتراب العربة سببا فى انفجار هتاف عام " يحيا الشاه ، يحيا الشاه " . ونظرت فلم أر عربة أخرى فى المكان . وظننت أن الشاه أخفى نفسه فى الفندق ذى الطابقين .

ولما وصلت المدخل جاءنى مالك الفندق وزوجته وانحنيا أمامى ، وبغرابة ، بينما كان الزوج يقدم لى صينية فضة تحتوى على زجاجة شمبانيا ، كانت زوجته تقدم لى صينية صغيرة وقدحا بنشاط ، وسط الهتاف " يحيا الشاه "، وفجأة يظهر صديقى وقبعته فى يده، ينحنى لى فى تواضع، ولكن ومضة خبيثة فى عينه نبهتنى الى الشخص الذى تتوجه اليه الأضحوكة الساخرة.

وبطبيعة الحال ، تقمصت روح الواقعة ، فانحنيت بلطف للجماهير المحتشدة بينما صديقى يمد كأس الشمبانيا الى فى مظهر احتفالى ، ويعيد الكأس بعد أن تذوقه الى زوجة مالك

الفندق ، ثم يجلس قبالتى ، وقبعته فى يديه ويدخل يده فى جيوب سترته ، ويملؤها بملاليم ، ثم ينتثرها على الجماهير، ونحن نستقل العربة فى طريقنا الى ميدان سباق الخيل وسط تهليل الجماهير" عاش الشاه " وكتمان صديقى للضحك .

ولما صرنا على مبعدة من الفندق ، وبعد أن غالب صديقى الضحك قال :

" الناس يتوقعون وصول الشاه ، فأشفقت على أولئك المنكوبين .

ولما كنت أعرف أنك ستظهر مرتديا الطربوش ، أمددتهم بشاه يرضى طموحهم".

ولكن مقتضيات اللحظة أجبرتنا على أن نمنح سائق العربة ضعف مايستحق من أجر، من أجل ذلك التمجيد المزيف .

١٥ - الفصل الحادى عشر

ريادة المليودراما " المسرح المثير "

الكومت ١٩٣٧/٩/١١

عرض الباليه أدركه الفشل الآن فانهار، جناح الشرق يغص بالحواة والأكروباتيين، الصينيين، الدراويش يتزون، آكلو النار والباطنيون يحوطهم الغموض ، والحريم الذى يضم ست شابات باديات الوسامة ، يؤدين عملا حيويا ، وإن كان الزوار لا يشهدون شيئا وراء الحجاب الشفاف ، أكثر من هؤلاء الحسناوات الشابات المستلقيات على الوسائد ، يدخن السجائر وهن يحدقن باعتام الى الزوار وهم يدخلون من باب ، ويمرون عبر الحاجز الى المخرج. الزوار الألمان الذين كانوا يتوقعون بلا ريب شهود أمر أكثر إثارة ، يحدقون الى النساء فى المكان الخالى، ثم ينظرون الى بعضهم بعضا، يتساءلون فى عجب " أهذا كل الأمر". وعن هذا السؤال ، تجيب صاحبة " النمرة" مقلدة لكنته " نعم هذا كل مافى الأمر"، وذات مرة استشعرت ملكة الحريم بالضجر المتنامى من فرط رتابة تعليقات الألمان ، الموجهه اليها فردت عليه بغيظ ، ممعنة فى تقليد لكنته " لا ، ليس كل شىء" .

كنت لم أزل مدونا فى قائمة المرتبات ، فتيات الغرفة أعادوهن الى لندن .، بعد ليلة محمومة فى فندق فخم، على حساب الأمراء الروس . وبعد أسبوع غادر الراقص الماهر ، وصرت آخر شخص يبقى فى المعرض من ذلك الفشل الهائل .

الأمير الروسى " ك " ألح على ، لأزور روسيا على نفقته، وليس من اللياقة فى شىء أن أصرح باسمه ، وهو الآن فى زمن كتابة هذا الكلام موجود فى الولايات المتحدة الأمريكية، يعمل فى تجارة بيع السيارات . منتقلا من مكان لآخر، وزوجته الأميرة تدير قاعة تجميل فى نيويورك . إن العائلات الأربعمائة التى تحتل الصدارة فى أمريكا ، قد أضافت الى مجدها

الاجتماعى - على حسابها - باستخدام أميرة عظيمة ، أمينة وطيبة حقا ، فى تجميل ملامحها المجعدة.

لنعد الى الأمير " ك " ، كان يومئذ يستمع الى آخر حد بثروته الواسعة ، التى كان ينفقها بكل الرعونة النابعة من اللا مبادلاة الأرستقراطية

وبعد إلحاح ، رافقته الى بطرسبورج [٣٧] وموسكو، حيث استمتعت بصحبته هو وأصدقائه أقول : استمتاع بروية ، لأن ملاحظاتى قادتنى الى نتيجة مؤدها أن تلك الحياة المبذرة والطائشة التى تعيشها طبقة النبلاء الروس لن تستمر أبدا.

لم أكن أحب الثراء المتهور ، ولا النظرة غير الراضية التى كنت أراها فى عيون البروليتاريا، وأنا أسير فى صحبة أولئك الأرستقراط فى الشوارع ، وكنت أشعر وكأننا فى خطر التنقل على مقربة من فوهة بركان اجتماعى ساكن ، يمكن أن ينفجر فى أى لحظة، ولهذا لم أندهش بأى حال لحدوث الثورة بعدئذ التى نتج عنها السيطرة الحالية للدكتاتورية الشيوعية.

إن البندول استدار بعنف من أقصى طرف الى أقصى الطرف الآخر.

قد آلمنى ازدهار حياة البطالة والترف على حساب غالبية السكان المستعبدة التى أنتجت تلك الثورة. ومن ثم ، وبالرغم من إلحاح أصدقائى المخلصين فى أن أقيم فى روسيا ، فإنه بعد خمسة أو ستة أسابيع من الدورة الاجتماعية الرتيبة ، حزمت أمتعتى وعدت الى إنجلترا.

ربما كان " و.ن: استيد" هو الذى أطلق على لندن عبارة " بابل الحديثة " ، ولكن من الجلى أنه لم يزر روسيا قبل الشيوعية.

إثر عودتى الى لندن ، اتصلت بـ " والتر ملفيل " فى مسرح " استاندارد" مستطلعا إن كان قد كتب المسرحية الموعودة . وجدته مشغولا بأمور أكثر إلحاحا. ولكن بعد زيارات متلاحقة ، عرض على أن أعمل وكيلا يتولى الدعاية لمسرحيه " على الأرض للمرة الثانية" فى المدن التى سنطوف عليها ، وهى مسرحية مثيرة " ميلودراما " من النوع المكفهر.

" والت ملفيل " أخبرنى بأنه لا يثق فى وكلاء الدعاية لأنهم مشهورون بلصق الإعلانات ، يظهرون فى مسرح " ستاندرد" يوم الثلاثاء أو الأربعاء بعيد وصولهم ، ثم يختفون عن الأنظار

الى أن تصل الفرقة المسرحية التى يمثلونها صباح الاثنين ، وبعدها يحصلون على مرتباتهم من مدير الفرقة الزائرة ثم يغادرون الى المدينة التالية ، ويمارس سلوكا مماثلا .

سألته ، لم يعتقد أننى سأختلف عنهم ، ورد قائلا :

" لأنك تمتلك الثقافة والذكاء معا. وأرى أنك ذو إحساس بالقيم . وقصدى أن أختبرك . اعترف بأننى فى ورطة. أريد منك أن تسافر الى " نورث هامبتون " . " ميلتون دود" مستأجر المسرح ، رفض منع تذكرتين إكراميتين لاثنين من البيوت المحلية العامة لقاء السماح بلصق إعلانات المسرحية على جدرانهما. إن فرقتى ستقدم عرضا هناك يستمر مدة أسبوع ابتداء من يوم الاثنين القادم. إن لم نتخذ خطوات فعالة وناجزة الآن . فسأتكبد خسارة مال أسبوع من العمل . أريد منك أن تذهب الى نورثهامبتون فى الحال، وأن تكسب ود أصحاب البيوت العامة، إن نجحت فستعمل معنا حتى نهاية الجولة". على أن يمنحنى جنيهين كل أسبوع فضلا عن تكاليف السفر والعمل .

ولما وافقت ، تسلمت مايغطى السفر بالقطار ، الى جانب خمسة جنيهات ، على أن أقدم حسابا دقيقا بشأن صرفها الى " برت هاموند" مدير أعمال الفرقة ، بعد وصوله مع الفرقة.

فى مساء ذلك اليوم السبت بادرت الى نورثهاميتون ، وفى اليوم التالى عندما فتحت البيوت العامة : " التنس " أبوابها فى الظهر ، قابلت الرئيس المحلى لنقابة الأطعمة، بأنه يحرج الفرق الزائرة بأكثر مما يقول " مليتون دود" . وكان أن نسقنا لعقد اجتماع لنقابته فى مساء ذلك اليوم ، وخاطبت الاجتماع ، وأعددت تذكرتين إكراميتين فى المسرح طوال الأسبوع القادم، لكل من حضروا الاجتماع. ومن ثم انحلت الورطة، وتهيأ لمسرحية " على الأرض للمرة الثانية" أن تنجح نجاحا ماديا، بفضل الدعم الذى وجدته من هؤلاء القوم الطيبين .

وبالرغم من أننى لم أعمل مع " ملفيل " وفق عقد عمل مكتوب ، فقد أمضيت معه جولتين كاملتين ، قامت بهما الفرقة لعرض المسرحية ، ومن بعد عيننى أخوه " فيرد" فى عمل مماثل.

وهنا لابد لى من ذكر واقعة جرت فى مدينة " باث " ، عن نشاطى لاستثارة الناس مما يدفعهم للتجمهر أمام شباك التذاكر ، من أجل مشاهدة المسرحية.

كانت باث ، على الأقل فى أوائل القرن " العشرين " ، مدينة جد محترمة. إنها ملاذ ضباط الجيش البريطانى خاصة ، وغيرهم من العلية عامة، بعد أن يحالوا الى التقاعد.

وكانت الميلودراما لعبة محرمة عند أولئك الأفراد المضخمين ، وعند العاملين عندهم الذين يتبنون فى الغالب النزعات المتعالية لسادتهم.

عند وصولى باث ، ألقيت فرقة الأوبرا ، تؤدى عرضها على مسرح " رويال " للأسبوع الثانى ، والأحوال المالية فى باث قد ساءت الى حد التدهور، وكان موقف ترفيه مخيف مثل الميلودراما يبدو كالحا. كان لا مناص من إحداث شيء ناجز وفعال. لاجتذاب السكان الكسالى فى باث . إن السيدة التى ستقوم بزيارة ثانية لوادى الدموع هذا ، كانت تسمى " دورا فيرى " جدران مدينة " باث " تضج بالأسطورة المدونة عليها.

هيلدا بيشرلى

فى دور

دورا فرى

"للمرة الثانية على الأرض "

وبعد برهة من التفكير العميق ، كتبت خطابا الى " دورا فيرى" بواسطة عنوان مسرح "رويال " مدينة باث . وأرسلته الى لندن فى ظرف مستقل ، ثم تم إرساله الى فى باث من لندن. وفى هذا الخطاب نبأ سيىء بأن حادث انتحار سيقع ، ثم ذهبت الى محل يبيع الملابس المستعملة ، واشتريت عباءة نسائية قديمة، وقبعة ، وأخذتهما الى مسكنى . طلبت إحضار قطعتين من الملابس المسرحية الضيقة ، وحشوها بنشارة الخشب ، وجعلهما تبدوان مشابهتين للجزء الأسفل من جسم إنسان، من الخصر الى أخمص القدم ، وبعدها كتبت تحتها بالألوان عبارة :

" تعال إلى على الأرض للمرة الثانية "

ولما وصلت الفرقة فى مساء الأحد ، جعلت نجار خشب المسرح يتولى إغراق الملابس المشكلة ومعها عبارتى المخطوطة فى لوحة خاصة ، وذلك فى وسط النور الذى يمر بمدينة " باث" . وفى العاشرة أو الحادية عشرة من مساء ذلك اليوم أخذت إحدى ممثلات الفرقة الى شاطىء النهر،

وجعلتها تمشى على الجزء المبتل من الشاطىء المحاذى للنهر، بحيث تنطبع آثار أقدامها عليها. ودخل نجار خشب المسرح الى النهر من مكان آخر، ثم جاء إلى الشاطىء حتى يبلغ المكان الذى تتمشى عليه الممثلة، وحملها الى داخل النهر، ثم أخرجها إلى الشاطىء من مكان آخر. ثم وضعت العباءة القديمة والقبعة على الشاطىء، فى غير نظام . ورجعنا من بعد الى مساكننا متخذين مسالك مختلفة .

فى اليوم التالى ، أحد حفظة السلام اكتشف الأمر، وحمل العباءة والقبعة والخطاب إلى مركز الشرطة، وهرعت مجموعة من الشرطة الى النهر، وبدأت تبحث عن جثة " دورا فيرى ".

وكانت إثارة عظيمة. تجمهر الناس على ضفتى النهر.

لقد أخذت ثأرى من " باث " فأوقظتها ، قد صدقوا أن " دورا فيرى " انتحرت .

الجريدة المحلية أصدرت أربع طبعات خاصة، تابعت فيها تطور الأحداث.

بعد ثلاث ساعات عثروا على الجثمان ، وهو سيقان من نشارة الخشب، وعرف القوم النكتة. ولكن الشرطة لم تدركها.

امتلأ المسرح فى ذلك المساء بالمشاهدين ، وتأتى النجاح التجارى للمسرحية مدة أسبوع كامل، ووجدت من الملائم أن أغادر " باث " فى ذلك المساء ، دون أن أزدان بدوى الأبواق .

١٦ - الفصل الثانى عشر: إسكوتلاندا

الكومت ١٩٣٧/٩/١٨

عندما كنت فى جولتى الأخيرة قائما بالدعاية لمسرحية " الحمال والوحش " لفرد ملفيل" ، قررت أن أحاول تقديم مسرحيتى " انتقام اليهودى " التى سبق أن قدمتها على مسرح " أولد سورى" .

ولما وصلنا مدينة مانشيستر ، وشرعت الفرقة فى تقديم مسرحية الحمال والوحشن ، على مسرح " بورود هد "، تفاوضت من أجل الحصول على فرصة إضافية ، بتقديم مسرحيتى من على قاعة الموسيقى فى " بورودهد". وعكفنا على إجراء عروض استعدادية للمسرحية ، أدتها الفرقة التى عرضت مسرحية " الحمال" . مع إسناد الدور الرئيسى الى . وفى الوقت نفسه قابلت مدير المنطقة : " أوزوالد استوك " الذى تهيأ لشاهدة المسرحية . وبعد أن اطلع على جهدى ، جاءنى فى غرفة الملابس : وهنأنى وحدثنى بكلام مبشر، أنه سيضمن لى الفرصة : إذا ماكان الممثلون الذين أدوا العرض الاختيارى ، سيتولون تقديم تلك الأدوار، حين تعرض المسرحية، ماعدا السيدة التى تؤدى الدور الرئيسى ، فإن أداءها ضعيف ، ولابد من أن تحل ممثلة أخرى مكانها. فوافقت ، وعند عودتى الى لندن ، حصلت على عقد ، بعرض المسرحية مدة أسبوعين فى مسرح " أدويك إمبير" بمانشستر، ومسرح " إمبير" بفجاسجو > على سبيل التجربة ، على أن تستكمل الجولة إن تسنى تقديم المسرحية ، وفق النهج المقترح.

ولأن أسبوعين لايكفيان لتشكيل جولة، لم أر مبررا لأن أطلب من جماعتى التخلى عن الارتباطات الخريفية ، من أجل فرصة محفوفة بالمخاطر، تشمل عروضا تستمر مدة ستة وعشرين أسبوعا تحت إشراف " استول ".

ومن ثم ، قامت جماعة جديدة من الممثلين بأداء الأدوار كلها، وعرضت المسرحية فى مانشستر وجلاسجو ، ونسقت لإجراء مقابلة مع " بوستوكس " فى وقت محدد، وعندما كنت

أسير فى طريق فرعى ، انزلقت على جانب الطريق المغطى بالثلج ، فأمسكت بسياج حديدى لأمنع نفسى من السقوط ، وعندها انسربت شريحة من الحديد فى إبهام يدى وتوغلت فى كفى، فأسرعت الى صيدلية ، حيث لفت يدى المدماة بعصابة ، ومضيت الى مكان المقابلة لأجد الشاب " استوك " قد اضطر للانصراف من أجل اللحاق بموعد آخر، بعد أن انتظرنى زهاء ساعة. وكان ذلك خيبة أمل عظيمة لى ، لأن المقابلة كانت ستتم فى الليلة الأخيرة من عقد العمل فى جلاسجو ، وكت أريد له أن يشهد المسرحية ، أملا فى الحصول على عقد عمل .

ولأن دورى فى المسرحية يقتضى القيام بقتل " برفكت "، فقد عانيت مشقة فى تلك الليلة وأنا أحاول إغماد الخنجر " الوغد ".

ومن عواقب تلك الحادثة أنى وجدت نفسى مرغما على إرجاع الممثلين الى لندن ، وبقيت فى جلاسجو أقضى طور نقاهة، وتسنى لى أن أظفر بأصدقاء رائعين حقا، من بينهم رجل يدعى " جافين إنجلير" صاحب دكان لبيع الصحف والتبغ، هذا الرجل صاحب شخصية فريدة ، فهو آخر من بقى على ظهر الأرض من عائلة مشهورة فى جلاسجو بصنع المظلات، وكان يمتلك قلبا من الذهب الخالص. وكانت تحيط "بكافين إنجليز" زمرة من أفضل الأصدقاء المتفردين الذين سعدت بلقائهم : ناظر مدرسة عسكرية متقاعد " الجزار المغنى" ، واداری - كاتب شيخ عاش فى أمريكا الجنوبية ، تعود على أن يبدأ ملاحظاته بلازمة " عندما كنت فى ليما"، وصانع أحذية أعرج ، إيرلندى يحمل اسما إسكوتلانديا : " كاميل ". ورجل آخر يفوق حد الوصف ، يعمل مع أحد متعهدى لوازم السفن فى جلاسجو . كان يتهمنى بأننى أدون ملاحظات على الورق. وقال إننى سأكتب عنه ذات يوم فى الصحف، لقد نسيت اسمه تماما ، يا للأسف العميق، وفى نسيان اسمه خسارة للتاريخ.

وكان كافين ملاصق لبيت عام " حانة " ، على زاوية شارع ، ويتولى كل واحد فى زمرته تزويد المجموعة بزجاجة الاسكوتلاندى الجيد كل يوم ، عن طريق التناوب .ولكن واحدا يختفى فجأة فى حجرة الدكان الخلفية ، ويعود بابتسامة رضى عريضة . ولما تتغيب محتويات الزجاجة، تبدأ مناقشة تناول مواضيع متنوعة، وتستمر حتى يغلق الدكان، حيث تمكث الزمرة خارج الدكان لتواصل المسامرة، حتى يتعب كل من الخلاف، فيزحف كل الى سريره وهو يتأرجح.

أمسيات السبت كانت دائما شديدة الإثارة، " الجزار المغنى " لاينى يتحرش مع " رجل متعهد لوازم السفن " ، فيثير معه نقاشا حاميا، ينتهى دائما بتبادل اللكمات، فى حين يبقى " كافين " واعيا، فيخرج الرجلين ، ويوصد الدكان.

"المغنى الجزار " يبدأ الجدل عن غنائه الرائع، ويخالفه الرأى " رجل متعهد لوازم السفن" و"هارى لاتدر" رجل ليما، يحاول جاهدا دون أن ينجح ليتحدث عن مغنيات الأوبرا المدهشات الاتى سمعن " عندما كان فى ليما". ومدير المدرسة يبدأ فى سرد تجاربه ، بعد أن ينضب معين القارورة . وعندما يصل حديثه المشوب بلكنة إسكوتلاندية الى منتصف الطريق ، يقاطعه الجزار المغنى متحديا مهددا بالقتال، لأنهم بخسوا من قدر صوته الرائع. وعندها يبدو، جافين، بقامته الفارعة التى تبلغ ستة أقدام، برجولته بأمر الجميع بالصمت ، ويقدم بديلا صارما، باستعمال القوة فى طرد الزمرة كلها. " آبى ياللعار، ماذا سيقول هذا الرجل عنكم ؟!

"ابى ، وسيعقب عليه رجل متعهد لوازم السفن" ، سيسجل حالنا فى كتابه ، " بى ؟!

ويمضى رجل " ليما" الى الباب، ويهرب دون أن يلمحه أحد.

كامل الشيخ ، الإسكافى ، يتنهد ، ويعبر الطريق مترنحا الى دكانه. وواحدا فواحدا يختفى الجميع من الصورة،، بعد ليلة جيدة ممتعة .

ومن ثم ينظر " جافين " ناحيتى ، ويهز رأسه ويطلق تنهيده ارتياح . وينحنى على النضد، ويقول لى " ماذا تقول عنهم " ؟ فابتسم . وأهز كتفى وأنهض على قدمى ، بينما ينهمك هو فى إيصاد الدكان ومن ثم الى المرقد حتى مساء السبت القادم ، حيث يتكرر حدوث مشهد مماثل، إنهم يمثلون حقا صحبة حسنة أفرادا وجماعة . ومناوشاتهم تمثل زيادة فى انسياب الأرواح ، لا حرج فيها . عزيزى " جافين " الشيخ مات بعد أشهر قليلة يوم كنت فى أدنبرة مرتبطا بعرض لمسرحيتى . كل هذه الأمور جرت قبل نيف وأربعين عاما مضت ، ولاشك أن المجموعة كلها قد تبعت خطى " الشيخ جارفن انجليز" الى " دار ، لايؤوب من يسافر اليها.

وكنت قد اتصلت بشخصية أخرى لا تنسى ، تسمى " توم باسيت " ، كنت قد قابلته من قبل ، فى أوج اشتغالى بالمسرح ، فى عنفوان شبابى . كان يومئذ نجما لامعا يقدم أعمال شكسبير ودكنز، فى أغانى بقاعة " ميدلس سكس " للموسيقى ، " دروری لان؛ " . ضاحكة ولكنها ذات نفس درامى مكثف .

باسيت " أقام فى " جلاسجو" وغدا خبيرا فى صناعة " الشعر المستعار" مثلما كان خبيرا فى أداء المسرح.

عندما قابلته ، كان مصدر معيشته يقوم على صناعة الشعر المستعار، ويؤدى عروضا مسرحية من حين إلى آخر . فى حفلات الموسيقى التى تكون مساء السبت ، حيث يعمل "المغنى الجزار" أيضا.

عندما شاهد باسيت مسرحيتى فى مسرح " إمبير" ، اقترح أن نشرع ، بعد عودتى من جولتى فى أدنبرة وجلاسجو فى تكوين فرقة منوعات صغيرة، تؤدى عروضا فى المدن الصغيرة المحيطة بجلاسجو . ووعد بالمساهمة فى التكاليف بمقدار مساو للمقدار الذى سأسهم به ، وقد تجولنا من بعد فى ثلاث مدن ، ثم تركونى وحدى " لإمساك الحقيبة ".

وحاولت تقديم عرض فى " انفيرنيس " بدون مشاركة " باسيت " ، ولكن أهل مدينة "انفيرنيس " الفقراء الفخورين الذين يستعرضون مقدرة على تكلم الإنجليزية على نحو أفضل من الإنجليز أنفسهم ، كانوا أكثر كبرياء وأشد فقرا ، فلا يغشون المسارح. وكان أن وجدتها مدينة باردة جدا الى حد تكوين الجليد، من الناحية المالية والمناخية . مسكنى بارد ونظيف المظهر، ولكننى لن أنسى تجربتى كل الليل مع الحشرات المرعبة التى تندس تحت البطاطين ، حتى تنقشع ظلال الليل، وإلى الآن أقشعر من مجرد ذكر مدينة " إنفرنيس" ، بخدش فى تفكيرى .

ولقد اضطررت الى حرق بعض ملابسى الملوثة بالدماء ، بعد عودتى الى جلاسجو رغبة فى تخليص النفس من تلك الحشرات.

وعلاوة على منغصات وخيبات أمل أخرى، أدى سقوط الثلج الى تعطيل قطارنا مدة ثمانى ساعات مجمدة ، بين جلاسجو وانفيرنيس ، دون تدفئة .

بعد عودتى الى جلاسجو، قدمت إنشادا فى بعض حفلات الموسيقى التى تقام فى أمسيات السبت ، وفى بعض الحفلات التى تقام بعد الظهر كل سبت أيضا. وتأتى لى بذلك أن أحصل على قدر كاف من المال، يمكننى من العودة الى العزيزة لندن العجوز.

١٧ - الفصل الثالث عشر : لندن مرة أخرى

الكومت ١٩٣٧/٩/٢٥

لدى عودتى الى لندن ، قبلت عقدا مؤقتا فى قاعة الموسيقى بجنوب لندن لعرض مسرحية " انتقام اليهودى " ومسرحية أخرى .

الربيع أتى ، والصيف يبدو قريبا ، وأعرف أن الحصول على عمل فى مجال المسرح هو أمر مشكوك فيه . ولهذا ذهبت الى معرض " شبرد بوس" الذى مايزال فى طور الإنشاء على أمل مقابلة " كورالفى " الذى كنت آمل أن يتذكرنى ، لأننى شهدت مع فرقة " ويلسون باريت " مسرحية " سقوط روما" المدهشة التى أخرجها هو وأخوه ."مولوسى " فى نيويورك.

عند وصولى أخبرنى " السكرتير" أننى لن أقابل الرجل العظيم إلا بعد الحصول على موعد مسبق ، وفى طريق عودتى ، قابلت كهربائيا ألمانيا كان يعمل من قبل فى معرض " ليج" حيانى بحرارة ، وسألنى إن كنت سأقدم عرضا فى المعرض البريطانى الفرنسى أخبرته أننى أتيت لمقابلة المدير، للحصول على أى عمل ، وسألته إن كان أحد العاملين فى العرض ، من معارفه قد وصل .

باختصار أخبرت الألمانى عن حاجتى الى عمل، لأن مواردى المادية هبطت فاقترح على أن أقبل بالعمل معه مساعد كهربائى ، وإلا فإننى سأعانى .

قلت له إن معرفتى بالكهرباء محصورة فى نطاق الأوليات ، ولكنه أصر ، وعرض على أن أشاركه مايجد من أعمال. وحدث أن باشرت العمل فى اليوم الثانى ، مرتديا " الأبرول "، وبدأت مغامرة جديدة.

كان الألمانى عطوفا شغوفا، فألفيت نفسى فى جو العمل بجد ، أعلق مصابيح المربون ، مساعد كهربائى يجعل نفسه ذا نفع فى العمل.

قبيل افتتاح المعرض، حصلت على عقد بتقديم محاضرة ، يصاحبها إيقاع موسيقى، تصف

قصة الكتاب المقدس ، عن عثور الأميرة المصرية على موسى .

المحاضرة ذات طابع وصفى ، وهى تشكل الجزء الأساسى فى العرض الوهمى كله ، الذى يذكر المشاهد بعرض " شيخ بيبر" والجيل الجديد لم يسمع بشيخ " بيبر" ولا مالقته " قصة العثور على موسى " من نجاح.

خلال عملى فى هذا العرض ، قابلت عددا كبيرا من الشخصيات المنفردة ، مثل الأميرة فكتوريا ، التى شهدت العرض ، وحيتنى مهنئة وعراها الاستغراب ، لأننى كنت أرتدى الملابس المصرية التقليدية ، فسألتنى أين تعلمت هذه اللغة الانجليزية الرفيعة، ونسبة لاهتمامها بالعرض ، حرص كثير من العاملين فى البلاط على شهود العرض .

كان الرجل الأمريكى الذى يمول العرض الوهمى قد اقتنع بأنه من الممكن تعيين محاضر آخر بمرتب أقل ، فأعطانى إنذارا بالتوقف عن العمل ، بعد أربعة عشر يوما، وعين شخصا إنجليزيا بدلا منى ، ثم توقف العرض تماما بعد ستة أسابيع ، نتيجة قلة الإقبال عليه، فأرسل الى برقية يطلب فيها عودتى الى العمل. غير أننى كنت قد ارتبطت بأعمال أخرى .

أظن أنه عين شخصا آخر بدلا منى ، متأثرا بالرجل الانجليزى مؤلف العرض الذى حضه على ذلك ، ربما لأن اسمى كان مكتوبا بحروف كبيرة على لوحة الإعلان، خارج المبنى "الكاتب والممثل المصرى العظيم "، وأشك شكا قويا فى أن نجاحى غير المتوقع، جعل الكاتب الإنجليزى، يعتقد أن الجمهور سيميل الى الاعتقاد بأننى أنا كاتب ذلك العرض أيضا.

عندما تركت المعرض ، قررت أن أستقر ، وأن افتتح مكتبا فى " روبرت كورت " بشارع "شافنتسيرى" ، وأن أعمل خبيرا فى مجال الكتابة، ونشرت طائفة من الإعلانات عن العمل ، فى صحف لندن ، ذات الطابع الأدبى والمسرحى.

وبينما كنت منهمكا فى مراجعة المخطوطات وتقويمها، وتقديم النصح لناشئة الكتاب، "البراعم"، لقاء أجر معلوم، فقد صرت أيضا أديبا مختفيا وأنا مسؤول عن أطر بعض الأعمال المسرحية الناجحة التى قدمت لى " وست اند" قمت بتشذيبها وتقديمها ، بينما استمتع كتابها بالشهرة وتصفيق الجمهور.

عند انهماكى فى هذا العمل ، زارنى رجل مهم أسود البشرة من " برمودا" يدعى

"تيريجهام" ، جاء الى مكتبى ، وطلب منى إعادة كتابة مسرحية عنوانها " ليل برمودا"[٣٨]
التى سبق إعداد الموسيقى والأغانى الخاصة بها، ولكن لا أحد من مديرى المسارح الذى اطلعوا
عليه ، وافق على تقديمها، إلا واشترط إعادة كتابة النص من جديد.

وكنت مشغولا غير قادر على القيام بذلك العمل ، ولكن الرجل لم يكن يفهم أن كلمة " لا"
تشكل مفردة من الذخيرة اللغوية التى يتكلمها.

ولهذا بعد لأى ، وافقت على إجراء مقابلات أسبوعية مع مؤلف الأغانى ، والمؤلف
الموسيقى ، وشرعت فى إعادة كتابة المسرحية.

ولما اكتملت المسرحية، تقدم رجل مبذر نجح فى تبديد الثروة التى ورثها عن أبيه ، لتمويل
العرض ، وبعد مقابلات كثيرة فاشلة ، ولأننى أنفقت وقتا كبيرا واهتماما جما بالمسرحية ،
حاولت العثور على ممول للعرض.

وكان أن ظهرت سيدة ، قدمت نفسها على أساس أنها" البارونة ل" وقالت إنها قادرة على
تدبير التمويل الضرورى وأخذتنى الى مكتب صديق لها، الذى أجرى عدة مقابلات معى ،
ووافقت مبدئيا على إنشاء " سندكالية" رأسمالها ٥٠٠٠ جنيه استرلينى ، لعرض المسرحية
وفوضنى للاتفاق مع أحد المسارح واختيار مجموعة لأداء المسرحية.

وبدون حكمة أو روية صدقت وعوده ، وشرعت فى إجراء اتفاق مع مسرح " نيوثيثر"،
واختيار من سيقومون بالأدوار الرئيسية فى الفرقة . ورويدا رويدا اختفى الممول والبارونة من
الصورة، فاقترحت السيدة التى تولت الدور الأول أن نقوم بجولة فى المحافظات ، حتى يتسنى
للمستثمرين اختبار العرض. ووجدت فى هذه الفكرة مخرجا من الورطة ، فاتصلت بجون هارت
" فى مسرح " رويال " بمانشيستر " الذى كان موجودا فى لندن يومئذ . ولأنه يعرفنى وافق
على منحى فرصة محاولة فى المسرح، ومن ثم شرعت فى إجراء عروض استعدادية مع أفراد
الفرقة.

وبعدها عملت على إعداد ملابس وإعلانات ، وافقت السيدة التى تؤدى الدور الثانى على
تدبير تكاليف تلك الأشياء، وفى اللحظة الأخيرة لم نتحصل على المبلغ كله ، ووجدت نفسى
مضطرا للاتصال بهارت مرة أخرى ، الذى تكرم فمنحنا مبلغا من المال .

وصلنا مانشستر ، قبل أسبوع من بداية العرض، حتى نتمكن من أداء آخر العروض الاستعدادية على المسرح. المؤلف الموسيقى المغمور الذى شارك فى التأليف الموسيقى ، الذى يعنيه العرض بأكثر مما يعنينى ، أبى فجأة المشاركة فى العزف الموسيقى الذى شارك فى تنسيقه، مالم أدفع له مبلغ مائة جنيه استرلينى . كنت متهيجا ، وتمنيت لو أننى لم أر "تيرمنجهام " ولا مسرحيته من قبل . الله وحده يعلم كيف دبرت المبلغ المطلوب ، ثم بدأنا فى تقديم العرض.

ولأننا وصلنا مانشستر" دون أن تمهد لنا دعاية فى الصحف، فإن النقاد فى الصحف المحلية لم يترفقوا بنا. مما أثر على العائد المادى المتحصل من العرض، وكان مدير المسرح قد خصم المبلغ الذى دفع لنا من قبل. ولهذا لم نكن قادرين على دفع مرتبات العاملين فى المسرحية كاملة.

السيدة القائمة بالدور الأول ،التى اقترحت على جولة المحافظات،توقفت عن العمل وعادت الى لندن. ولحسن الحظ قامت الممثلة البديلة بأداء الدور فى العرض التالى بمدينة "ميدل إسبورو".

كان العائد المادى فى " إسبورو" أفضل من مانشستر . ألم بى مرض من فرط القلق ، فأوقفنا الجولة، ولملمنا الأزياء والمناظر وأودعناها عند مدير المسرح . حتى نتمكن من إعادة الفرقة الى لندن، وعدت الى ممارسة عملى فى مكتبى ، وكتابة مقالى الأسبوعى فى مجلة "نيو ويك".

انتشرت أنباء فشلى فى لندن، أذاعتها السيدة القائمة بالدور الأول قبل عودتى الى مدينة الجوع المرعب.

المؤلف الموسيقى وزع نشرة " قد انتهى دوس محمد" ! وقد جاءت نهايته هو بعد مدة قصيرة لاحقة. إنه لم يكن يعرف دوس محمد .

وهكذا انتهت مغامرتى ، كمتعهد كوميديا غنائية ، والجولة الهزيلة الخاصة بمسرحية "ليلك برمودا".

١٨- الفصل الرابع عشر : ثيودر روزفلت و مصر

كومت ٢/ ١٠/ ١٩٣٧

في تلك الآونة ، قدم الى لندن ثيودر روزفلت الرئيس الأمريكي السابق ، عائدا من رحلة صيد الى أفريقيا ختمها بزيارة الى مصر.

وعند وصوله الى لندن ، أقام له اللورد عمدة لندن مأدبة رسمية ، وتحدث فيها روزفلت عن الإدارة البريطانية فى الأقطار الأفريقية التى زارها ، حاثا الحكومة البريطانية بأن الحاجة ملحة لاستخدام سياسة " العصا الغليظة" في مصر، لأن جمهرة من الطلاب المصريين في القاهرة، قد أغضبته واستفزته ، لأنه أبدى ملاحظات غير مستحسنة عن مصر.

ولما قرأت تقريرا صحفيا عن حديثه، صرت أغلى غضبا . وهرعت فى الحال الى مكتب مجلة " نيو آج" [٣٩] وطلبت من رئيس التحرير "أ. إى، أوراج " أن يسمح لى بنشر رد فى صفحات مجلته، على ماقال روزفلت .

وقال " أوراج " أن لامانع عنده من نشر المقالات ، ولكنه قال مقترحا إن الأمر سيكون أكثر فعالية ، لو أننى كتبت عن تاريخ الأحوال السياسية فى مصر. وأخبرته بأن التاريخ الذى سأكتبه سيعبر عن وجهة نظر وطنية. وأننى أرى أنه سيكون من الصعوبة بمكان أن أجد ناشرا فى بريطانيا يمكن أن يقدم على المغامرة بنشره. وعندها ضمن لى " أوراج" أنه سيجد ناشرا، إن كنت سأكتب الكتاب.

ومن فرط الشك فى نتيجة الأمر، وعدت بكتابة ملخص لمحتويات الكتاب، مع الفصول الثلاثة الأولى ، وذلك يكون معلومات كافية لأى ناشر كى يحدد إن كان من الممكن نشر الكتاب. فوافق على مقترحى، وبدأت فى الحال كتابة الفصول الثلاثة الأولى، وعملت على استنساخ اثنتى عشرة نسخة منها على الآلة الكاتبة وسلمت نسخة كاملة الى "أوراج" وأرسلت

عشر نسخ الى عشرة من الناشرين البارزين فى لندن، ووردوا على جميعا ، يطلبون إجراء مقابلة شخصية معى .

ولما قابلت "أوراج" وأخبرته بما فعلت ، وبالردود التى تلقيتها ، أخبرنى أنه قابل " استانلى باول" الناشر، وأنه نسق لمقابلة معه، وأنه تلقى تقريرا عن الكتاب من شخص كلف بتقويمه، وفى الوقت نفسه أرسل الى " جرانت رتشاردز" يطلب مقابلتى على عجل، ولما قابلته أخبرنى أن الفصول أعجبته ، ولكنه يرجو منى أن أكمل كتابة العمل كله. أخبرته أننى لن أمضى فى الكتابة مالم أحصل على عقد. ولما وجدته غير متجاوب مع مقترحاتى ، جمعت مخطوطتى وانصرفت معتمدا على إجراء مقابلات أخرى، لحين الحصول على قرار فصل من باول فى الأيام القليلة القادمة، أجرى باول المقابلة وأبرم عقدا فى الحال، ينص على أن أسلم مخطوطة الكتاب التى تضم مائة الف كلمة ، فى غضون ثلاثة أشهر من تاريخ التوقيع على العقد.

وشرعت فى إنجاز العمل ، أقضى اليوم كله أجمع المادة الرسمية من المتحف البريطانى. وأعود الى البيت لأعمل حتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحا ، كل يوم ، وأسلم الفصل الذى أفرغ مهن إنجازه أولا بأول.

وعلى هذا النمط ، صارت قراءة البروفات مقترنة بكتابة ماتبقى من الكتاب، وفى الأسبوع الثانى عشر كانت بروفات الفصل الأخير بين يدى الناشر، وبعد أسبوعين تاليين ، فرغ من طبع كتاب " فى بلاد الفراعنة ".

إن إستانلى باول" عضد فعلا طبع الكتاب ودعمه. وما من صحيفة انجليزية مهمة إلا وحملت صورتى وإعلانا جذابا عن التاريخ ، وإنى لأنتهز هذه الفرصة لأعبر عن امتنانى الأبدى لاستانلى ولأوراج لمساعداتهما القيمة ، وتعاطفهما الاستثنائى.

إن السيرورة الواسعة التى تأتت للتاريخ، دفعت المرحوم اللورد كرومر ، الذى فضح الكتاب ادعاءات إدارته ، لأن يسارع بزيارة محاميه ، على أمل الحصول على قرار ضدى ، ولكننى علمت بصورة شخصية خاصة من محاميه أنهم أخبروا المندوب السامى البريطانى السابق فى مصر، أننى كتبت نقدا لإدارته، وليس لشخصه ، وأن صفحات الصحف مفتوحة أمامه دائما، إن كان يرى أن إدارته تعرضت لنقد غير عادل ، وعند هذا الحد انتهى الأمر.

ومهما يكن النقد الموجه الى إدارة كرومر فى مصر، فإنه " جنتلمان" بأعلى معانى الكلمة دون ريب.

قبل أن يأتى الى مصر، عمل اللورد كرومر فى الهند، ولكنه لم يكن يدرك أن الشعبين الهندى والمصرى مختلفان تماما فى منحى النظر والتركيب النفسى ، عند كرومر، الشخص الشرقى لايعدو أن يكون شرقيا فقط. ولم يكن قادرا على أن يسبر أعماق الشخصية المصرية، ومن ثم جاءت غلطاته.

ولقد أتيح بعد سنوات لاحقة فرصة ملاقاة اللورد كرومر والتحدث اليه، وذلك خلال الحرب العالمية الأولى، أيام تأسيسى لصندوق رعاية الأيتام والأرامل من أبناء الجنود الهنود المسلمين وزوجاتهم ، ممن قتلوا خلال الحرب، وكان اللورد كرومر من رعاة الصندوق النشطين .

فى تلك الآونة ، كان رجل يدعى " اسبيلر" مشغولا بالتحضير للمؤتمر العام للأعراق، فى لندن . أرسل الى دعوة مستعجلة يرجو مقابلتى ، بهدف التعاون على إنجاز العمل .

كان الوفود بدأت تصل الى لندن ، فطلب عودتى فى مجال الدعاية الصحفية. ولأن التحضير راق لى ، فقدوافقت على تقديم كل مافى وسعى من عون.

وبعد مقابلات شتى فضلا عن القيام بالدعاية الصحفية ، حصل على موافقة منى بتنتظيم عروض موسيقية ومسرحية، من أجل الترفيه عن الوفود فى المؤتمر الذى عقد فى القاعة الكبرى بجامعة لندن.

وفى هذا الحين قابلت كولروج تايلور ومدام بوناتو ، سيدة ذات مزاج حاد ، تدعى أنها كانت عازفة بيانو فى بلاط امبراطور النمسا ، وأشياء أخرى طفيفة . اخترت الفصل الثالث من مسرحية عطيل ، لأقوم بأدائه ، واستعنت بمجموعة من معارفى ومن الممثلين والممثلات ، للمشاركة فى تمثيل الأدوار الأخرى ، وقامت الآنسه "بياتريس بارك " حفيدة مونجوبارك " التى شاركت فى مسرحية " ليلة برمودا" السيئة السمعة - بأداء دور " ديدمونة ".

كولردج تايلور لم يحضر ربما لأنه مريض أو لارتباطه بموعد آخر، نسيت السبب واهتاج مزاج مدام بوناتو، بسبب تغيب تايلور، ورفضت العزف على البيانو، إلى أن غمرها أصدقاؤها بفيض من المصانعة المتملقة ، وعندها تنازلت عازفة البيانو فى بلاط امبراطور النمسا واستجابت .

أخشى أن أصرح بأننى واحد من الذين لم يصلوا الى مستوى استحسان ما للسيدة من فن رفيع جدا، وإلا فإن حفلة الترفيه خرجت بصورة مرضية.

وجاء ختام المؤتمر حفلة عشاء فى مطعم " كريبتورسن".

وباستثناء التجمع المشهور للبشر فى " برج بابل" ، فمن المشكوك فيه أن يكون قد حدث من قبل ، أن اجتمعت نخبة تنتمى الى قوميات شتى حول مائدة واحدة، مثل تلك المائدة ولا فى جلسات عصبة الأمم ، لقد كان تجمعا مشهودا ، ضاعت منه فرصة ذهبية.

الأمريكى " جون مولهولاند " الذى مول مشروع " إسبيلر" جلس إلى جانبى . وفجأة قال لى : ما رأيك فى إنشاء ناد عالمى ". " وهؤلاء القوم موجودون معنا الآن ويمكن أن يشاركوا".

وبدت لى وجاهة الفكرة فقلت له " ولم لا ، إنه لن تتاح لك فرصة أخرى ".

أمسك " مولهولاند" بقائمة الطعام وكتب على ظهرها:"نحن نريد أن يكون لنا ناد عالمى ، إن كنت موافقا على الفكرة، أرجو أن توقع باسمك هنا.

ثم وقع على الورقة. ومدها الى لأوقع ، ثم مررتها على جارى الجالس الى يمينى ، ثم كتب " مولهولاند" على ظهر قائمة الطعام الخاصة بى العبارة نفسها، ووقع عليها ، ومررها على الجالس الى يمينه، وطافت الورقتان على الجالسين الى أن وصلتا الى اللورد وير ديل رئيس المؤتمر الجالس الى يمين إسبيلر.قرأ اللورد ويريل التوقيعات مبتسما، ثم مرر الورقتين على إسبيلر مبتسما. وعندما كان اللورد يقرأ تغيرت ملامح وجه إسبيلر من الابتسام الى التقطيب.

كانت لحظة درامية ! لحظة توتر ، وترقب.

وانحنى يهمس فى أذن اللورد وير ديل ، همسا استمر بضع دقائق ، حين صارت العيون كلها مثبتتة عليهما ، ومن بينها عيونى وعيون " مولهولاند" ، كنا نجلس قبالة الشخصين اللذين سيحددان مصير الفكرة.

انتهت المحادثة الهامسة.

وأخيرا هز "إسبيلر" رأسه هزا دالا على سلبية الموقف، وهمس "مولهولاند" ياللعنة ، لقد خسرنا، إن إسبيلر جحش ملعون ".

كنا حقا قد خسرنا الأمر، انحنى اللورد "ويرديل " على المائدة ، وهز رأسه هزا دالا على سلبية الموقف وقال لموهولاند : "لا لم يحن الوقت بعد".

١٩- الفصل الخامس عشر : أن تبنى الأهرام

كومت ٩/ ١٠/ ١٩٣٧

الكلام عن " جون مولهوند يذكرنى باقتراح مترنح أبداه .. كنا نتحدث عن المحاضرات والمحاضرين فى أمريكا ورويت تجاربى فى تقديم محاضرات ، تحت إشراف " ماجرباوند" ، فربت على كتفى وقال:

"هذا يذكرنى بأن أقترح عليك أمرا : الآن اطلع أى مثقف فى أمريكا على كتابك عن مصر، ولاسيما خصوم تيدى روزفلت . الآن كنت أفكر فى أنك تستطيع جمع أكداس من المال، إن ذهبت فى جولة محاضرات إلى أمريكا".

"محاضرات عن مصر ، صحت.

"نعم ولم لا " أجاب " ليس عن مصر السياسية ، لى رأى أقوم ، خط السكة الحديدية فى "لونج آيلاند". إننى أعرف الرئيس ، وسيروق له مشروعى . وكنت متهلفا على سماع خطته .

"لحظة واحدة " قال ، واضعا يده على كتفى :

"سأزودك بمخطط عن الأهرام، وسأعطيك خطاب تقديم الى رئيس السكة الحديدية فى "لونج آيلاند" سأقول له إن عندك مخططات ، وإنك مستعد لإنشاء أهرام مماثلة لأهرام مصر".

ولكن قلت له : " لست بمهندس" .

" لم أقل إنك مهندس ، أنت مصرى ، سترتدى الزى المصرى فى أمريكا، ماعليك إلا أن تتجول وتشاهد مبانى الأهرام تشيد وتعلو، ستنهال عليك المقابلات من قبل رجال الصحافة . ستتحدث ، ولن تسرف فى الحديث ، ستجعلهم يخمنون ويحدسون ، رجل غامض ، لا سبيل للاتصال به ، وعندما يكتمل بناء الأهرام، ويتم افتتاحها رسميا، فإن كل الناس سيقبلون على رؤية الرجل الذى بنى الأهرام. هذا سيمنحك خلفية لم يسبق لمحاضر زار أمريكا أن ظهر بها. فكر فى الأمر ياصديقى ، الآن ، وأخبرنى بما ستنتهى اليه.

الاقتراح ضخم، يجعل المرء يلهث ، طاش تفكيرى ، حدثته أننى سأنظر فى الأمر. وكلما فكرت فى الأمر، قل إقبالى عليه . لقد فعلت أشياء وأشياء فى حياتى ، أما أن أتعامل مع ركام جبل ، فلا يروق لى .

إن القيام باستثارة فضول الأمة الأمريكية لا يلائم مزاجى ، ماخبرت مثل هذا التشهير من قبل ، أخشى أن يكون " مولهولاند" قد اعتبرنى عبيطا. إنه مثل معظم الأمريكان يقيس عظمة الأشياء بالعائد المالى. هو صديق عظيم للناس الملونيين فى أمريكا ، ومجاهد جسور من أجل الارتقاء بأحوالهم.

لا يحب " بوكرت ، واشنطن " ولا مناحيه . يرى مولهولاند أن بوكر ت. واشنطن قد وجه نشاطه من أجل إيجاد طبقة مستعدة . وذلك جلى فى عونه المالى والشخصى لبوفارد دوبوا ، ومنظمته ، من أجل تقدم السود ، زودنى مولهولاند بنسخة من كتاب دوبوا" روح القوم السود" الذى لم أطلع عليه من قبل . ولم ينل إعجابى . جاء الكتاب فى صياغة جميلة ، ولكن يتخلله عويل على النبذ الذى تعرض له المؤلف من قبل زملاء الدراسة ولاسيما النساء بعد التخرج.

يرى بوكر ت. واشنطن أن قومه يهملون حقائق الحياة، من أجل ولع بمنافع أكاديمية ذات نفع ضئيل لهم فى البلد الممعن فى المادية ، حيث يستحوذ الدولار على الاعتبار الأول. إنه لا يهزأ من التعليم ، لأن معهد توسكيجى يشهد له ، المعهد الذى يقرن النظر الأكاديمى بالعمل اليدوى بالتساوى ، المعهد الذى سيبقى نصبا خالدا، على استشراف بوكر ت.واشنطن ، فى حين تنسى الأنشطة الاجتماعية والاكاديميات الزائلة التى قام بها " بوجارت دبوا" .

إن أمريكا تغص بالعاطلين من الأكاديميين الأفرو - أمريكيين ، والمبشرين المسحوقين ، والمحامين المتبطلين . ينبغى ألا يعتبر كاتب هذه السطور معارضا لمبدأ انتشار التعليم العالى وسط الأفارقة . ولكنه يرى أن التعليم العالى يمكن أن تتجاوز عنه . إن التعليم الأدكايمى لا يلائم كل الناس ، فى حين أنهم يمكن أن يكونوا مزارعين ناجحين . وكلا الطريقين جد ضرورى من أجل تقدم الناس، ولكن مجموعة خارجة من أحوال بدائية ، عندما تفتقر الى التوجيه السديد ، فإنها عرضة لأن تفقد إحساسها بالتوازن.

إن العمل الأمين ، مهما يكن حظه من التواضع، حين يدعمه إحساسه بالقيم والمثل ، يشحذ الشخصية ويحقق لها استقلال النظر والاكتفاء الذاتي. هذا هو هدف بوكر ت. واشنطن ، مما لم يدركه "مولهولاند" . لأن تحقيق أهدافه يقتضي التركيز على ضرورة أن يتعلم الإنسان الأسود كيف يستخدم يديه ، مثلما يستخدم عقله ، ولكن استخدام اليدين يأتي في المقام الأول.

اعترف بأن كان لي رأي مشابه لرأي جون مولهولاند في بوكر ت. واشنطن . إلى أن أتيح لي حديث شخصي مع مؤسس معهد "توسكيجي ". أخبرني أن شباب الجنوب يتطلعون بأعينهم المتوثبة صوب الشمال بمنافعه الأكاديمية ، مما سيؤدي الى كارثة شاملة. إنه مولود في الجنوب، ارتقى من العبودية، ولأن قومه في الجنوب ، لايستطيعون الذهاب الى الشمال، فإنه جلب الشمال اليهم ، على نحو أشد تركيزا وأكثر جدوى . بنى المعهد في الجنوب لأنه يحتاج الى عون مالي من قبل طبقة ملاك المزارع يدعم خطته. وإن كان اتجه الى إنشاء أكاديمية للتعليم العالي ، لطرده البيض وسحقوا أكاديميته . وقد مضى في تأن ، مقدما على تحقيق هدفه المنشود . ورغب في قرن التوجه الأكاديمي ، بالعمل اليدوي النافع. وأذاع في الآفاق إنه يريد تدريب أيد عاملة في المزارع ، وتخريج خدم أذكياء ، يعملون في معية الطبقة المسيطرة، ولهذا دعمت تلك الطبقة مشروعه بالمال.

ولما آتت الخطة أكلها، انتبه الجنوبيون البيض ، بعد فوات الأوان، ووعدني بأنني في زيارتي القادمة لأمريكا سأطلع على المعهد من الداخل، وهذا ماحدث وكنت مندهشا في سعادة. أمضيت في المعهد ثمانية أيام ، من الأيام الممتعة والمنعشة للروح الى حد كبير.

رأيت كل مايرى ، تخصصات مهنية نافعة تشمل الزراعة العلمية ، دون إهمال للبعد الأكاديمي . النقد الوحيد الذي أبديته انصب على السرعة المستخدمة في أداء كل الشعب . ينهض كل الأولاد والبنات في الصباح قبل شروق الشمس ، ولاحظت الانتقال الدؤوب من فصل إلى آخر، حتى المساء . وعجبت أن هؤلاء الطلاب قادرون على استيعاب كل مايدرسون.

ولم أكن زائرا فحسب ، بل معينا، ومعينا فقيرا بلا شك . وقدمت كل مساء خلال إقامتي في المعهد، محاضرة عن أصول الأفارقة وحضارتهم وتاريخهم. حظيت ، فيما أرى ، باستحسان كبير. مات واشنطن . لكن عمله بقي حيا متحركا. ومات مولهولاند أيضا قبل وصولي الى أمريكا.

٣٠ -الفصل السادس عشر : ولفرد إسكاون بلنت

كومت ١٩٣٧/٩/٦

بعيد طبع تاريخى لمصر، تلقيت دعوة من المرحوم ولفرد إسكاون بلنت ، مؤلف كتاب التاريخ السرى لمصر، يدعونى إلى زيارته ، فى بيته بشسكس.

وبالرغم من أننى قرأت كتاب بلنت واستشهدت بنصوص منه ، فإننى لم ألتق به من قبل ، ولأننى كنت ملما بجهوده فى دعم الحركة الوطنية المصرية، ألفتينى تواقا الى تبادل الآراء معه.

وذات ظهر سافرت بالقطار من لندن الى محطة ، على مسافة من موطن إقامته، حيث وجدت عربته فى انتظارى ، وحملتنى فى طريق ريفى عامر بالمناظر الخلابة ، إلى أن وصلت دار بلنت ، الذى قابلته بترحاب نابع من القلب.

بعد ارتداء الملابس، هبطت الى حيث يقدم طعام العشاء ، فقدمنى مضيفى الى " هيلرى بيلوك " وزوجته ، ومما أثار دهشتى ، أننى حيث كنت أرتدى بدلة العشاء الرسمية، ارتدى بلنت زى شيخ ، جبة زرقاء معجبة وقفطان، لا شك أن مضيفى قصد الى إضفاء شرف خاص على .

على أية حال ، كان لقاء العشاء ناجحا ، " بيلوك " يستطيب كثيرا رواية الملح والفكاهات، وزوجته تشارك فى الحديث أحيانا. وبلنت مضطجع بكل ما للزعيم الشرقى من رباطة جأش.

فى صباح اليوم التالى ، طاف بى مضيفى على أرجاء ممتلكاته ، ومن بينها اصطبلات تضم خيوله العربية . وبعد تناول الإفطار ، كان لنا حديث طويل ، روى فيه بلنت تجاربه فى مصر، وجهوده خلال حرب ١٨٨٢ وبعدها، حيث تأتى له أن ينجح فى إنقاذ عرابى باشا من الموت، مستعينا بمحام إنجليزى مهم، حيث كان الخديوى توفيق حريصا على إعدام عرابى .

استمر الحديث من بعد الإفطار الى وقت الغداء ، واستأثر بلنت بالنصيب الأكبر. لا شك أن

بلنت مخلص فى موقفه من أجل تحرير مصر، وأعجبنى فيه حرصه الشديد على أن يغدو القوة الكامنة وراء العرش ، فليس أمتع من أن يجد نفسه محاطا بمجموعة الطلاب المصريين ، يروى لهم أفكاره الطوباوية عن كيف ينبغى أن تحكم مصر. بلنت دوجمائى وحالم معا. إنه شاعر بلا نظام جيد ، وهو ليس بالرجل العملى ، بأى حال من الأحوال. لقد نجح فى خلق أعداء له أكثر مما نجح فى كسب أصدقاء .

عندما جلس حلمى باشا على عرش مصر، ظهر بلنت فى الواجهة بسرعة. حلمى شاب ، على نصيب كبير من جموح الشباب الذى يقترن بفقدان بين للتجربة والبصر بالأمور. وهذا مادفعه لانتقاد كتشنر فى تنظيمه وتصرفه بالجيش المصرى الذى كان تحت قيادته فى السودان.

إنه لسر مكشوف القول بأن " هيكتورماكدونالد " هو العقل المفكر الكامن وراء تدبير حملة السودان ، ولولا مساعداته الفعالة ، لمرت سنوات قبل أن يتسنى قهر المهدى. ومما يجدر ذكره أن كتشنر أجبر على اصطحاب ماكدونالد معه إلى جنوب أفريقيا، حيث حل اللورد روبرتس محل الجنرال بولر، وإن كتشنر يعرف أنه لا يتحلى بالكفاءة، ويعرف أنه لايستطيع التخلى عن ماكدونالد . ولكن انتقاد حلمى لكتشتنر، وإن بررته الظروف على نحوما، يبدو غير ناضج ووليد توجيه فاسد . إن كتشنر الذى لا يغفر إساءة، غدا على نحو مباشرة أداة حاسمة فى إزاحة حلمى باشا (من العرب) ، وأدى تهديده بتحطيم ماكدونالد إلى انتحار ذلك الجنرال .

فقدان كتشنر للكفاءة بان خلال الحرب العالمية . وإن جريدة " ديلى ميل " التى خلقت كتشنر ، لم تتوان عن فضح حقيقته . ولهذا يكون من قبيل الافتراض الطبيعى ، أن عباس حلمى لم يكن بعيدا عن الصواب فى نقده .

ماكان بلنت على علاقة ود مع كتشنر ، ظن أن حلمى الشاب سيقبل آراءه الإدارية ، غير أن الخديوى (حلمى) الشاب عليم بتأثير اللورد كرومر على وزارة الخارجية البريطانية فى لندن، ولهذا رأى من الحكمة أن يتحرك بحذر، وبلنت الذى لم يكن تقديره لكرومر يقل عن تقديره لكتشنر، حاول حض المليك الشاب ، على اطراح قنواته الدبلوماسية مع دار المندوب السامى البريطانى فى القاهرة. ولم يجد استجابة من حلمى . وعندما تبين لبلنت أن مشيئة

الخديوى معارضة له ، قال لحلمى إنه أبله ، ونفض تراب مصر عن حذائه. وعاد إلى بيته فى لندن، يغض من شأن المليك الشاب الذى أحسن التصرف فى الأوقات الحاسمة .

ليس بلنت بدبلوماسى عملى ، وإن تدرب على الدبلوماسية ومارسها فى اليونان، حيث يروى تجربة طريفة مع ممتحنه فى اللغة اليونانية الحديثة. التى لم يكن بلنت يعرف شيئا عنها ، وإن يكن مثل تلاميذ المدارس العامة، على معرفة باللغة اليونانية القديمة.

ما أن وصل الممتحن وهو قس من الكنيسة اليونانية الكاثوليكية، حتى بدأ بلنت يتحدث عن هومر، وشخصيات الإلياذة ، حديثا سطحيا، مستشهدا بفقرات مشهورة من أجل إحداث تأثير ، مما سر القس الذى أعطى بلنت الدرجة الأولى ، فى اللغة اليونانية الحديثة. ما أعظم الدبلوماسية وأعجبها.

إن بلنت فى كتاب " التاريخ السرى لمصر" ، أثبت أنه دارس حصيف للأحداث التى أدت الى الحرب المصرية عام ١٨٨٢ ، أو وقعت خلالها. ولكنه لأسباب تتصل بالمزاج، لم يكن مناسبا لأن يؤدى الدور الذى رغب فى أن يؤديه بشأن الوقائع السياسية المصرية. إن رغبته المخلصة فى تحقيق الاستقلال التام لمصر، لم تكن موضع شك ، وإنه مثل كل أصحاب العقول النيرة من الملمين بالقضية المصرية، يعرف أن خطأ كبيرا قد ارتكب فى حق مصر. وأن وزارتى الخارجية فى بريطانيا وفرنسا تصارعتا فى تآمر ضد بعضهما بعضا، قبل أن يتسنى للورد بيكولسفيلد تأمين أسهم الخديوى إسماعيل فى قنال السويس. إن المراقبين للأحداث، التى أدت الى حيازة تلك الأسهم، لا يعرفون أن مصر ستخضع لسيطرة من يمتلك أكبر قدر من الأسهم فى القنال.

وهذه الحقيقة تؤكدها الوثائق الرسمية المضمنة فى كتاب " فى بلاد الفراعنة " .

لقد ثبت أن الممتلكات الخاصة بالخديوى إسماعيل متواضعة، ولا تكفى لتغطية ديونه، ورغم ذلك تحملت الأمة المصرية أعباء تلك الديون التى بددها دكتاتور غير مسؤول، بصورة خاصة. وقد أطاحت به دبلوماسية فاسدة يتحمل وزرها الشيخ قادستون. ولأن قلادستون هو حامى الوعى المستقل الخارج على الكنيسة، صار الإسلام لعنة فى عينه، ولأن خصمه بنجامين دزرائيلى يدعم المكانة الدينية لسلطان تركيا رغب قلادستون فى الإطاحة بالسلطان عبد

الحميد، خارج نطاق أوروبا، غير آبه بالقدر الكبير من جماهير المسلمين الذين يعيشون داخل الإمبراطورية البريطانية، والذين ينظرون الى سلطان تركيا على أساس أنه زعيم دينى لهم.

إن بلنت الذى كان عضوا فى الدوائر الدبلوماسية يعرف خدع تلك المهنة ، ولا يتردد فى كشفها. ولهذا صار مبغوضا، وإن يك لا يتحلى بالحصافة وسعة الحيلة اللتين يتميز بهما الدبلوماسى الحقيقى . ماكان شخصا من السهل التعامل معه ، لمزاجه الدكتاتورى الذى عزل أصدقاء لمصر، كان من المتوقع أن يعودوا على القضية بنفع عميم ، كان بلنت يبغض النفاق ، فى أى صورة من الصور. وكان محطم الأصنام دائما.

إنه ينتمى الى عائلة من العائلات العريقة القليلة التى تدين بالكاثوليكية فى إنجلترا، ولرفضه أى مظهر من مظاهر الكبح، يروى أنه مات مسلما.

لو عاش لسره تحقق الاستقلال الآن فى مصر، ومن المحتمل جدا أن يصر على تحقيق الاستقلال التام، وإلغاء الامتيازات الأجنبية، فى الحال، وضمان سيادة مصر على القنال، وسيكون عناده نافعا، ولكن سيصر بعناد. هذا هو منحى بلنت .

لقد مات ويلفرد إسكاون بلنت ، ومات آخرون عملوا من أجل قضية العدالة . ومصر ذات الشعر الموخط بالشيبة، التى عاشت من بعد حضارة اليونان وروما، ماتزال سائرة ، بينما يحدق أبو الهول المهشم الخالد الى المستقبل فى وقار،فى حين يتبختر بعض الناس البدائيين فى زهو ومجد لبرهة من الزمان، ثم يغرقون فى فراغ العدم الذى يستأهلونه ! .

٢١- الفصل السابع عشر
مجلة أفريكان تايمز أند أورينت ريفيو

كومت ٢٣/ ١٩٣٧/١٠

عرض آ.ز أوراج فصول كتابي عن تاريخ مصر، على " هولبروك جاكسون " محرر مجلة "تي . بي . ماجازين "(٤٠) التي كانت في طور الإعداد يومئذ. فتحمس للفصول ورغب في شرائها لنشرها في مجلته، ولم أر من اللائق أن أتصرف في الفصول على ذلك النحو، لأن ذلك يعني إلحاق ظلم باستانلي باول الذي وقعت عقدا معه. ولهذا أعددت مقالة خاصة عن مصر، ظهرت في العدد الأولى من تلك المجلة القصيرة العمر، ولقيت قبولا من "أكونور".

ونشر جاكسون مساهمة أخرى ، كتبها تحت عنوان : من أعلام الملونين السود " في الفنون والآداب ، تناولت أعلاما مثل كولردج - تايلور وبوشكين ودوماس وتيرينر الفنان الأفروأمريكي الذي لمع اسمه في دوائر الفن بباريس .

وعن إعداد المجلة عثرت بالمصادفة على لوحة لإسكندر دوماس . وهالني شبهه الواضح لهولبروك جاكسون الذي يبدو وكأنه توأم لدوماس . واقتضت هذه الواقعة إعداد مقالة عن الشخصيات المتشابهة ، ولكن انشغالي بأعمال أدبية أخرى، حال دون إنجاز ذلك الموضوع.

في هذه الآونة ، وقد استلمت ثلاثين جنيها استرلينيا ، لقاء كتابي عن تاريخ مصر، أهملت عمل مكتبي ، وسخرت كل طاقتي لإكمال الكتاب، مما أنضب معيني من المال ، ولهذا قبلت دورا هامشيا في مسرحية " كيسمت " من إخراج " جورج دانس " ، ستقدم عروضها في جولة خارج لندن .

وإبان العروض الاستعدادية ، اتصل بي أحد معارفي ، وهو طالب في كلية القانون من غرب أفريقيا، وأخبرني أن صاحب شركات تجارية من غرب أفريقيا واسمه " جون إلدرد تايلور"[٤١] ، يود استشارتي بشأن دورية أفريقية شهرية، يزمع إصدارها.

قابلت الرجل الذى أقام مكاتبه فى جناح كامل بلندن ، وحدثنى عن حرصه على أن أقوم بتحرير مطبوعته التى ستحصر اهتمامها فى النشاط التجارى بغرب أفريقيا. وأخبرته بأن لا علم لى بالتجارة، وأن درايتى قليلة بغرب أفريقيا ، وأن المطبوعة الوحيدة التى يمكن أن أتعامل معها، هى التى ستعنى بالقضايا الاجتماعية والسياسية فى أفريقيا والشرق بوجه عام، وأننى قبلت عرضا لأداء عمل مسرحى ، وسأتغيب عن لندن أربعة أو خمسة أشهر. وأنه إذا رأى أن اقتراحى ذو قيمة، فسنناقش الأمر مناقشة جادة بعد عودتى من الجولة. وأصر تايلور على مناقشة الأمر فى الحال،وقمت بوضع الخطة، وكان كاتب الاختزال الخاص بتايلور يدون ما أقول ، ثم عدت الى العروض الاستعدادية ، وذهبت فى الجولة.

عند عودتى الى لندن، قابلت تايلور، واكتشفت أنه حاول وضع خطتى موضع التنفيذ إبان غيابى، ولأن لا خبرة له بالشؤون الصحفية والأدبية ، باءت جهوده بالفشل. هذه الجهود المجدية التى بذلها دون أن تعود بنفع ، جعلتنى أتعامل معه بحذر شديد. وكان قد كلف فنانة تشكيلية بتصميم الغلاف ، فجاء تصميمها للغلاف فجا يضم امرأة أفريقية ، تحمل غلة على رأسها، وفى الخلفية شجرات نخيل متناثرة.

قلت له إن ذلك التصميم الرائع ، يشمل مشابه كثيرة من غلاف كتيب تبشير ، وأنه لا يصلح لمطبوعة موجهة لمخاطبة الأفارقة والشرقيين . وأننى سأحصل على تصميم فنى للغلاف، يجسد فكرة الاتحاد بين آسيا وأوروبا وأفريقيا، يتضمن ثلاث شابات ذوات أجنحة، تحيط أيديهن بالكرة الأرضية التى كتب فى وسطها كلمة " الاتحاد ".

وبعد إعدادى مسودة التصميم ، ذهبت الى صديقى ، " والتر كيرين " الفنان ، وبعد أن عرضت عليه المسودة، أوضحت له هدف المطبوعة، وطلبت منه مساعدتنا بإعداد التصميم، ورحب " كيرين " وأبدى استجابة للطلب، ولكن ، بما أن لى شريكا، وأن قلة من الناس تعرف قيمة الأشياء التى تقدم مجانا دون مقابل ، قال إنه سينجز التصميم مقابل عشرة جنيهات . قبلت عرضه الطيب ، وعدت إليه بعد أيام قليلة ، واستلمت التصميم ، ودفعت له المبلغ من جيبى الخاص. وسارعت بحمل التصميم لمتخصصين فى الحفر، لإخراج التصميم فى شكله النهائى القابل للطباعة، وكان هذا التصرف موفقا، كما سيبين ، فيما بعد . ثم أعددت نشرة

عن المطبوعة، وعملت على طبعها. وقابلت " د. إسبيلر" الذى أشرف على " مؤتمر الأجناس " وحصلت منه على قائمة بأسماء أعضاء المؤتمر، ووافق على تولى إرسال النشرة وقسيمة الاشتراك إلى عناوين الأعضاء .

وبعد أقل من شهرين، وصلنى أكثر من مائتى اشتراك من بريطانيا والخارج، وإجابات على استمارة الاستبيان الذى أرسلته ، من الآتية أسماؤهم:

السير كريشنا جوبتا، كونتس وارويك ، هـ.ج ولز ، السير أوليفر لودج ، أيرل ليفتون ، صاحب القداسة م . سيرى نانيساراشيرا (الكاهن الأعظم فى سايلون) . تونجو تاكيبى (بوفسور فى الأدب ، جامعة امبيريال ، اليابان) والتر كيرين . هولبروك جاكسون ، و.ل.كورتنى (محرر مجلة " فورت نابت ريفيو) هـ. و . ماسيننام (محرر مجلة " ناشن "السير سيدنى أوليفر، ت.ب . أوكونور. د. بوكرت . واشنطن ، آ.ر. أوراج ، (محرر مجلة "نيوآج" جان فينون . أوبركتر (مجلة (لاريفيو) الفرنسية بباريس) س. كولردج تايلور وآخرين .

أسئلة الاستبيان :

١) هل ترى أنه سيروق للرأى العام البريطانى أن تصدر صحيفة من قبل الملونين - الأفارقة والشرقيين - تعكس آراءهم وتبين أهدافهم ورغباتهم.

(٢) هل تعتقد أن هذه الصحيفة قادرة على ترقية أسباب السلام والوئام بين الشرقيين والغربيين ، بين الحاكمين والشعوب الخاضعة لحكمهم ، وأنها ستساعد على قيام تفاهم أحسن من ذى قبل .

معظم الإجابات بدت مشجعة، وقليل منها متشائم.

وفى الوقت نفسه ، نسق تايلور لطبع " الريفيو " ، بعد أن سلمته ماورد من اشتراكات ، وأعطيته ماوصلنى من مواد ، علاوة على ما أعددته بنفسى وبعد تأخيرهم، صدر العدد الأول من مجلة " أفريكان تايمز وأورينت ريفيو" فى أول يوليو ١٩١٢م.

٢٢-الفصل الثامن عشر : تغير الحال

كومت ١٩٣٧/١٠/٣٠

قدمنا مواد العدد الثانى من المجلة إلى الطابع ، وبعد عشرة أيام لم تصل البروفات الينا، ولما قابلت الطابع أخبرنى أن " تايلور" لم يسدد تكاليف طبع العدد الأول. وأنه لن يطبع مالم تسدد التكاليف أولا.

وكان السيد المحترم: كيسلى هايفورد من ساحل الذهب (غانا) والمحامى السيد فراتردوف، ود. سابارا من لاجوس ، والسيد سى، و. بيتس من سيراليون ، موجودين فى لندن، إبان تلك الآونة.

اطلع هؤلاء السادة على العدد الأول ، وعقدوا اجتماعا فى الحال، بمسكن المرحوم المحامى روتيمى آلادى من لاجوس ، وقرروا أن المطبوعة ذات منفعة عظيمة لغرب أفريقيا، وقد أعجبهم التقرير الذى نشرناه عن حادثة جلد اثنين من كتبة حكومة غرب أفريقيا، هما تايلور وهال، فى زاريا، لأنهما كان يلعبان كرة القدم، ومر بهما الحاكم البريطانى وهو يمتطى فرسه ، ولكن أيا منهما لم يؤد التحية للحاكم ، وذلك بنزع غطاء الرأس . وجاء " روتيمى ألادى " الى بيتى، وأخبرنى عرض السادة المذكورين من قبل على مشاورتى ، وأبديت ترحيبى بتلقى آرائهم ، وعقد اجتماع ببيت المحامى دون ، فى مساء اليوم الثانى ، حيث علمت أن ارتباطى " بإلارد تايلور" سيجر على " الريفيو" مصائب كثيرة فى غرب أفريقيا، لسوء سمعة تايلور هناك. وبعد نقاش طويل ، نسقنا لإنشاء شركة تهىء للريفيو أن يقف على أسس مالية صلبة. واتصل دوف بمحام الجليزى ، ذى أواصر عملية معه، حيث جهزت مواد المشاركة، وبعد ثمان وأربعين ساعة، تأتى تسجيل الشركة الجديدة.

عندما انهمك الآخرون فى استكمال شؤون الشركة. ذهبت الى " باتنت أوفيس" وسجلت الغلاف الذى دفعت لوالتر كيرين لقاء تصميمه ، واستأجرت المكتب رقم ١٥٨ فى شارع

الصحافة: فليت استريت ، وعندما شرع فى طلاء المكتب وإعداده ، ذهبنا مع د. إسبارا إلى تاجر أثاث مستعمل، وحصل على قدر ضرورى من الأثاث.

وقابلت الطابع، وسددنا ماله من ديون فى عنق تايلور، وبعد أسبوع انتقلنا الى مكتبنا بفليت استريت . وبعد تسديد ديون الطابع المستحقة على تايلور، وصلتنا البروفات، ولكن التأخير، عطل صدور عدد أغسطس فى ميعاده ، فلم يصدر إلا فى ١٥ أغسطس ، ومن ثم صارت مطبوعاتنا تصدر فى منتصف كل شهر من بعد.

تايلور أرغى وأزبد، وهددنا بجرنا الى ساحات المحاكم، ولكن جون بول ، وتروت، أنكرا عليه ما ادعاه ، واستغرقته مشاكلة المالية . ولا سيما بعد أن أصر " هوراتيو بوتوملى" ، على أن يدفع له تايلور مبلغا كبيرا من المال، كسبه تايلور من مشاركتهما ، عن طريق الرشوة والاحتيال.

عند مقابلتى لتايلور أول مرة ، قبلته حسب تقويمه هو لنفسه ، لأن من مبادىء حياتى أن أكون حذرا ، بدون أن أغدو شاكا مرتبا . ولقد عرفت التآخى المزيف فى مرات قليلة، ولكن جون إلدرد تايلور بسلوكه الأملس المنافق ، يستطيع أن يؤمن لنفسه معاشا مدى الحياة من قبل ممثل الاتهام الذى يترافع ضده. كنت حاضرا ، عندما داهن محاميا من غرب أفريقيا حتى حصل منه على مبلغ مائة جنيه، من أجل عملية تشييد فى شركة النقل المنحلة. معجزة ماكنت أصدقها ، لولا أننى رأيتها بعينى، وقد اتضح أن هذه الشركة أكثر مشاريع تايلور إثارة للريبة.

من ذكرتهم آنفا ، حصلوا على أسهم شركة " الريفيو" ووعدوا بدفع أصدقائهم فى غرب أفريقيا لشراء الأسهم، ولم يكن أولئك الأصدقاء فى مستوى حماس المؤيدين الأصليين ، ولأن المعلنين يزورون من الإعلان فى صحيفة هدفها الأساسى تقديم عون سياسى وتجارى للشعوب غير الأوربية ، بدأت شركة " الريفيو" تسير فى طريق التصفية، وغدوت مضطرا لإغلاقها ، أو تحمل عبئها وحدى .

وصلت شكاوى شتى من المشتركين الذين يريدونها أسبوعية، لأن الأحداث تبلى قبل أن تصل المجلة إلى أيديهم، وهكذا صارت المطبوعة أسبوعية فى مارس ١٩١٤م مما أدى إلى

زيادة نسبة التوزيع ، ولكن لم يؤد إلى زيادة العائد المالى من الإعلان. بالرغم من أن المجلة موجودة فى صالون أى سفينة ركاب تغادر انجلترا ، فضلا عن المشتركين .قبل تغير الحال جرت واقعتان :

كنت أفى بالتزامى المالى نحو الطابع، وسلمته المواد الخاصة بعدد عيد الميلاد، عندما طالبنى الطابع بدفع قيمة الطبع مقدما ، قبل الشروع فى طبع العدد الخاص. واحتججت ولكنه عنيد ، مدعيا أن شريكه فرض الشروط الجديدة، لأن هناك ديونا كثيرة، يظهر أنها هالكة.

أخبرته بأننى لن أرضخ لشروطه، وبعد ساعة من معارضته ، نسقت لطبع عدد عيد الميلاد ، والعدد الشهرى، ولحسن الحظ تعودت على الاحتفاظ بنسخ من المواد ، تحسبا من الضياع أو التعطيل، وإن لم أكن مرتاحا من قرار الطابع.

وبعد أيام زرت النادى الليبرالى القومى ، وقابلت صديقا أخبرنى بأنه سمع محادثة قبل أيام، بين طابع المجلة، وصاحب مصانع صابون ذى علاقة بغرب أفريقيا. وكنت قد اعترضت على صاحب المصانع ، أنه حصل على قطعة أرض فى بلد بغرب أفريقيا تحت الحماية البريطانية فى قلب بساتين شجر النخيل . مما حرم المواطنين من حق الطريق الذى يستخدمونه فى الوصول الى السوق، مما اضطر المواطنين بسلك طريق يبلغ عشرة أميال حول قطعة الأرض، للوصول الى السوق ، فى وقت متأخر، لايتيح لهم بيع محصولهم من شجر النخيل لقاء سعر مناسب .

والرجل صاحب المصانع يشترى بسعر أقل بكثير من سعر السوق . ووصلتنى شكواهم، وكتبت مدافعا عن أصحاب المعاناة، ونشرت لوحة كاريكتورية سيفهمها المواطنون هناك، ولا تنطوى على أى موقف ودى نحو صاحب المصانع. ومن ثم نشأ غضبه وجاءت جهوده لإغلاق المجلة بتأليب الطابع.

ولما باءت جهوده بالفشل، أرسل إلى ضابطا متقاعدا ، عرض على مبل ۳٬۰۰۰ جنيه استرلينى ، لمساعدتى فى عملى العظيم من أجل مواطنى غرب أفريقيا.

وبارتياب فى هذا العرض المشهود سألت :

"وماذا يريد منى السير ... فى مقابل ذلك ؟!

ارتبك الضابط ، وفقد رباط جأشه . فسألنى كيف عرفت أننى مرسل من قبل السير... ؟

"لأننى لا أعرف شخصا آخر يهتم بمجلتى الى حد الحرص على مساعدتها، بهدف أن يحصل هو على مساعدة ". هكذا جاء ردى .

قال الضابط : " لا أوافق ، إن رئيسى يتوقع معاملة بالمثل "

قلت : " ما أخشاه أننى لست قابلا للبيع. إن كان رئيسك يرغب فى العون ، ومستعدا لدفع ۳٫۰۰۰ جنيه ، دون أن يربطنا بحبال ، وأن يدفع للمزارعين سعرا مناسبا لمحصولهم، فإننى أستخدم تأثيرى الفقير فى جعلهم يمكنون رئيسك من شراء محصولهم، ولكننى ، كما قررت من قبل ، لا أباع ".

شكرنى الضابط على صدقى ، ووعدنى بنقل قرارى إلى رئيسه، وحسب توقعى ، لم أسمع عن العرض المشهود من بعد، ولكن صاحب المصانع، حول مصنع الصابون من تلك المنطقة، لأنه لايتحصل على محصول كاف من ثمر شجر النخيل، فلقد فرض المواطنون مقاطعة فعالة ضده ، دون أى توجيه منى .

شيئا فشيئا ، غدا مكتب " أمريكا وأورينت ريفيو" مثابة معروفة عالمية، وملتقى قضايا المصلحين ، مما يقتضى وجود شخص حكيم صلب متوازن، لتجنب السقوط فى الهوة التى يحاول بعض غير المسؤولين جرنا اليها، بسلوك دروب إثارة مريبة .

إن صديقى البالغ الوفاء ، المرحوم " فرانك هاف دونيل " محرر الشؤون الخارجية فى صحيفة " آوت لوك " أحسن إلى ، حين أخبرنى بأن وزارة الخارجية البريطانية ، ومكتب المستعمرات ، والمكتب الهندى ، كلها تسلط عيونها على ، ولم أشعر بخوف ، لأننى أدين بالكثير لبريطانيا، من ذلك أذكر الأصدقاء المخلصين وما أتيح لى من تعليم حسن فلا يمكن أن أقدم على ارتكاب عمل مثير للحيرة، أو يدل على نكران للجميل.

إننى أمنح الخصائص الرفيعة للشعب الإنجليزى قيمة عالية ، من أجل ذلك .

٢٣- الفصل التاسع عشر
فرانك هاڤ دونيل أوف دونيل

كومت ٦/١١/١٩٣٧

التعرض " لفرانك هاف دونيل " يذكرنى بأننى قابلته أول مرة ، إبان الثمانينيات، من القرن التاسع عشر، كنت أقف فى بهو مجلس العموم البريطانى ، انتظر السير شارلس ديلك ، حاملا معى خطاب تقديم موجه إليه، عندما مر رجل ذو ملامح نبيلة ، له انحناءة طفيفة، ونظر إلى . كان اليوم حارا، وكان قبعته مثبته فى مؤخرة رأسه، كاشفة عن جبهة عريضة بيضاء . له شارب كثب يغطى شفتين حازمتين ، وذقن واسعة وحازمة. عينان واسعتان زرقاوان ، ذواتا حول طفيف . ويرتدى نظارة، نزعها عن عينيه، وانحنى لى . وبدا مقبلا على التحدث ، عندما رن الجرس ، وأقبل عضو مسرع ، مضى معه إلى الداخل، وأيديهما متشابكة .

سألت أحد العاملين فى المجلس عن الرجل، فقال لى هامسا

" إنه فرانك هاف دونيل العظيم، أحسن خطيب فى البرلمان، ورجل حقيقى ، فى أى ذرة من تكوينه ، وأكثر أعضاء مجلس العموم أناقة .

وجاءنى السير شارلسن ذلك ، وهو يحمل الاستمارة التى أرسلتها إليه فى يده ، وتحدث معى ، ولم يتح لى من بعد أن أحظى بسماع عملاق وستمنيستر، قابسا منه الحكمة .

وإن كلام العامل لصادق، فى تقويمه لدونيل الذى كان الخصم الأول " لبارنيل " فى المجلس. إن له لموهبة فى الخطابة على نحو مشهود، وإن امتلاكه ناصية توجيه الطعنات المجتاحة ، لتجعل قلادستون يهابه فيما أعتقد. وهو ذو موقف صلب من قضية منع القوميات الصغيرة حقها من الحرية، وبطبيعة الحال ، حين عرضت قضية احتلال مصر، كان أهم مدافع عن مصر، ومن الغريب ، أن بلنت فى كتابه عن التاريخ السرى لمصر، لم يذكر شيئا عن مواقف دونيل بشأن الاحتلال فى مصر، ولقد أكد لى دونيل أنه كان العامل الأساسى فى إنقاذ عرابى باشا

من الإعدام . وهذا ما أثبته هو فى نص ثابت مضمن فى كتاب له صدر عام ١٩١٤.

بعيد رؤيتى لدونيل فى مجلس العموم، تقاعد من العمل البرلمانى ، ومضى إلى أوربا، متخذا من فينا مركزا لنشاطه ، حيث قدم أعمالا صحفية ممتازة. ومن ثم لم يتح لى أن أقابله إلا فى عام ١٩١٣ ، عندما عقدت جلسات جمعية التضامن مع تركيا فى أدريانبول. فى قاعة كاكستون ، بوستمنيستر، حيث ترأس الكونيل آوبرى هربرت الجلسات ، باقتراح منى ، وعضده دونيل واللورد نيوتون واللورد ليمينجتون .

وفى هذه المناسبة ، طلب آرثر فيل ، سكرتير الجمعية الانجليزية العثمانية بلا منازع ، ممن يرغبون فى تأييد المحافظة على سلامة الامبراطورية التركية أن يرسلوا أسماءهم الى مكتبى فى أقرب وقت ، بغرض تأسيس " الجمعية العثمانية " . كان دونيل من أوائل الذين أرسلوا أسماءهم ، مع خطاب قوى التعاطف . وبعد فترة صار أحد نواب رئيس الجمعية الانجليزية العثمانية، وظل نشطا فى الحركة حتى وفاته.

دأب على زيارتى فى منزلى ، حيث أتيح - لى على الأقل- مناقشات جد ممتعة ومثمرة. وهو الذى حفزنى لكتابة خطاب فى الصحف الإنجليزية عن قضية " كيكويو" عام ١٩١٤ ، فى ذلك الخطاب الذى تداوله الناس فى الهند منسوبا الى خواجه كمال الدين الذى حثثته لتوقيع الخطاب معى ، ولكنه لم يطلع على الخطاب قط إلا بعد نشره فى الصحف.

كان دونيل معينا فى تنظيم الجهود الهندية الأولى بشأن الحكم الذاتى ، وإن ماحقق من نجاح يرجع بدون شك إلى نصائحه. كان أكثر ثقة فى الهندوس منه فى مسلمى الهند ، لأن الهندوس فى زعمه أكثر نفاذا، وأشد حرما، وأقل تنافسا على الأمور الصغيرة من المسلمين . وكان يبدى إعجابا عظيما برجال مثل : بابى سورريندرو، ناث باندرجى ، محرر صحيفة بنغالى ، ودادابى ناروجى . ولقد حدثنى مرارا ، أن مستقبل الحكم ، يوم يتحقق الحكم الذاتى، سيرتبط بهؤلاء الرجال.

كان دونيل حريصا على إنشاء مكتب تنسيق متخصص فى الشؤون الأفريقية والشرقية فى لندن. وهو يتفق معى فى أن معظم المظالم التى ألحقها المسؤولون الإنجليز بالشعوب الملونة ، إنما تعزى للجهل ، لا للشراسة . ومن ثم أسس مكتبا مركزيا فى عاصمة الإمبراطورية

البريطانية ، صار يذيع التقارير عن الأخطا . البروقراطيه، ويخدم قضية التوعية . ويكرس الانفراج السياسى . ومن أجل هذا الهدف كان حبر معين لى فى تأسيس منظمة العدالة التى أسسناها أنا وهو وسى . ف. ريدر من ليدر

وقدم دونيل الخطاب الافتتاحى للمنظمة، ونشر مقالات شتى عنها فى العدد الأسبوعى من المجلة .

٢٤-الفصل العشرون : محمد فريد بك

كومت ١٩٣٧/١١/١٣

صديقى محمد فريد بك القائد الوطنى المصرى ، مثل دونيل معنى بالعالم الآخر، وإنى لفقير مدقع بخسارة أحد أصدقائى المقربين . وإنى لأكن له احتراما عاليا، وإعجابا عظيما، ليس لأنه قائد فحسب ، بل لفريد بك الإنسان ، وإن يك هناك شخص واحد يستحق نهاية أفضل على يد القدر، لكان محمد فريد .

قابلته أول مرة عام ١٩١٤م، وقد رأيته من قبل فى صحبة مصطفى باشا كامل ، يحيط بهما الصحفيون . فى مقتبل أيام الصحوة الوطنية على عهد مصطفى باشا كامل . حين بدا فريد حملته الصحفية فى أوربا، وكان الفاسدون والشرهون من الصحفيين الأوربيين مستعدين لكتابة مقالات ساطعة تعبر عن وجهة النظر الوطنية فى مصر، لقاء أجر معلوم.

رأيته من بعيد ، وانتظرت فرصة لقائه، إلى أن تسنت عام ١٩١٤، حين زار فريد انجلترا ، لحضور مؤتمر القوميات والشعوب المستعمرة. فرأيته ، فى إبان تلك الأيام ، كان فريد قد أنفق ثروته الضخمة من أجل خدمة استقلال مصر، وأصبح متجولا جوابا للقارة الأوربية . وهو يومئذ - وحتى وفاته - رئيس الحزب الوطنى المصرى ، واللاجىء السياسى ، وظل هائما فى المنفى ، بعيدا عن أرض وطنه.

حكم عليه عام ١٩١١ بستة أشهر سجنا. قضاها فى السجن، حيث سمح له بمطالعة كتب الأدب العام، وحرم من قراءة الصحف والمؤلفات السياسية. ثم قدم للمحاكمة فى عام ١٩١٢ ، لأنه كتب كلاما مثيرا للفتنة، وتحسبا من مغبة إدانته فى المرة الثانية، رأى أن يغادر مصر.

وصدق توقعه، فقد أدين غيابيا وحكم عليه بالسجن مدة ثلاث سنوات، وتتضمن أداء أعمال شاقة كخياطة الملابس وصنع الأحذية. إبان هذه المرحلة. تنقل بين تركيا وفرنسا وألمانيا

والنمسا وسويسرا التى توفى فيها. ولأنه أدين فى جرم سياسى ، فقد سمح ببقاء اسمه مدونا بسجل المحامين فى المحكمة العليا بالقاهرة .

عند زيارته لندن ، عام ١٩١٤ ، أقامت جمعية أبى الهول مأدبة على شرفه ، يوم ٢/٢١ قالت عنها جريدة " مانشستر فارديان إنه احتشد فيها خليط من الناس يمثلون القومية المصرية، من الترك والعرب ، وأناس يجرى فى عروقهم الدم السودانى . وقوم يحملون الملامح الثابتة التى نراها على جدران الكرنك والأقصر. أناس من الشرق ، والزنج. والرمز العام الذى يوحدهم جميعا هو الطربوش الذى يرتديه معظمهم، وهو حقا حشد متنوع، يثبت شعبية الرجل، يشمل كل مناحى الأديان فى مصر، فعلاوة على المسلمين ، نجد اليهود والأقباط... وامتاز الرجل بقدر من المرح ، حببه الى كل من عاشروه

وقد تشرفت بدعوة الرجل الى مأدبة فى مسكنى حيث جرت بيننا أحاديث شتى متنوعة إنه يعرف قليلا من الإنجليزية ، إنه يتحدث الفرنسية مشوبة بالإنجليزية . وعلى مائدة العشاء، ذات مساء أمام جمع من الطلاب الجامحين ، قرأ أحد الشبان قصيدة عربية ، كان يريد لشاعرة من معارفى ، أن تقوم بترجمتها الى الإنجليزية شعرا، فقال فريد " لا لا " ، يامدام لا تفعلى ، إنها رديئة جدا" مما ينم عن أنه غير متعاطف مع الأعضاء المتطرفين فى حزبه. إنه يؤمن بالمناهج الدستورية، وهو محام قدير يدعو الى الحوار، ولا يدعو الى العنف .

فى تلك المناسبة، أعددنا مع مصطفى عمر طعاما مصريا صميما، هو خليط من الأرز والطماطم والفول السودانى والسلطة وتمر الصنوبر، مع الدجاج والبامية. استطاب فريد الطعام الذى ذكره بالوطن ، وعندما ألححنا عليه أن يزيد قال " لا زيادة " من فضلك ، إذا ازددت فذلك يعنى أن أقتل نفسى".

إن فريد القائد ، لا يمتلك ماكان لمصطفى كامل من منحى نيزكى ، ومغناطيسية ومجازفة ، ولا شك أن فقدانه المغناطيسية ساعد على انقسام الحزب الى شراذم بعد وفاة القائد العظيم.

كان مصطفى كامل قادرا على ضبط الحماسة الدينية عند عبد العزيز جاويش ، غير أن محمد فريد لم يستطع ، أو لم يرغب فى كبح جهود زميله الحسنة المقصد التى لا تخلو من طيش ، بالرغم من أن محمد فريد لا يوافق على الدعاية الإسلامية التى يقوم بها جاويش ،

لأنها لا تناسب مصر. حيث ينبغى أن يوضع اعتبار خاص وجاد للأقلية ذات التأثير الكبير، متمثلة فى اليهود والأقباط.

هذا الضعف فى تكوين شخصيته ، وما فطر عليه من خلق حسن، هما اللذان أوقعاه فى مشكلة مع المندوب السامى البريطانى ، لأنه كتب مقدمة لديوان شعر رخو نظمه بالعربية، شاعر وطنى ذو شأن ضئيل . وقد نشرت تلك القصائد غير الراقية فى " اللواء " وغيرها من صحف الحزب الوطنى ، دون أن يحدث أى رد فعل من قبل السلطة البريطانية فى القاهرة. مما يدل على أنهم يبحثون عن سبب يسوغ لهم البطش بفريد بك ، الذى كان محبوبا، لما اتسم به من إخلاص لا شك فيه ، ولتضحياته المالية من أجل الحزب الوطنى .

ولعلى لا أستطيع التعبير عن موقفه السياسى بأحسن مما ورد فى تقريره الذى قدمه فى محاضرة عامة، نشرته صحيفة " مورنينج بوست " يوم ١٩١٤/٢/٢٣ عدما تحدث فريد بك بالفرنسية ، قائلا إنه يأمل فى أن يقدم محاضرة باللغة الإنجليزية فى العام القادم، إن الاستقبال الذى لقيه ، أثر فى نفسه.

إن الدور الذى أداه ليس مهما، ولكنه يستطيع أن ينسب الى نفسه ، أنه بطل ، وأنه مستعد ، إن اقتضت الحاجة، للتضحية بحياته، من أجل ارتقاء وطنه. الفكرة التى يمثلها هى الاستقلال التام لمصر من أى احتلال أجنبى ، وأن الرأى العام الإنجليزى ضلله الذين زينوا له الأساليب الوحشية التى اتخذت ضد فريد وغيره من قادة الحزب الوطنى ، لأنها وجهت ضربة قاصمة على الهياج الذى أثاروه ، وأنه من المستحيل القبول بسياسة الحكومة الرافضة لحرية الكلام والكتابة والتفكير أيضا. وأضاف " حرية التفكير". ففى مصر قانون يعاقب على النوايا الإجرامية .

إن الحزب الوطنى ذو مكانة صلبة ، وماتزال لجنته المركزية موجودة الآن، وستكون موجودة دائما. وإن أعضاءه من الشجاعة بحيث يتصدون لعسف الحكومة.والدستور المصرى يومئذ مسرحية هذلية ، ومن ورائه الطغيان العسكرى على نمط كتشنر. وأعضاء البرلمان دمى فى أيدى الحكومة . الحق أن مصر تحكمها بروقراطية أكثر طغيانا من روسيا.

وبالرغم من أن البروقراطية فى القاهرة صنفت فريد بك على أساس أنه " مثير للهياج " أو

محرض على الفتنة، فما فعله هو كان حملة توعية. ولم يكن معاديا للشعب البريطاني قط . لقد طالب بما تحقق الآن للشعب المصرى ، الاستقلال التام. ولم يدع قط الى مصادرة المصالح الأوربية فى مصر، بل دعا الى صون المصالح الأوربية والاعتراف بمبادىء الوطنيين المصريين من أجل تحقيق الاستقلال التام.

إن جهوده عملت الصحافة البريطانية على تمويهها، ولم يتح لصوته أن يسمع. ومع ذلك ، من يكذب الحقيقة القائلة، بأنه من الممكن ، تفادى حدوث الفتنة، إن أتيح له عرض قضيته ، وأن المشكلة المستعصية ستحل .

الحقيقة أن خاصة البولو والجولف فى القاهرة، قد شغلتهم ممارسة لعباتهم المفضلة عن الاعتراف بحقيقة وجود حركة وطنية مصرية، ذات جاذبية واسعة النطاق، وأنها مثل البركان الساكن ينتظر الوقت المناسب لينفجر. ومثلما يقول المثل القديم " إن الشخص الذى تريد الآلهة تدميره ، تصيبه بالجنون أولا"

حسنا ، قائدنا السابق مضى ، مقدما التضحية القصوى ، التضحية التى يعتز كل بطل حقيقى بممارستها، إنها الاستشهاد . ومن يقول إن روحه لم تنظر إلى التحقق الكامل للهدف الذى ضحى من أجله بالمال والحرية والحياة.

٢٥ - الفصل الحادى والعشرون : عرابى باشا

كومت ١٩٣٧/١١/٢٠

ما أزال أعجب كيف لم يتطرف فريد باشا لذكرى عرابى باشا فى كل الأحاديث التى جرت بيننا، عرابى الذى ماكان سيكون للحركة الوطنية المصرية وجود لولاه.

فى طفولتى يوم كنت فى الخامسة أو السادسة من عمرى ، رأيت لأول مرة الرجل الذى سيوقظ الوعى الوطنى فى الفلاح المصرى الذى عرف الأنين تحت وطأة القهر قرونا طويلة. وكنت يومها صغيرا جدا، لا أدرك أهمية هذا اللقاء. وفى مرة لاحقة ، قبيل ضرب الاسكندرية بالمدافع عام ١٩٨٢ ، قابلته عندما جاء لزيارة أبى فى البيت. وكان عرابى يومئذ وزير الحربية، مصر كلها تحت قدميه، والخديوى فى قبضة يده.

ويومها أعترف أننى نلت الشرف الذى آتيح لى بحق ، حين صافحت أحد الشخصيات النابغة فى السياسة الشرقية . ولسوء الحظ ، أفقدتنى إقامتى فى إنجلترا من سن التاسعة معرفتى باللغة العربية، ولم يكن عرابى يتحدث لغة غير العربية، وهذا موقف عجز ندمت عليه كثيرا. أبى الذى يتحدث الفرنسية نوعا ما، حدثنى عما جرى فى الماضى ، وعن الأهداف الوطنية فى المستقبل. إن ملاحظاتى فى فترة الشباب، مقترنة باستنتاجاتى الناضجة، تجعلنى أعترف بأن عرابى لا يتحلى بأى قدر من اليقظة ، وهى عنصر ضرورى لا غنى للعسكرى والقائد السياسى عنه .ولا يتصف بالخصال النادرة مثل سرعة اتخاذ القرار، والمقدرة التنفيذية، والحس المشترك العملى ، وهى أمور لابد من توفرها فى الفرد الذى سيقود حركة عظيمة بنجاح، يقتلع من طريق الحياة كل القوى المضادة الضعيفة، ويتقى الضربات الموجهة من قبل الأقوياء ، ماضيا فى حركة دائبة الى الأمام ، الى المنجزات المجيدة فى قمتها العليا.

إن هيئة عرابى تمثل الكرامة الحازمة التى تتميز بها شخصية شيخ القرية، أما قامته

الرفيعة، وضخامة بنيانه فتلحقانه بالفلاح التقليدى فى الوجه البحرى من مصر، إن عرابى ينتمى الى أولئك الفلاحين الذين فرض عليهم الباشوات الجراكسة والأتراك والمماليك العبودية على مدى قرون. وفرضوا عليهم نظام السخرة، العمل القهرى دون أجر. وكان من الطبيعى أن يحتقر الجراكسة المسيطرون عرابى وطبقته . وكان رئيس الوزراء يومئذ : رياض باشا يحتقر أحمد عرابى ، والمفكرين دعاة الإصلاح فى جامعة الأزهر.

إن طبقة الفلاحين التى ينتمى اليها عرابى ، هى أول من اعترف به قائدا وظلت وفية له ، تتغنى بمدحه الى مابعد عودته من المنفى . إنهم يرون فيه واحدا منهم يعلوه بمجد تلقى العلم فى جامعة الأزهر، فعلى مدى أكثر من ثلاثة قرون ، لم يتح لفلاح مصرى أن يتنفس بكلمة دالة على ثورة، ولا تهيأ لأحد من تلك الطبقة أن يسمو الى مكانة سياسية مرموقة.

إن الخديوى عباس دفعته رغبة مخلصة فى الارتقاء بشأن الفلاح المصرى ، فمنح الفلاح المصرى المساواة التى أنكرها عليه السادة الأتراك - الجراكسة.

وجاء سعيد باشا بخطة تدريب أبناء شيوخ القرى ليكونوا ضباطا فى الجيش المصرى ، وكان أبى واحدا من هؤلاء ، وقد أهلتهم هذه الفرصة للترقى الى أعلى الرتب ، اعتمادا على جهودهم وكفاءتهم، وليس حسب نظام الحماية الذى ترقى بموجبه الجراكسة - الأتراك الى أعلى الرتب ، ومن بين هؤلاء الشبان أحمد بك عرابى، الذى ترقى بسرعة، فبلغ مرتبة المقدم وهو فى العشرين، وغدا ياور الخديوى سعيد، وصحبه فى رحلته الى المدينة المنورة.

إن كثيرين من أبناء وطنى يرون أن عرابى خائن لوطنه ، فضلا عن أنه مسؤول عن الاحتلال، وهذه المزاعم تناقض الحقائق المعروفة.

فلأن عرابى أنشأ الفكرة الوطنية فى مصر، صار وجود مصطفى باشا كامل أمرا ممكنا. إن البذور غرسها عرابى ، والجيل الجديد يجنى الآن الثمرة، متمثلة فى استقلال الوطن .

الحقيقة المثيرة، أن كل الوطنيين المرموقين الذين ظهروا من أيام عرابى ، ينتمون إلى أصول فلاحية. وهذا لا ينتقص من قدر الفئات الأخرى التى تنتمى الى المجتمع المصرى، ولكنه يعنى أن صوت الأغلبية صار يعرب عن نفسه وأن الرضيع الوطنى الذى قدمه أحمد عرابى عام ١٨٨١ ، قد وصل الآن ، عام ١٩٣٧ الى مرحلة الرجولة التامة.

٢٦- الفصل العشرون [٤٢]: نشاط دولى

كومت ١٩٣٧/١١/٢٧

تدريجيا ، وبصورة تلقائية ، غدا ١٥٨ شارع فيليت ملاذا للمعاناة الأفريقية والشرقية. م.س. ف. ريد/ من ليذر، أسس " منظمة العدالة " الخاصة بالشعوب المستعمرة فى الإمبراطورية ، متخذا من مكتبى عنوانا دائما لها. ولم يؤد تسليط الضوء على حادث الجلد فى زاريا إلى وصول رسائل كثيرة تدين الحادث فحسب ، بل وجهت أسئلة مربكة الى "هاركورت " وزير المستعمرات فى البرلمان .

وعندما بدا حزب العمال يفرض وجوده فى مجلس العموم ، وبفضل جهود البرلمانى المرحوم " بوينتر" اكتسب الحزب حيوية فطلبت من " رامزاى ماكدونال ، تكوين لجنة مصغرة ، ترعى الشؤون الأفريقية والآسيوية ، ويعتمد عليها فى توجيه الأسئلة التى سأزودهم بها كل يوم ، مع تقرير ضاف عن موضوع كل سؤال. ولأن الأسئلة المقدمة تظهر من بعد فى أعمدة مجلة "أفريكان آند أورينت ريفيو ". استنتجت الدوائر الرسمية أن الأسئلة - بطبيعة الحال - مصدرها مكتبى .

وينبغى أن يفهم أن الهدف الأساسى من جهودى هو إقامة حكم جيد فى المستعمرات والمحميات داخل الامبراطورية، وهذا لا يعنى رعاية مصالح من لا صوت لهم، من ملايين الملونيين، من بين رعايا صاحب الجلالة فحسب ، وإنما سيعطى أيضا صورة حسنة عن العدالة البريطانية التى تعد عالميا العلامة المميزة الأولى للحكم البريطانى ، وستعطى إضافة ضرورية للهيبة المصونة بكل غيرة.

وعلى سبيل المثال ، عندما أقمت اجتماعا عاما بشأن مسألة " أريان بول" ، يوم ١٩٣٧/٨/٦ بقاعة كاكستون ، فى وستمنيستر، بتأييد من اللورد بيوتن واللورد لامينجتون،

والبرلماني آوبرى هربرت ، والكابت ديكسون جونسون (من مستشفى الهلال الأحمر بدرابلس) ودونيل أوف دونيل، وس . ف ديدز، ود بيلانس ، ومجموعة أخرى من الشخصيات المهمة، كان هدفى إبقاء " أوربا بنول " داخل تركيا، ودفع السير إدوارد فرى للعودة الى السياسة الحكيمة التى كان ينتهجها اللورد " بيكون فيلد " حيث توطت علاقات حميمة بين إنجلترا وتركيا منذ عهد الملكة اليزابث .

ولمعرفتى بالضرر الذى وقع على العالم الإسلامى ، بفضل الموقف اللامبالى الذى اتخذته بريطانيا العظمى قبل حروب البلقان وإبانها ودع عنك العدوان الإيطالى على الولاية التركية طرابلس ، رأيت من الضرورة بمكان ، اتخاذ موقف فى الحال، إن كان يراد للاضطراب الذى نجم وسط المسلمين المقيمين داخل الامبراطورية أن يهدأ.

ولكى نفهم الحالة فى منظورها الصحيح، من المهم أن نستعرض الأحداث البارزة التى سبقت محاولة تسليم أدريان بول لبلغاريا. ففى حين كتب المراسل البرلمانى لصحيفة التايمز:

"اللورد روبرت سيسيل " وج .هـ . توماس ، والسير صامويل هور، وت.ب. أوكنور، والماجور دافيد دافيس أرسلوا الخطاب التالى الى زملائهم أعضاء مجلس العموم:

نود لفت انتباهكم الى المشكلة المستعجلة : القسطنطينية ، فخلافا لكل القرارات السابقة، يزمع تمكين تركيا من ضم القسطنطينية بصورة دائمة، ونسبة للمذابح الأخيرة التى طالت القوميات التابعة لها، ولأن القسطنطينية ظلت مصدر قلق دولى على مدى قرون، نرى من الأهمية بمكان ألا تترك القسطنطينية خاضعة للسيادة العثمانية ".

ومن الجلى ، أن اللورد سيسيل وأصدقاءه لم يكونوا على إلمام وثيق بالقضية التركية، ومذابح رعايا تركيا من القوميات التى روج لها كثيرا. قبل الحرب كانت الإحصائيات الرسمية التركية أن سكان القسطنطينية : ٥٦٠ر٠٠٠ من المسلمين و٢٠٥ر٠٠٠ من اليونان و٨٢ر٠٠٠ من الأرمن . وبالتالى يشكل المسلمون الأغلبية. وليس هناك أدلة تثبت حدوث مذابح للنصارى فى القسطنطينية إبان الحرب. مما يؤكد أن اتجاه مؤتمر السلام الى إبقاء القسطنطينية تحت سيادة تركيا، لا ينطوى على أى تهديد للسلام فى الشرق الأدنى ، وفق ما أبدته المذكرة .

لم يكن الأتراك مصدر اضطراب أو حرب فى الشرق الأدنى . إن روسيا هى المحرك الأساسى للاضطراب ، لأنها ترغب فى ضم القسطنطينية إليها، بأى حال، وبأى وسيلة من وسائل القوة.

ولإدراك تعقيدات الوضع التركى البلقانى ، علينا أن نعود الى عهد قلادستون ، و" تحرير روسيا لبلاد العرب وبلغاريا بمعاهدات سان إستفانو وبرلين.

ومن الممكن لوم بلغاريا على نكرانها جميل روسيا، ولكن ليس من العدل وصف الخطر التركى على بلغاريا بأنه أشد ضراوة من الخطر الإنجليزى على ايرلندا.

لا شك أن اعتماد قلادستون على معلومات ثانوية، خلق فى بريطانيا شعورا بالنفود من تركيا، اعتمادا على المذابح البلغارية المزعومة. وأن قيصر روسيا هو الذى تولى تهبيج التنافر فى بلغاريا، مما دفع تركيا لاتخاذ إجراءات قمعية ، وإن المذابح الأمنية التى كثر الترويج لها هى من تدبير عملاء روسيا.

.. ما كانت تركيا مفسدة للسلام فى الشرق الأدنى . وإن كل الحروب التى خاضتها، على مدى أكثر من مائة عام، هى حروب دفاعية . ولا أحد ينفى وقوع مذابح للأرمن ، ولكن من المفيد أن نسمع وجهة النظر التركية بشأن المذابح.

وقد كتبت ذات مرة عن هذا الموضوع :

"إن ألمانيا مفسدة للسلام فى أوربا، ولا أحد من أصحاب السلطة، طالب بإعطاء برلين لفرنسا. وللبلغار نصيب فى المصادمات الأخيرة ضد الحلفاء ، وسكان مدينة صوفيا، خليط من قوميات مختلفة ، وليس هناك اقتراح بمنح صوفيا لليونان.

الأن الأتراك مسلمون ، ولهذا ليس لهم حق فى المدينة العريقة ؟ هل يعتقد اللورد سيسيل أن اليونانيين مؤهلون لأن يكونوا أوصياء على القسطنطينية أو رسلا للسلام فى البلقان ؟! إن فكرة إقامة نظام دولى فى المدينة غير واردة . إن إخراج الأتراك من القسطنطينية لايخدم السلام فى البلقان أو أوربا."

أما الشباب الأتراك فإن أولئك الرجال الأفاضل ينسون أن الذهب الإنجليزى هو الذى أعان هؤلاء الشباب الأتراك على الإطاحة بعرش السلطان عبد الحميد.

ولأنى على إلمام بحقائق القضية التركية، ولاسيما الأحداث التى سبقت احتلال أدريانبول ، زرت السفارة التركية، وقابلت رائف بك - مستشار السفارة الذى أمسك بخناقى قائلا "أرجوك يامحمد افعل ماتستطيع من أجلنا" . وساقنى الى مقابلة توفيق باشا السفير، الذى أطلعته على خطتى لعقد اجتماع عام. واتصلنا بآوبرى هربرت الذى وعد بعون فعال، ثم عدت الى مكتبى . حيث وجدت " مارمادوك بكتيال" فى انتظارى مع استفسار من قبل " آوبرى هربرت " عن مقومات الاجتماع المقترح (٤٣) اتصلنا بقاعة " كاكستون "، وحددنا موعد الاجتماع. ... عقدنا الاجتماع ، وكنت كاتبا مشهورا :

" إذا كان هناك شخص واحد أنقذ " أدريانبول" وأعادها الى الأتراك ، فإن عند دوس محمد مايبرر هذا الادعاء ".

ولأنى لم أكن ذات يوم مأجورا من قبل أى جهة، فى نشاطى المتصل بالقضايا العامة، فقد تحملت من جيبى الخاص كل تكاليف الاجتماع.

وهنا أذكر حادثة استطرفتها ، جرت لى مع القسم السياسى فى إسكوتلانديارد ، إبان الأيام الأخيرة، للحرب العالمية الأولى ، رجل يدعى أمين ، كتب الى رسالة من " باتافيا" ، يطلب الى تدريب أحد الشبان فى مكتبى ، على العمل الصحفى ، ليستفاد منه فى خدمة جماعة المسلمين فى جزر الهند الشرقية ، ورددت عليه قائلا أن ليس من حسن التدبير إرسال ذلك الشاب الى بريطانيا بسبب الظروف القائمة. أما إذا كان راغبا فى إرساله بعد الحرب . فإنى سأستجيب لرغبته . فكان أن أرسل ذلك الرجل : أمين ردا ، على النمط الشرقى ، يغص بالتهنئة والشكر. ووقع الخطاب فى يد الرقيب الذى أحاله الى " إسكوتلانديارد".

وصلنى استدعاء من إسكوتلاديارد، فذهبت اليهم حيث حقق معى شخص متباه ، عن الخطاب المثير للريبة ، وإن كنت عارفا بأن مرسله أجير تركى .

وأجبته بأننى لا أعرف أن لدى تركيا أى مال لتنفق منه على أى شخص . وسألنى المحقق "هل أنت مأجور من قبل تركيا". فأجبت بالنفى . فسألنى :

"هل ثمنك عال جدا".

فأجبت بقدر من الحدة :

"أتريد الإساءة إلى ، لست أجيرا لتركيا ، ولا لبريطانيا العظمى ، ولست معروضا للبيع".

ولحسن الحظ تذكرت الواقعة. بعد مرور شهور على استلامي الخطاب، فطلبت من " الرجل العظيم " أن يتلفن لمكتبي ، وأن يطلب من السكرتيرة أن تراجع الملف الخاص بالرسائل الواردة من خارج بريطانيا، وستجد رسالة أمين ، التي كتبت الرد على ظهرها بالألة الكاتبة . وجاءت سكرتيرتي بالخطاب، وأعطته للمحقق كي يطلع عليه ولو لم أتمكن من تقديم نص الرسالة، لكانت العواقب وخيمة ومربكة.

العقلية الرسمية البريطانية لاتستطيع في الغالب أن تفهم أن تكون مواليا لمصر أو تركيا أو لأى جهة ، دون أن تكون معاديا لبريطانيا.

إنهم يعرفون كل شيء عن تحركاتي وعلاقاتي خلال الأعوام الخمسة والثلاثين المنصرمة. ليس فيها سر محجوب [٤٤].

ولنعد الى الموضوع ، بناء على اقتراح مقدم من " هربرت آربرى "، أرسل اللوردات والسادة المذكورون قبلا ، أسماءهم الى عنوان مكتبي ، بشأن تكوين الجمعية الإنجليزية - العثمانية . بهدف إقامة علاقات حميمة بين تركيا وبريطانيا العظمى .

وبدأت الجمعية تمارس نشاطها، وتفضل " بيير لوتى " فسمح لنا بإعادة طبع كتابه " تركيا في أوان الكرب " [٤٥] ، ويتنازل عن العائد المالى من بيع الكتاب للجمعية كي تفيد منه في نشاطها الدعائي ، وسارت الأمور على خير حال، الى أن أخذ بعض الأعضاء الطموحين يعربون عن رفضهم للمناهج التى أخذ بها " آرثر فيلد"، السكرتير العام للجمعية . وعقدوا اجتماعا سريا، كونوا فيه جمعية أخرى منفصلة ، موالية لتركيا، وساندهم بعض الأعضاء المهمين الذين ضللوا.

ولكن مجموعتنا التى لم تكن أقل تأثيرا ، مضت في أداء عملها في مكتبي " ١٢٨ شارع فليت ". وهى الجمعية الوحيدة الموالية للعدو - كما يزعمون - التى سمح لها بممارسة نشاطها إبان الحرب الأولى كلها.

وإلى جهود الجمعية المضنية ، ووجود مجموعة منظمة من أصدقاء تركيا، تعزى المعاملة الحسنة التى لقيها الجنرال " تاون سيف " لدى تقهقره من " كوت "

٣٧ـ الفصل الحادي والعشرون
اعتناق اللورد هيدلي للإسلام

كومت ١٩٣٧/١٢/٤

في صيف عام ١٩١٣ زارني في مكتبي أحد معارفي ، وهو محام هندي مسلم يعمل في وزارة المستعمرات - مدعيا أنه حجة في الفقه الإسلامي - ومعه هندي آخر كث اللحية يتصبب عرقا. قدمه الى اسمه خواجه كمال الدين داعية إسلامي ، وانصرف بعدها لقضاء أمر ما ، وترك خواجه معي . أخذ خواجه كمال الدين يحدثني عن مشاكله ، فهو وفد الى انجلترا منذ ثلاثة أشهر داعية الى الفرقة الأحمدية . وبالرغم من وعود صديقه المحامي لم ينجح في عمل شيء.

أخبرته بأن المسلمين في بريطانيا سنيون ، وأن فرقته لا تروقهم. ولكن ، لو استطاع نبذ الاتجاه الطائفي الهادف الى التفرق ، وأقام صلاة الجمعة ، فإن الجمعية الاسلامية التي أتبوأ فيها منصب نائب الرئيس ممثلا لمصر، أستطيع أن أفيد من تأثيري فيها بحث بعض الأعضاء على شهود صلاة الجمعة. فبدا الرجل يلهج بالشكر. وقال إنني المسلم الوحيد الذي ساعده . وبعد ساعتين عاد المحامي ، وانصرف خواجه معه وهو يزجي الشكر.

ولما عاد بعد أيام ليخبرني بعثوره على حجرة في قاعة " كاكستون" لأداء صلاة الجمعة فيها ، استجاب لطلبي نحو عشرين أو ثلاثين من المسلمين الهنود والمصريين فصلوا معه في يوم الجمعة التالي واستمر أداء صلاة الجمعة على هذا النحو ستة أو ثمانية أشهر بنجاح.

ولما علم خواجه كمال الدين ، بأن اللورد هيدلي - قبل حصوله على لقب لورد- عمل مهندسا في الهند ، سعى الى ملاقاته ، ولم يكن اللورد هيدلي عضوا في مجلس اللوردات . وليس ذائع الشهرة في الدوائر الأرستقراطية . وبدأ يحدثه عن الإسلام، وينقل الى مايدور

بينهما، وهو يدرك أن اعتناق لورد انجليزى للإسلام ، سيرفع من شأنه فى الهند .

حدث هيدلى كمال الدين بأنه يؤمن ببعض الإسلام - الحق أنه يؤمن بتعاليم الرسول - ولكنه يحب أكل لحم الخنزير بالبيض فى طعام الإفطار، ويحتسى الويسكى من حين لآخر. الداعية الذى ينقل الى أحاديثه مع اللورد، أخبرنى بأنه قال للورد، أن لا بأس من أن يأكل قطعة صغيرة من لحم الخنزير ويشرب قدرا قليلا فى الوقت الحاضر. على شرط أن يتعاطى ذلك باعتدال واتزان.

وذات يوم جاءنى خواجه كمال الدين يتصبب عرقا، وهو مذهول ، ليخبرنى بأن اللورد هيدلى اعتنق الإسلام. وبعد ليال جاء الى منزلى ليخبرنى بأن اللورد دون اعتناقه للإسلام فى وثيقة أطلعنى عليها وهو فرح.

وفى تلك الآونة، جاء ظفر على خان الى لندن، بشأن الاضطرابات المتعلقة بمسجد كاون بور، فأقامت له الجمعية حفل استقبال عام بفندق مشهور فى شارع " اكسفورد" . وأمام هذا الحشد، قرأ خواجه وثيقة اعتناق اللورد هيدلى للإسلام. ونسخها لكل ممثلى الصحف اللندنية والإقليمية.

فى اليوم التالى ، الأحد ، خرجت الصحف الأسبوعية بالخبر المثير، اللورد هيدلى المغمور صار يحتل الصفحات الأولى ، والخواجه كمال الدين الذى يعرف أبعاد مافعل جاء الى منزلى فى الساعة ٨,٣٠ صباحا متنكرا، بعد ذيوع شهرته ، يطلب النصح . حدثته بأن يذهب الى اللورد ليخبره بالظروف المحيطة بالأمر، وليقدم له الاعتذار.

وبالرغم من الشهرة غير المتوقعة، كان اللورد معينا متحمسا للدعوة الإسلامية .

فى حين أحسن خواجه كمال الدين الاستفادة من مسألة " الاعتناق" وسط زملائه المتدينين فى الهند. لأن اعتناق بريطانى نبيل للإسلام ، أمر يجعل المسلمين الهنود ، ولاسيما الفرقة التى ينتمى اليها كمال الدين ، يعتزون بهذا الإنجاز الذى حققه مواطنهم.

٣٨ - الفصل الحادى والعشرون " تكملة "
عبد العزيز جاويش والهلباوى

١٩٣٧/١٢/١١

جاء عبد العزيز جاويش الى انجلترا ، قادما من القسطنطينية ، يصحبه تاجر من شرق الهند يعتزم شراء سفن شحن لتعمل بين الهند وتركيا. كان جاويش قد فر من مصر ، هاربا من حكم صدر ضده بقضاء ستة أشهر فى السجن. مدانا بإثارة الفتنة، وغدا مثل فريديك لاجئا فى أوربا، لتهمة مماثلة .

الشيخ جاويش وطنى جسور، وأصولى متطرف فى آرائه الدينية . عندما فر الى تركيا ناصر الحزب التركى الذى كان فى السلطة. ونجح فى التأثير على الضباط الشبان ، لإقامة جامعة إسلامية فى المدينة المنورة. وأجل تنفيذ الفكرة لأن الموارد المالية غير متوفرة . وبالمناسبة سبق أن ناقش معى موضوع زيارة أمريكا، للتفاوض باسم الضباط الشبان للحصول على قرض قدره ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى ، بضمان الثروة المعدنية فى الأناضول.

عرفت جاويش من خلال الرسائل المتبادلة بيننا، ولما وصل الى لندن ، اتصل بى ، فتعشينا فى فندق ويستمينيستر ليلة وصوله ، وفى الليلة التالية جاء مع صديقه الهندى للعشاء فى منزلى . حدث هذا فى يوم السبت السابق لإعلان الحرب (الأولى) فى اليوم التالى ، جاءت الشرطة أثناء غياب شاويش ، تسأل عنه. فقد وصلت إليه أنباء مجىء الشرطة، فركب القطار فى الحال الى باريس ، تاركا أمتعته من ورائه ، ودبر صديقه الهندى حفظها ، على نحو غير معروف لشخصى .

واختفى صديقه الهندى ، عندما شبت الحرب ، وطال اختفاء جاويش الذى يعرف إنجلترا معرفة جيدة، فقد درس اللغة العربية فى اكسفورد بضع سنوات .

ولم أسمع من بعد عن جاويش إلى أن بلغنى نبأ وفاته فى القسطنطينية. وكان فى لندن

شخص مصرى آخر مهم هو الهلباوى بك .

كان هذا الرجل ممالئا للإنجليز إلى أقصى حد. ولم يرض عن سياسة السير إلدون فورست ، فالتحق بصفوف الوطنيين ، ودافع بكفاءة عن الوردانى ، الذى حكم عليه بالإعدام، لاغتياله بطرس غالى رئيس الوزراء القبطى فى مصر.

ولقد حدثت مشكلة " خطيرة" بينى وبين زملائى الشبان الذين كانوا يدرسون فى لندن، بعد أن جرت الواقعة التالية :

فقد جاء الهلباوى بك الى مكتبى عشية إعلان الحرب، متأثرا ببيان " هدموند رد " فى مجلس العموم الذى أوضح فيه عزمه على تأييد بريطانيا العظمى فى الحرب، بكل وسيلة ممكنة، وذلك بوصفه رئيس حزب الحكم الوطنى الأيرلندى .

حضر الهلباوى جلسة مجلس العموم التى أعلن فيها قرار الحرب، وجاء الى مكتبى جياشا بالحماسة. وسألنى ماذا سنفعل لنثبت لإنجلترا أننا نقف الى جانبها فى ساعة الشدة . فقلت له إننا نستطيع كتابة رسالة تنشر فى الصحف ، باسم زملائنا المقيمين فى لندن، وأن مواطنينا أولئك سيقبلونها بحكم سننا وتجربتنا فوافق البك ، فجلست على مكتبى ، وأعددت الرسالة التى نالت موافقته، ووقع عليها باسمه.

ظهرت الرسالة ظهر اليوم التالى ، فى جريدة " بال ميل جازيت ".

يمكن تخيل دهشتى عندما تأتى الى جماعة من الطلاب المصريين يقودهم قبطى يعترف بأنه ممالىء للإنجليز. وقد أساؤا الى ، لأننى وقعت على تلك الرسالة مع الهلباوى ، لأن تلك الرسالة لاتعبر عن شعورهم. ولما أفقت من دهشتى ، أخبرتهم بأن ذلك القبطى شرير ماكر يجيد اللعب على الحبلين دائما، ثم فتحت الباب وطلبت منهم أن يغادروا مكتبى .

٢٩- الفصل الثانى والعشرون
صندوق إغاثة لضحايا الحرب

كومت ١٩٣٨/١/٨

دعوت لجنة الجمعية الإسلامية لاجتماع - وكنت نائب الرئيس عن مصر- وقدمت مقترحى بشأن صندوق الإغاثة فتحمس له زملائى الشبان وأيدوا الفكرة. أيده الشيخ كدوى سكرتير الجمعية، والأمير عبد الكريم رئيسها. وعارضته الأغلبية الهندية ، لأنهم لا يتحلون بالخيال الضرورى ، ولا يمتلكون المقدرة العملية لتنفيذ الخطة. المحامى الهندى الذى قدم لى خواجه كمال الدين كان من أشد الهنود معارضة .

وأجيز مشروع الصندوق بأغلبية خمسة أو ستة أعضاء ، وشرعت فى العمل . الشيخ كدوى الدزوب ، عضد جهودى بفعالية ، والأمير عبد الكريم مثله أدى خدمات ، ولكن مسؤولية إقامة الصندوق كلها وقعت على عاتقى .

اللورد كرومر أرسل الى خطابا مشجعا، ذكر فيه أنه اتصل بمحرر صحيفة " إستلتاتور" الذى تبرع بمساعدة الصندوق ، وذلك بإفراد حيز له فى صفحات الصحيفة. وطلب إلى كتابة رسالة عن أهداف الصندوق ، وستنشرها الصحيفة .

كتبت الرسالة ونشرت مشفوعة بتأييد المحرر، مما أدى الى أن يتأتى للصندوق جمع ٣٠٠ جنيه استرلينى خلال ثلاثة أسابيع.

ولأن صناديق الحرب دأبت على نشر إعلاناتها فى الصحف ، نشرت إعلانات عن صندوقنا فى صحف عدة.

وهكذا أقيم الصندوق تحت إشراف الجمعية الإسلامية التى لم يكن رصيدها فى المصرف يزيد على عشرة جنيهات. ولما رأى المحامى المذكور سابقا إعلانات الصندوق فى الصحف، جاء

الى مكتبى غاضبا ، مدعيا أننى أغرقت الجمعية فى ديون ، يصعب عليها تسديدها. وقابل السكرتير داعيا الى عقد اجتماع سريع.

وكان الرئيس والسكرتير يتصلان بى يوميا، وهما ملمان بنجاحى فى الأمر، وقد أخبرتهما فى اليوم السابق لواقعة المحامى ، بأن نرسل صكا بخمسمائة جنيه الى " راجا محمد" فى "لكنو" ليتولى توزيعها فى الهند.

وعقد الاجتماع الخاص الذى حرصت فيه على إجازة موضوع الصك ، وعلى تقديم تقرير مالى عن الصندوق. قدمت الصك للرئيس الذى عرضه على كل الأعضاء الحاضرين فاطلعوا عليه . ودوت التهليلات أثناء قراءتى للتقرير المالى .

كان المحامى يرغى ويزيد من الغيظ الحسود . وما يزال يرى أن التبرعات التى ترد للصندوق ، تنفق هدرا فى إعلانات لا جدوى لها. ولم يؤد تذكير الرئيس له ، بأننا ماكنا سنتحصل على أى مساهمة مالية، لو أنى فشلت فى توجيه الرأى العام من خلال الصحف، الى تهدئة ثائرته.

وقام المحامى بتحرك ثان، فاتصل بعباس على بايق ، فى المكتب الهندى ، طالبا إخضاع الصندوق لمراجعة رسمية. واتصل عباس باسكوتلانديارد . وبعد أسابيع قليلة ، وذات صباح ، جاء ضابط مخابرات، وطلب الاطلاع على دفاتر الصندوق، بهدف مراجعتها. فقدمت له كل شيء ، وزودته برسالة الى المصرف ، ليتمكن من الاطلاع على الحساب ومراجعته، ثم انصرف. وجاء فى اليوم الثانى ، حيث حصل على قائمة بأسماء المتبرعين من دفاتر الصندوق .وبعد نحو ثلاثة أسابيع، وذات صباح ، جاءنى الضابط مهنئا على الأداء المتقن، وشاكرا لى أريحيتى فى معاملته . قلت له إن ليس عندى ما أخفيه ، وأننى مسرور لأن مراجعة رسمية قد جرت ، وقال : " حسنا، لا أعتقد أن هناك مشكلة تقتضى عودتى اليكم مرة أخرى "

فى هذه الكلمات تكمن نبوءة ، فبعد ثلاثة أو أربعة أشهر، جاءنى ضابط مخابرات آخر يسأل عن " فيسكونت دى بوتيه " المسلم البلقانى الذى دأب على زيارة مكتبى ، من حين لآخر، والذى اختفى فى ظروف غامضة مدة طويلة. وقبل أن يغادر الضابط قال لى :

"بالمناسبة ، صديقك الضابط الذى تولى التحقيق فى أوراق الصندوق ، قد توفى .

انفجرت فيه عبوة ناسفة، في سانت جون ، عندما كان في مهمة تحقيق ".

وصف حالي بالدهشة يبدو ناقصا. ولكن فجأة بدا لي ، وكأني أراه وهو يقول لي هازا يدي:

" حسنا ، لا أعتقد أن هناك مشكلة تقتضي عودتي اليك مرة أخرى ".

ولما فشل صديقي المحامي الهندي في مسعى إسكتلانديارد، أرسل خطابا الى محرر صحيفة " ترث" ، يشكو من تصريفي لشؤون الصندوق ، فكتب الى المحرر يستدعيني الى مكتبه ، لمناقشة أمر مهم، وأطلعني على الخطاب ، وأخبرني أنه اتصل باسكوتلاتديارد يسألهم ، إن كانت أي شكوى قد وصلت اليهم فأوضحوا له أنهم راضون بنتيجة التحقيق الذي أجروه وأنه يود اطلاعي على الخطاب، وليحذرني من " محام هندي معين " يشارك في أنشطتنا.

٣٠- الفصل الثالث والعشرون
صندوق الإغاثة

كومت ١٩٣٨/١/٢٢

كنا قد شرعنا فى إقامة حفل مسرحى ، يشارك فيه ممثلون مشهورون ، وبعد تحديد يوم الحفلة وإعداد المسرح، تأجلت إقامة الحفل ، وأعلنا عن ذلك فى صحيفة " تايمز" وكتبت الى كل من اشترى تذكرة، إن كان يرغب فى استرداد ثمنها. ووصلتنى ردود ، كلها أجمعت على التبرع بالمبلغ لصالح الصندوق. وكان اللورد كرومر متعاطفا ، وقد أبدى ترحيبه بتقديم أى عون ممكن فى المستقبل.

طلبت صحيفة " ورلدز ورك " أن أعد لها مقالة خاصة عن جهودى ، ونشرت تلك الصحيفة، ومعها صحيفة أخرى " ديلى جرافيك " صورى ، بهدف مساعدة الصندوق ، مما نجم عنه كثير من الحسد ، وقليل من النقد، من جانب المجموعة الهندية فى الجمعية، يقودها "صديقى " المحامى الهندى الذى يدعى أننى أستغل الصندوق ، من أجل الدعاية لنفسى .

ولما أرهقتنى منظومة التعذيب هذه ، دعوت الجمعية لاجتماع . وقدمت تقريرا عن حال الصندوق ، وحصلت على صك من المصرف، بكل المبلغ المودع فى الحساب. وغسلت يدى من عمل لايحمد، أديته بحسن نية، رعاية لشؤون المجموعة العاجزة من النساء والأطفال.

٣١ـ الفصل الثالث والعشرون " تكملة "
رحلة عمل فى غرب افريقيا / ا

١٩٣٨/١/٢٢

منذ أن أصدرت " أفريكان تايمز آند أورينت ريفيو " عام ١٩١٢م ، صرت معينا للمزارعين والتجار فى ساحل الذهب (غانا الآن) ونيجريا، على شراء حاجاتهم وتسويق منتجاتهم ، وذلك بعد نجاحى فى تقديم العون لمزارعى سيراليون.

ولهذا أقمت مكتب مشتروات، ضمن مجلتى ، وصرت أتقاضى عمولة اسمية ٥ر٢ فى المائة من قيمة المعاملات.

وفى عام ١٩١٧ ، اتصلت بى شركة " جوليس كاربالبس " بشأن الحصول على كاكاو. فعرفتهم على تاجر من ساحل الذهب ، ليتولى إمدادهم بشحنات الكاكاو وحصل الرجل على مبلغ مقدما، وعلى كمية من الجوالات ، فقام التاجر بشحن محصول الكاكاو الى بوسطن فى أمريكا، مباشرة ، إلى شركة كانت قد طلبت من شركة كاباليس تزويدها بمحصول الكاكاو.

وزارنى ذلك الرجل لندن ، بعد مدة قصيرة، فأخذته الى الشركة حيث هددوه بالاعتقال ، مالم يدفع المبلغ المقدم وقيمة الجوالات. وقد دفع.

ولتوق جوليس كارباليس إلى ضمان وجود علاقة موثوق بها مع غرب أفريقيا. اتفق معى على أن أسافر إلى غرب أفريقيا لتنسيق تلك العلاقة . وقدمت طلبا للحصول على جواز سفر، وكان الجواز يمنح لكل مصرى مقيم فى بريطانيا أو زائر لها . وأرسل طلبى الى القاهرة، مشفوعا ببيان من وزارة الخارجية، بأننى مولود فى أيام الولاية التركية على مصر، وأننى - بالتالى - من رعايا تركيا، " أجنبى عدو". وأقر مكتب الشؤون الخارجية فى القاهرة بيان وزارة الخارجية ، ولهذا طلب منى ، أن أقوم بتسجيل اسمى مرة ثانية على أساس أننى عدو أجنبى ، وبما أننى " عدو أجنبى " ، فإنى غير مؤهل للحصول على جواز سفر بريطانى .

ومصر، بلدى ، لأنها يومئذ محمية انجليزية ، لا تستطيع منحى جواز سفر ، لأن المسؤولين البريطانيين فى القاهرة، الذين تدفع لهم مصر مرتباتهم ، لايستطيعون أن يفهموا أن المصرى الذى يستطيع إثبات هويته ، هو مصرى ، وليس بتركى .

وذهبت فى الحال الى " أوبرى هيربرت " شارحا ظروفى ، فزار اللورد كورزون فى وزارة الخارجية ، فقال لو إن هيربرت اتصل به من أول مرة، لتسنى حسم الأمر، وأننى إذا كنت أرغب فى زيارة غرب أفريقيا بعد الحرب ، فإن وزارة الخارجية ستمنحنى إذن دخول إليها، أستطيع بموجبه العودة الى محل إقامتى فى لندن، بعد إتمام زيارتى لغرب أفريقيا.

سافرت الى غرب أفريقيا عام ١٩٢٠ ، وزرت ساحل الذهب ونيجريا، وسمح لى بالتوغل حتى أبيوكوتا وإبادان فى نيجريا ، ولكننى حين تقدمت بطلب لزيارة الأقاليم الشمالية، تلقيت توجيها بتقديم طلب الى مسؤول آخر، ولضيق الوقت ، لم أسافر داخل نيجريا إلى أبعد من أويو [٤٦] حيث سمح لى الكابتن روز بزيارة الألافين الذى حول الزيارة الى مهرجان.

جذبنى اعتداد الألافين بكرامته. ومظهره يدل على أنه حاكم من أخمص قدميه إلى قمة رأسه . وكان الكابت روس ، الحاكم البريطانى ، قد أبلغ أهل أويو بزيارتى المزمعة، مما نجم عنه الاستقبال الفخم الذى حظيت به . وتفضل الشيخ سويمينو، " بالوقن " المسيحيين فى أبيكوتا، بمرافقتى إلى " أويو" ، وقام بمهمة الترجمة . ومن هذا الشيخ عرفت أشياء كثيرة ممتعة عن تاريخ اليوريا.

هناك تقليد يقول بأن اليوريا هاجروا من الشرق ، وأدت بى ملاحظاتى فى " أويو" إلى استنتاج ، بوجود دم مغولى يجرى فى شرايين اليوريا. فقد لاحظت على سبيل المثال ، أن رجال البلاط فى قصر " الألافين " يحلقون جانبى الرأس ومؤخرته، ويتركون منطقة وسط الرأس دون حلاقة ، حيث تنسدل منها ضفيرة ، على النمط الصينى .

ولاحظت قلادة فضية ، وخاتم فضة فى يد الألافين ، وهما بدون شك مصممان وفق النسق المنغولى . ولقد سألت الألافين ، من أين حصل على هذا الخاتم، فقال إن تلك الحلى ، يصنعها صاغة قصره ، وأنهم يقومون بذلك العمل منذ أجيال كثيرة مضت .

وتلفن أحد موظفيه بصوت عال :

" هل تلقيت أي معلومات بشأن تأشيرة السيد محمد علي من واشنطن " ، ولم أستطع سماع الرد ، ولكنه أعاد السماعة إلى مكانها ، قائلا:

" اذهب الى الكابتن بانك في الطابق الأرضي ، عنده بعض الأخبار. هبطت السلالم حتى مكتب الكابتن بانك ، الذي سألني :

"أين جواز سفرك " ؟

قلت له إني قد تركت الإذن الرسمي عنده ، للحصول على التأشيرة .

ورد على قائلا " لا تمنح التأشيرة على الإذن الرسمي " وأدار لي ظهره.

يذكر أنني " عدو أجنبي " ، فذهبت الى السفارة التركية، حيث راشد بك . ولأن تركيا لم توقع على اتفاقية السلام، فإن الإمبراطورية العثمانية ماتزال في حالة حرب مع بريطانيا العظمى ، من الناحية الفنية ، وبالتالي لا تستطيع إصدار جواز سفر . وزودني راشد باشا برسالة موجهة الى القائم بأعمال سفارة السويد ، طالبا منحي جواز سفر ، بالنيابة عن تركيا . ولما استلمت الوثيقة، عدت الى القنصلية الأمريكية، وقدمتها الى الكابتن الذي طلب إحضار صور فوتغرافية ، فأخبرته بأني قد تركت الصور الفوتغرافية مع الطلب والإذن الرسمي .

وسألني إن كنت أعلم منه بمحتويات مكتبه ، ولا شيء أمامي سوى الحصول على صور جديدة.

وبعد يومين أتيت بالصور المطلوبة ، لأكتشف أن السير و.ل هو المسؤول عن التأخير المعوق، وأنه اتصل بالقنصل الأمريكي . إن الرجل ذو مصالح واسعة في غرب أفريقيا ، وهو يعرف أن زيارتي لأمريكا ستتضمن ماسيضر بأعماله التجارية في غرب أفريقيا .

وفي الوقت نفسه ، جاء الى انجلترا اثنان من نواب المدير في الشركة بهدف تقديم مساعدة في الأمر، وقد تركت هذين الرجلين في مكتبي عندما غادرت الى أمريكا. ولم تكن هناك مساعدة يمكن أن يقوما بتقديمها . كما يتخيلان . ولكني لم أعترض سبيلهما .

وبعد التفاوض بشأن تسويق الكاكاو في أمريكا ، تحصلت على عقد باستجلاب عشرة آلاف طن ، وأرسلت نسخا من الاتفاق المبدئي الى لندن وساحل العاج للحصول على الموافقة والتوقيعات، وبعد ثلاثة أيام من إرسال نسخ الاتفاق ، ولدهشتي، وصلتني برقية من لندن

وقع عليها نائبا المدير، بإلغاء كل الصلاحيات الممنوحة لى للتفاوض . ولم يكن لهذين الرجلين حق تجريدى من كل الصلاحيات . فذلك أمر لايبرم إلا بعد عقد اجتماع لمجلس الإدارة، وإلا بعد ارتكابى جرما ما ضارا بمصالح الشركة. فأبرقت إلى لندن وأكرا مستوضحا، ولم أتلق ردا، أو اعتمادا للعقد. وبعد انتظار دام ثلاثة أشهر، وجدتنى مضطرا لإخبار الشركة الأمريكية، بأنه ليس فى الوسع عمل شىء لأننى لم أتلق ردا من زملائى ، غير أنى لم أعرف حقيقة الأمر إلا بعد عودتى الى أمريكا عام ١٩٣٠.إذ عرفت فى أكرا أن أحد نائبى المدير ، حصل على قرض من المصرف ، لتمويل أعمال تجارية فى الساحل ، بشرط إلغاء عقدى ، وإبعادى ، وأن أحد عملاء المصرف سيتولى تمويل الشركة.

لقد مات مدير المصرف المسؤول عن هذا الاتفاق.

وكذلك المحامى المدير الذى حث صديقه على إرسال برقية تضمن فصلى ، ونتيجة لكل ذلك ، صرت أضحوكة في " وول استريت " ، كل الذين يعرفون الجهود المهدرة يقولون لى "كيف حال الكاكاو اليوم ".

أوصد مكتبى فى لندن ، وتوقفت مجلتى عن الصدور. ووجدت نفسى منقطعا فى أمريكا.

بدأت كتابة بعض الأعمال فى الصحف الأفريقية الأمريكية، وقمت بجولة محاضرات مكثفة، فى الولايات الجنوبية والغربية، وقدمت أحاديث إذاعية شتى فى مدينة نيويورك ، ونيوجرسى .

٢٣- الفصل الرابع والعشرون
"رحلة عمل في غرب أفريقيا " /ب

كومت ١٩٣٨/١/٢٤

هناك خطأ شائع يقول إن ليس لغرب أفريقيا خلفية تاريخية وثقافية ذات قيمة. وقد نجح فروبنيس ، عالم الآثار الألمانى ، فى العثور ، فى أوائل هذا القرن ، على أدوات فنية مهمة، تؤكد أن نيجريا قد عرفت حضارة متقدمة.

وفى أوائل القرن الماضى ، استطاع "إدوارد بودبنش " عالم الآثار الإنجليزى ، الحجة ، أن يجرى دراسات فى أثيوبيا ومصر ، مبينا وجود علاقة بين حضارة مصر وإثيوبيا وحضارة الأشانتى . واكتشف فى بلاد الأشانتى بقايا حضارة مماثلة لحضارة مصر وإثيوبيا.

بعد أن زرت " أبيكوتا" بدعوة من " ألاكى " أدمولا الثانى ، عدت الى لاجوس ، حيث عقدت اجتماعا بقاعة " جلوفر " التذكارية ، بشأن المهمة العملية التى جئت من أجلها.

كان المزارعون والتجار فى غرب أفريقيا ، يشكون - كما يدعون - من أن المصرف الوحيد لايقدم لهم التسهيلات المناسبة.

وقابلت إدارى المصرف مرات شتى ، وكان المصرف يتفاوض مع " باركليز" بشأن الانضمام إليه، وكانوا حريصين على تلقى معلومات منى ، عن إمكانية توسيع نشاطهم المصرفى فى غرب أفريقيا.

قلت لهم إن الكفاءة المصرفية مهمة، لخدمة مصالح المواطنين ، وإذا كان المصرف يرغب فى إنشاء فروع له فى غرب أفريقيا، فإننى سأوجه ما أملك من تأثير ، لحث المواطنين من المزارعين والتجار للتعامل مع المصرف.

وبعد عدة مقابلات مع مدير المصرف، اتفق مع رجل من ساحل الذهب ، يدعى أنه شيخ ، وقادر على استثمار صلته ، فى الحصول على معاملات للمصرف، وافتتح فرع المصرف ،

واستتب التنسيق العملى بين رئاسة المصرف والفرع، ولكن عندما تبين لى أن ذلك التنسيق مخالف للاتفاق الأصيل، قررت أن أوجه مساعى إلى اتجاه آخر ، بغية خدمة مصالح المزارعين والتجار فى غرب أفريقيا.

ولأن أمريكا هى أكبر مشتر لمحصول الكاكاو، اتصلت بمصرف أمريكى ، أبدى موافقته على إقامة فروع له فى غرب أفريقيا، بشرط أن أضمن له رصيدا من المال يودع فى المصرف، ويكون أساسا للمعاملات التالية .

فحصلت فى إبادان ، على ضمان بإيداع أكثر من ٣٠٫٠٠٠ جنيه من التجار والمزارعين وفى اجتماع لاجوس ، حضر جماعة من أهم التجار، ونخبة قليلة من الموظفين الذين لم يسبق لهم أن ارتكبوا جريمة العمل ضد مصالح مواطنيهم، وكانت نيجريا تضم مصرفين فى لاجوس، وهما كافيان لتنسيق العمل.

بعد أن عوفيت من هجمة ملاريا ضارية ، غادرت لاجوس الى ساحل الذهب ، حيث اتجه المزارعون الى قبول الجهود التى قدمت نيابة عنهم . وكونا شركة إنتاج لغرب أفريقيا كله، برأس مال اسمى قدره : ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه. وهو مبلغ استغرق حوالى ثمانية أيام من العمل فى مكتب المسجل الرسمى ، لاستخراج نسبة الضريبة المقررة. وكذلك تلقيت ضمانا بإيداع مبلغ ٤٥٫٠٠٠ جنيه فى المصرف الأمريكى .

إن هدفى من تسجيل مبلغ ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ، أن يسهم قطاع كبير من المتعلمين ، من سكان غرب أفريقيا هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن اقلق راحة الجهات الاستغلالية بضعة أيام.

وبعد أن أنجزت مهمتى فى غرب أفريقيا، وقدمت طلبا للقنصل الأمريكى من أجل الحصول على تأشيرة دخول ، بعد حصولى على إذن رسمى بالخروج من بريطانيا، والعودة إليها، واتصل القنصل بواشنطن ، للحصول على إذن بالسماح لى بزيارة أمريكا،

وترددت على مكتب القنصل مرة كل أسبوع ، الى أن مر حوالى أربعة أشهر، كانوا فى كل مرة يقولون لى " لاخبر حتى الآن ".

ولأننى توقعت وجود مؤامرة ما، كتبت الى عضو فى الكونجرس ، كانت بينى وبينه

مراسلات عديدة ، راجيا منه أن يستفسر عن أمر تأشيرتى . ورد على ذلك الرجل ، بعد فترة قصيرة ، مرسلا نسخة رسمية من تأشيرة دخول أمريكا التى أرسلت الى القنصل فى لندن، قبل ثلاثة أشهر.

وبعد استلامى الرسالة، ذهبت فى اليوم التالى الى القنصلية ، سائلا القنصل إن كان قد سمع شيئا من واشنطن ، فرد على : " كلا" ، وعندها أبرزت الرسالة قائلا:

" هذا يبدو غريبا ، هذه رسالة رسمية من واشنطن ".

التقط الخطاب من يدى وسألنى : " كيف حصلت على هذه ؟ "ورددت عليه " من واشنطن " فقال " لا علم لى بهذا الأمر ، انتظر دقيقة " .

٢٣-الفصل الخامس والعشرون
نشاط أمريكى

كومت ٥/٢/١٩٣٨

بعد زيارة معهد توسكيجى ، وتقديم محاضرات فيه ، ذهبت الى " ديترويت" بمتشجان، استجابة لرغبة مجموعة من المسلمين الهنود الذين تعرفت إليهم بعيد وصولى نيويورك ، حيث قدمت محاضرتين ، وبعد اتصالات أجريتها مع مسلمين آخرين من العالم الشرقى ، طلب إلى إنشاء جمعية إسلامية ، تتولى إعداد حجرة لأداء الصلاة، وإقامة صلاة الجمعة على نحو منتظم ، وكان أمرها قد أهمل للأسف.

وعضدنى المتحمسون بتكوين لجنة إدارية برئاستى ، لدورتين ، واستخدمت حجرة الصلاة فى مناسبات اجتماعية ، حيث قدمت محاضرات وحفلات الموسيقى حضرها لفيف من أهم أعضاء المجتمع فى ديترويت .

ونشأ عن النشاط الاجتماعى مناقشات مستفيضة عن القضايا الشرقية ، فاقترحت إنشاء منظمة آسيوية أمريكية، تعمل على توطيد العلاقات الأمريكية الآسيوية ، ودعم التفاهم بأكثر من ذى قبل. ومن أجل هذا الهدف وجدت تعاونا فعالا من قبل المنظمات الأدبية والفنية فى ديترويت .

وبعد إقامة لجنة عاملة ، أعددنا اللوائح والأهداف، وسجلنا الجمعية وحصلنا على موافقة برعاية الجمعية من قبل المندوبين الدبلوماسيين فى واشنطن وهم : القائم بأعمال إيران ، صاحب السيادة الوزير المصرى المفوض ، ومدام سامى ، فضلا عن عمدة ديترويت وعقيلته .

ومن أجل تعريف مجتمع ديترويت بالجمعية ، كونت فرقة من أصحاب المواهب الموسيقية والمسرحية ، قدمت عرضين للأزياء من إعدادى ، مع مقطوعات موسيقية مختارة من تأليف ليزا ليهمان وورد فورد فيندون ، وقمت بتصميم الأزياء فى حين وضعها الفنانون موضع التنفيذ ، على المسرح المحلى .

وتطوع كثيرون بالمساهمة فى النشاط، من المحاضرين المتمكنين الشرقيين المقيمين فى أمريكا ، أو ممن وفدوا فى زيارة ، متناولين أمور الدين وقضايا الأدب الشرقى ، إلى جانب بعض من أقام فى الشرق من الأمريكان القادرين على القضايا السياسية والاجتماعية بكفاءة، وفق فهمهم الخاص لها.

ولم تعش المنظمة أكثر من عام ، إذ برزت الأحقاد، داخل التجمعات الشرقية المختلفة ، بشأن قضية السيطرة على الجمعية ، وآزر الانقسام بعض الأمريكان الطموحين ، من كان حريصا على تقليص حجمى الى لا شيء، بعد أن جعلت المنظمة أمرا ممكنا ومتحققا من الناحية العملية.

ولما توفى " هودبنى" ليلة العرض ، ولم يتمكن المسرح المحلى من العثور على بديل يؤدى دوره، وافقت على أداء دوره مدة أسبوع، حتى يتمكن المسرح من مواصلة عرضه . لهذه الواقعة، وماسبق الإشارة اليه من أمور، قررت أن أتخلى عن منصب السكرتير المؤسس فى الجمعية، من أجل مصلحة الانسجام ، بمجرد فراغى من الارتباط المسرحى الخاص، وقصر نشاطى كله على الجمعية الإسلامية المركزية.

ورويدا رويدا اتفق الأمريكان وهنود الشرق على أن يختلفوا ، وماتت المنظمة بعد خمسة أشهر غير مأسوف عليها.

ولما تهيأت لمغادرة " ديترويت " الى شيكاغو ، لتقديم سلسلة من المحاضرات التى تعاقدت بشأنها، وصلتنى رسالة عاجلة من نابليون مال ، جديد ، من ساحل الذهب أرسل الى هذا المغامر نشرة عن شركة إنتاج مسجلة فى لندن، وتضم الوثيقة ستة أو سبعة من الشيوخ المرموقين الذين بلغتنى شهرتهم من قبل . وبدا مظهر الوثيقة مقنعا. وأدعى أنه وصل الى نيويورك منذ ستة أشهر. ولكنه لم يهتد الى عنوانى إلا مؤخرا.

ولم آخذ الأمر مأخذ الجد ، لأننى لا أعرف الرجل ، وأذكر على نحو ضبابى أنه طفا على مكتبى قبل عامين أو ثلاثة . وكشأن أى مغامر آخر تلقيت منه رسالة ثانية ، بعد ثلاثة أيام من استلامى الرسالة الأولى ، يطلب بإلحاح مجيئى الى نيويورك . لأن مشورتى ومساعدتى ضروريتان لنجاحه، فهو مجرد " برىء" خارج وطنه.

٣٤-الفصل السادس والعشرون
ونيويورك مرة أخرى

كومت ١٩٣٨/٢/١٢

كان الرجل القادم من غرب أفريقيا قد اتفق معى على إنشاء مجلة جديدة إسمها " أفريكا" هدفها الإعلان عن جهود شركته. ولكن إصدار المجلة ، وايجار المكتب ، ورواتب عدد قليل من المحررين ، مبلغ خمسمائة دولار ، دفع منها مائة دولار، وتركنى لأتولى دفع ماتبقى ، ولما اكتشفت الألعوبة المزدوجة التى أداها، بدفع الممولين الى تسجيل الشركة الجديدة ، رأيت إيقاف إصدار " أفريكا".

عندما وصلت نيويورك أول مرة ، اتصلت بمقاول عبرانى " يدعى " بنكل " أثبت أنه صديق حق ، بأسمى معانى الكلمة، هو يعرف أى شخص يستحق أن يعرف فى نيويورك. وهو الذى تولى تعريفى بآرثر بريس بان ، المساهم المشهور فى مطبوعات " هيريست " بأمريكا.

ففى إحدى ناطحات السحاب ، يقع مكتب ، يوجه من " بريس بان " رسالته اليومية الى ملايين القراء فى أمريكا قال لى بنكل :

" مكتب آرثر بريس بان فى هذه العمارة ، هل تريد أن تراه " ؟

فقلت " نعم ، ولكن لابد من الحصول على موعد مسبق ، أليس كذلك ؟

فقال بنكل " فليذهب ذلك الهراء البريطانى الى الجحيم ، نحن أمريكان ، ولا نمارس هذا التعالى ، تعال ، سنرى " بريس بان " إن كان موجودا فى مكتبه "!

دخلنا العمارة واستقللنا المصعد ، ودخل المكتب ، وجاء " بريس بان " لمقابلتنا حيث قدمنى " بنكل " اليه.

"دوس محمد على ، دوس محمد ، أين وقعت على هذا الاسم "؟

صمت برهة، وأمسك بيدى ، ثم قال : " نعم آه " ومضى الى رفوف الكتب التى تغطى

الجدران الأربعة فى الغرفة ، وبعد دقيقة ، استل كتابى عن تاريخ مصر. ورفع الى الكتاب قائلا " أأنت الرجل " ، فأجبت " أنا" . وأمسك بيدى ، ومضى بى الى الكرسى " اقعد ".

ولأنى مسافر الى نيويورك من أجل مهمة أخرى ، أن أقابل الممول القادم من ساحل الذهب، وبعد مناقشات شتى ، نجحت فى عقد لقاء بين هذا الرجل ، ورجال شركة كاكاو فى فلادلفيا. وأخبرتهم بأننى لا أعرف الرجل ، ولكن من النشرة والرسائل الواردة من شيوخ فى ساحل الذهب ، تبين أن الرجل صادق.

وبعد اجتماعات فى مكتب محام ، اتفق على إبرام عقدين ، الأول يشمل توريد عشرة آلاف طن لقاء سعر معلوم ، والثانى يتضمن توريد خمسين ألف طن كل سنة ، بسعر يتفق عليه الطرفان ، وذلك بعد الوفاء بتنفيذ العقد الأول.

وتم الاتفاق على إيفاد خبير كاكاو من نيويورك إلى غرب أفريقيا ، لفحص محصول الكاكاو على الطبيعة ، وفتح اعتماد فى المصرف بمبلغ ثلاثمائة ألف دولار لشراء المحصول.

وكان من المتوقع أن يسافر الرجل القادم من ساحل الذهب على السفينة التى سافر بها الخبير، ولكن الشركة عرفت أنه تخلف عن السفر، واستدعانى المحامى لمعرفة أسباب تخلف الرجل ، فقلت لهم إنه تخلف لأنه يتوقع وصول حوالة مالية إليه، فقالوا " لماذا لم يخبرنا"؟ واستدعوه ، وكررت ماسبق أن قلت ، وفى اليوم الثانى منحوه مبلغ تسعمائة دولار مقدما، على حساب العقد ، وكنت حاضرا لحظة تسليمه المبلغ. وكان الرجل فى السر يجرى مباحثات مع مجموعة من المموِلين ، لتكوين شركة يعهد اليها بتنفيذ العقد ، وعينوه مديرا للشركة وأعطوه خمسة آلاف دولار، لينفق منها على أمور العقد.

وبعد استلام المبلغ الأول فى فلادلفيا والثانى فى نيويورك ، غادر الى باريس ، بدلا من غرب أفريقيا، حيث مكث ستة أشهر.

ولم تتلق شركة الكاكاو فى فلادلفيا أية معلومات عن الرجل ، ولم يصل إليها محصول الكاكاو، ووصل الخبير الى لاجوس بنتيجة مماثلة ، وضاع سدى المال الذى دفعته الشركة مقدما للرجل، وتكاليف سعر الخبير الى غرب أفريقيا.

وصاح فى صديقى العبرانى :

" سمعت أن هذا الرجل موجود فى نيويورك . وأردت الوصول اليه . ولكن لا أحد من أصدقائى أو معارفى عرف مكانه ". ثم التفت إلى قائلا:

" أين تعلمت انجليزيتك ؟ فرددت " فى انجلترا ".

قال " كان لابد أن أعرف ، ولكن يظن أنك تعرف كثيرا جدا عن نظامنا السياسى والاجتماعى ".

"قل يارتك " أظن أننى اشتريت النسخة الأولى من الكتاب عند وصوله الى أمريكا ومن الناشر " ابيلتون " . ولفت نظر " تيدى روزفلت إليه [٤٧] وكاد يجن بعد أن قرأ ماكتبه صديقك عنه. مسكين تيدى ، ولكن ياسيد ، كيف تريد أن أخاطبك"؟

" من فضلك : محمد مجردة " قلت :

قال " هذا ديمقراطى على الأقل ، ولكنك شويت " تيدى " على وجه التأكيد ".

لم تكن عنده فكرة بأن واحدا من مواطنيك سيقولها ، وإلا لصار أشد حذرا. ولكن تيدى روزفلت لا مبال دائما يارنك أين وجدت هذا المؤرخ.

ورد صديقى : " حسنا ، فى طريق ملعون بين التاريخ المصرى والكاكاو. الرجل متواضع. اللعنة ، لم تقل كلمة عن تأليفه كتاب تاريخ . دعنى أر الكتاب ".

مد بريس بان الكتاب إلى صديقى العبرانى الذى نظر الى صورتى فى صفحة العنوان ، وقال " إنها جيدة . اللعنة " ، ولكنك ترتدى نظرة واضحة كالنهار تقول " أين ذلك الشخص روزفلت "؟

أنظر إلى هذين المنخرين . اللعنة من حظ تيدى أنك لم تقابله ، وأنت تحمل ذلك الشعور إبه ، بريس بان ".

وعلق " بريس بان " " تبدو عليه الصرامة ". وهو يتأمل الصورة " أتوقع أنك تريد قراءة كتاب صديقك ". فأنت الآن تعرفه ، وتعرف موهبته فى إثارة الشعور السياسى ،فى الساسة المهمين ".

قال: " لا أجد وقتا قليلا للقراءة اللعنة " بريس بان " ، ولكننى سأستعير ذلك الكتاب من المكتبة ، حسنا حسنا ، وأنت لم تقل لى شيئا عن ذلك الكتاب "!

ولكن ما علاقة صديقك بالكاكاو ، أنت ذكرت الكاكاو والتاريخ ".

أجاب صديقى :" إنها قصة طويلة" ، بريس بان " ، سآتيك فى وقت آخر، وسأحكيها لك، على أى حال ، لقد جاء الى أمريكا لمساعدة مزارعى غرب أفريقيا، جئت به لرؤية صديق فى وول استريت . قل لى يابريس بان هل قرأت كل هذه الكتب . رفع " بريس بان " يده الى رفوف الكتب التى تمتد من البلاط الى السقف .

وقال : " حسنا ، تقريبا كلها، هذه الكتب تساعدنى على إعداد عمودى اليومى ، فى صحيفة " ويليام راندلو هيريست " . سأكون سعيدا برؤيتكما معا مرة أخرى "

وصافحنا : ثم قال لى " تعال فى أى وقت - إلى اللقاء ".

" مع السلامة " بنكل "

"مع السلامة بريس بان "

عندما هبطنا الى الشارع ، علق صديقى قائلا:

" يااللجحيم لماذا لا يكون لك مكتب ، وتمارس الكتابة كأرثر،

بدلا من إضاعة وقتك فى الكاكاو. المثل جيدة . إذا أردت أن تحلم ، فاحلم فى غرفة ملأى بالكتب . واملأ جيوبك بالمال ". الرجل الذى جعل تيدى روزفلت مجنونا، اللعنة ، افعلها ودعنا نأكل من يدك ".

ولكنى ، لم أفعل ، ولم أحاول إقامة الأهرام فى الجزيرة، حيث قال " جون ميل هولاند " أن الدولارات تنتظرنى .

إنها القسمة .

(٣٥) الفصل السابع والعشرون
وول استريت ومابعد .

كومت ١٩٣٨/٢/٢٦

قدمنى " رنكل " الى " روجر بليكر" الوسيط التجارى الذى يتولى شراء محصول الكاكاو لمصانع هيرشى . وبعد مقابلات عدة ، قال بليكر إن العمل التجارى يمكن أن يباشر بتسويق محصول الكاكاو فى أمريكا، إن كنت أثق فى مزارعى الكاكاو والأهالى ، بعد تجربتى السابقة معهم.

وهو قد انتهى الى قناعة مؤداها أن أمريكيا يدعى إستريكر زار ساحل الذهب ، وكسب ثقة " الأهالى " وحصل على شحنات من محصول الكاكاو، حملت الى أمريكا ، دون أن يدفع ثمنها، ورجع الى أمريكا. ثم وفد الى أمريكا فيضان من الأهالى ، يتعقبون أثره ، وحصلوا على مبالغ من الموردين ، ثم لم يرسلوا اليهم محصول الكاكاو من بعد ، ناكثين بالتزامهم . ومن ناحية أخرى ، فإن شحنات محصول الكاكاو التى استجلبتها شركات مشهورة كانت فاسدة ، بالرغم من وجود خاتم الحكومة الدال على الموافقة الرسمية على شحن الكاكاو بعد فحصه والتأكد من صلاحيته. وعندما يصل محصول الكاكاو ويفحصه خبراء مصلحة الزراعة فى أمريكا ، ويجدونه فاسدا، فلا مناص حينئذ من اتخاذ أحد أمرين ، إما حرق المحصول ، وإما إعادة شحنه ، وإرساله خارج أمريكا. وتلقى الشركات تبعة الأمر على " الأهالى " .

وقال " بليكر" : فيمن نثق ؟ نحن حريصون على أن يتم العمل بصورة مباشرة ومستعدون للدفع نقدا. ولكن لابد لنا من أن نتأكد من أن مستوى المحصول جيد .

نحن نحتاج الى الكاكاو ، وهم يحتاجون إلى المال، نحن سندفع السعر السائد فى السوق . فى نيويورك : إن كانوا يعرفون مبادىء العمل التجارى ، فلابد أن يعرفوا أن رجال الأعمال لايدفعون أموالهم إلا بعد حصولهم على مقابل.

وقال لى : إن كنت ستجد ممولا لرحلتك الى غرب أفريقيا، قادرا على دفع ضمان مالى لشحن مائة طن على سبيل المثال، فأت به الى مكتبى . وسأؤكد له أن الكاكاو المشحون سيباع قبل وصوله، فهل تجد رجلا كهذا؟

وبعد أيام ، عثرت على صديق رافقنى الى مكتب بليكر، فى " وول استريت" ،وبعد مقابلات طويلة كثيرة، وافق صديق على إيداع ضمان مالى ، بمبلغ عشرة آلاف جنيه فى مصرف غرب أفريقيا البريطانية ، ودفع نفقات سفرى ، علاوة على مبلغ خمسين جنيها ، لنفقاتى الشخصية . لم أكن أستطيع ترك زوجتى من ورائى ، ولم أكن قادرا على دفع نفقات سفرها ، فدفعت هى تكاليف سفرها من مالها الخاص، ثم حملنا " شجاعتنا فى أيدينا" وأبحرنا الى الساحل الغربى من أفريقيا.

وفى الحال علم أصحاب المصالح برحلتى ، فاتصلوا بحكومة ساحل الذهب ، وعند وصولى الى " تاكورادى " ، وصل مسؤول ، وأخبر قبطان السفينة أنه غير مسموح لى بمبارحة السفينة ودخول البلد . وعلى أى حال حصلت زوجتى على إذن دخول . وحدث لى موقف مماثل فى "كاب كوست ". ولكن عن وصولى الى " سالت بوند" تلقيت رسالة من بعض أصدقائى القانونيين ، يلحون على لأغادر السفينة وأدخل البلد مهما كلف ذلك وأنهم سيدبون أمر حمايتى ، وستصان حريتى من أى خطر يتهددها. أعرف أنه لاتوجد أى تهمة موجهة ضدى . ولكننى ، بالرغم من أصحاب المصالح، فإن أولئك الذين حطموا شركتى يخشون من تسديد حساب قديم .

لو كنت مسافرا وحدى لأخذت بنصيحة أصدقائى . ولكننى لا أريد إزعاج زوجتى التى لم تسافر الى خارج أمريكا من قبل . ولا أريد استنزاف الموارد المالية التى فى حوزتها.

ولهذا تذرعت بفضيلة اقتضتها الضرورة ، فما أن وصلت لاجوس ، بوثائق سفر مكتملة ، حتى جاء صديقى ، دكتور ج. س فوجان ، وانضم الى ، ووقع على الضمان الضرورى [٤٨]

وبعد العثور على مسكن مناسب . كتبت الى جمعيات زراعية فى أجيبو أودى ، وأبيكوتا وإبادان ، عارضا عليهم خطتى . هؤلاء القوم كانوا يطلبون أموالا مقابل محصول لا وجود له أو لجمع كميات من المزارعين . وعندما أخبرتهم بأنه لن يكون هناك مبلغ يدفع مقدما ، ولكنهم

يستطيعون شحن محصولهم الى أصدقائى فى أمريكا عن طريق البنك ، على النحو المذكور من قبل .

وعدت قلة قليلة منهم بمحاولة الشحن. ولكن الآن بعد مرور أكثر من ستة أعوام ، وأنا أكتب هذا الكلام ، ما أزال أنتظر محاولة الشحن الموعود . إبان أيام المأزق.

كانت زوجتى تستطيع العودة الى بيت أمها ، حيث تتوفر لها كل أسباب الراحة. "سأذهب معك إلى أى مكان تذهب اليه . وقومك ، من يدرى ، لعل الله أتى بى لأساعد قومك ، تعال نعمل معا".

مدخراتى المالية نضبت و "سارت غربا " . فاتصلت بأصحاب جريدة " نايجريان تايمز" فطلبت السماح لى بكتابة مقال أسبوعى ، فسمحوا مقابل جنيه واحد للمقال ولأول مرة أرضى بمكافأة مالية ضئيلة كهذه ، فى خبرة صحفية بلغت نصف قرن . ولكن الجنيه يكفى لإيجار المسكن. ولا قانون للضرورة.

أفريكان تايمز وأورينت ريفيو.

لم يكن يثق فى اعتبار مجلس العموم المكان المناسب الذى يساعد الأمم المستعمرة على تحقيق العدالة. ولهذا السبب حدثنى عن رفضه دخول المجلس مرة أخرى ، لأنه يغص بالفساد والجهل . لأن أعضاءه فى الغالب غير مخلصين ، أو يهتمون بمصالحهم الذاتية . ولن تجد عندهم بطولة ، إلا إذا اتصل الأمر بمصالحهم الخاصة . وأن المصالح الرأسمالية قد أحكمت قبضتها على أجهزة الحزبيين ،بحيث غدا من الميئوس منه توقع العدل فى أى صورة من الصور، من جمعية تضم أمثال هؤلاء الرجال الذين تبدأ رؤيتهم للمسائل من وستمينستر وتنتهى فى داونيتنج استريت . وفى هذا القول جنوح ، لست بالضرورة متفقا معه كله . وإنما أسجل رأى دونيل والقرار النهائى بشأنه متروك للبريطانيين الذين يعترفون بأنهم أكثر علما منى .

وحدثنى عن أن قيامه بمساعدة بعض الثوريين فى أوربا ، اقتضى تخفيه طول الليل فى كوم أحد المعارض ، مما أضر بتركيبه الجسمانى الواهن، وجعله يعانى من آلام جسدية حادة حتى وفاته.

عندما زار محمد فريد بك إنجلترا عام ١٩١٤ حدثت مفارقة طريفة ، فقد قدمت محمد

فريد فى المحفل المصرى الذى أقيم على شرفه ، فى فندق سافوى ، بلندن واتفقنا على آتى بالبك فى يوم الاثنين القادم ، لزيارة فى منزله ببولتون وذهبنا اليه فى اليوم المحدد. ودلالة على المحاولة ارتدى دونيل الطربوش ، مثلما ارتدى " بلنت " جبة الشيوخ ، عند استقباله لى.

محمد فريد بك يعرف قليلا من الإنجليزية ، ومعرفة بلنت بالفرنسية ليست جيدة المستوى ، علاوة على أن فريد بك شغلته حركة دائبة خلال مدة إقامته فى لندن . فوصل " بورتون " وهو مرهق . دونيل يرغب فى الثرثرة ، وفرنسيته غير مبينة ، فلم يعد مملا فحسب بل مضجرا ، ولكى يتابع المرحوم فريد بك اتجاه الحديث استنزف طاقته العقلية . ولما لاحظت النعاس يلم به، ساهمت ببعض التعليقات رغبة فى إنعاش الأمور. ولكن المجاملة تقتضى ألا أؤول إلى مترجم لمضيفى ، ومع ذلك أحسست بقدوم الكارثة . دونيل يثرثر، وفريد بك ينحدر ببطء الى أرض النوم الهادىء. وكنت أجلس على مبعدة من البك ، فلا يتأتى لى أن أدوس على قدمه ، أو وخزه بدبوس . فأخرجت منديلى وعسطت بعنف ، فضحكا فريد بك جافلا ، وبسرعة قال بالفرنسية " نعم " نعم ، نعم " وكنت أتوقع أن يقول " لا " . لم يكترث دونيل كثيرا بالمقاطعة، ومضى مواصلا حديثه ، وعاد البك ينزلق فى الخزى . فمددت يدى لآخذ كتاب من المنضدة ، وقبل أن تمسك يدى بالكتاب، امتلأ الجو بشخير منضبط الإيقاع ، ولكنه جهورى الصوت، وكما يقول الروائيون ، غطى الارتباك فريد بك ، ولكنه سرعان ما أبدى اعتذاره الفياض. أصلح دونيل من نظارته المؤطرة بالذهب ، وقال بنبرة باردة " أخشى أن أكون قد أرهقتك ياصاحب السعادة ! "

عند هذا المنعطف أخذت بزمام الحديث ، موضحا ما تعرض له البك من إرهاق ومشقة ، نسبة لما شهد من اجتماعات كثيرة، وحفلات شتى أقيمت على شرفه . دونيل ذلك الروح الأنبل خلقا ، والأكثر عطفا ، هدأ بلطف فى سرعة ، وانجابت غمة عاصفة ذات طبيعة غير سارة ، لأنه بالرغم من أن دونيل رجل بكل معنى الكلمة ، فهو رجل إيرلندى ، بكل مافى الرجل الأيرلندى من نار مشتعلة وحساسية .

قرع مضيفنا الجرس طالبا الشاى ، وبدأ البك الحديث ، حريصا على ألا يستأثر دونيل بزمام الحديث مرة أخرى.

لم أرغب فى الإشارة الى الواقعة ، وظل البك صامتا إلى أن وصلنا الفندق ، وقبل أن يبارح " التاكسى " قال : " هل أحدثت ضجة عظيمة " ؟

وعندها ضحكنا معا من القلب .

وبعد أيام ، تغدى دونيل فى بيتى ، فأشار الى ابتهاجه بمسامرة البك ، وإلى استبشاره بملاقاته مرة أخرى ، كان يتحدث بإخلاص، وكنت أعرف أنه يعنى كل كلمة قالها.

وبالرغم من تقدمه فى السن ، ظلت قدراته العقلية قوية حتى النهاية . ويعرف قراء "أمريكان تايمز أند أورينت ريفيو" أنه يساهم بالكتابة من حين لآخر، وكان أيضا محرر الشؤون الخارجية فى صحيفة " آوت لوك " إلى أن انفجرت العداوات.

فى ثمانينيات القرن التاسع عشر، قال أحد المداومين على شهود مجلس العموم، إن دونيل أفضل خطيب فى المجلس ، وبالرغم من أن قدراته الخطابية لم تكن فى آخر أيامه على مستوى عظمتها فى شبابه ، فإنه إن لم يكن متفوقا فى آخر أيامه ، فهو قادر على جذب الجمهور، على نحو لايتسنى إلا لعدد قليل من خطباء اليوم (١٩٣٧).

وكان معروفا فى وسط جمعية " كودجرز" العريقة ، ومساهما فى مناقشاتها مساء كل أحد.

وقال المداوم على شهود جلسات مجلس العموم المذكور قبلا ، إن دونيل رجل حق . إنه رجل بأعلى معانى الكلمة وأسماها. إنه رجل حتى أخمص قدميه . لأنه سليل ملوك إيرلندا، وبوفاته فقدت واحدا من صفوة أصدقائى القليلين المجربين . إنى مدين له بأياد كثيرة قدمها عن طواعية، تدل على عطف نبيل . إنى لأرعى ذكراه، مصليا من أجل أن تنام روحه بما تستحق من سلام.

٣٦- الفصل الثامن والعشرون
صحيفة " كومت " ولم ؟

كومت ١٩٣٨/٣/٥

حين كنت أعمل فى صحيفتى " تلجراف وتايمز " أيقنت بأن الحاجة ماسة لإصدار مطبوعة أسبوعية رصينة ذات طابع إخبارى فى نيجريا .

إبان عملى فى صحيفة " تلغراف " لم أحاول إنماء الفكرة التى خالجتنى ، ولم تكن الإمكانات ولا الوسائل الضرورية متاحة يومئذ . فلما التحقت بصحيفة " تايمز" قررت وضع الخطة موضع التنفيذ.

لاحظت أن صحيفة " تايمز" تصلها دوريا مجموعة من المقالات من قبل الوكالات الصحفية المشهورة فى لندن. وكان لايستفاد منها، فتأخذ المقالات طريقها إلى سلة المهملات . وعند فحص تلك المقالات . تبين أنها من إعداد نخبة من أفضل الكتاب وأشهرهم فى بريطانيا ، وأن فيها كلاما يستحق أن يسمع، فى غالب الأحيان. ولأن المقالات تضم صورا لكتابها، ولمشاهد تتصل بالمواضيع، فقد وجهت بإعداد تلك الصور إعدادا فنيا لتنشر مع المقالات ، وهكذا سطعت صفحات عدد السبت . وفى الوقت نفسه ، أرسلت سيدة من شمال نيجريا اتخذت اسما قلميا هو " إيف " مقالة عن " البيت " وأبدت رغبتها فى المساهمة بمقال عن شؤون المرأة كل أسبوع.

قبلت طلب السيدة فى الحال، ومن ثم صارت مقالتها معلما أسبوعيا فى " تايمز" وبدأ القراء يقبلون على عدد يوم السبت رويدا رويدا ، والى جانب مقال السيدة " ايف " تنشر مقالتى ، مزينة بالصور الآتية من لندن عن القضايا الدولية .

ومن الجلى ، أننى كنت أتحرك بسرعة ، عند من يديرون الصحيفة ، وظهرت شكاوى من النفقات الإضافية التى جرتها جهودى من أجل سطوع عدد السبت.

إن الإرهاق وعملى الدؤوب على إخراج عدد عيد الميلاد عام ١٩٣٢ فى موعده ، علاوة على انشغالى بعدد السبت ، أدى الى أن يوجه د. " فراى " أمرا باحتجازى فى المستشفى ، حيث مكثت أربعة أسابيع ، كنت خلالها أكتب مقالى الأسبوعى ، وأنا مستلق على سريرى .
وصلنى خطاب بإعفائى من العمل، ومنحى مهلة شهر، وهذه هى المرة الأولى التى يفصلنى فيها مخدمى من العمل، على مدى خبرة طويلة متنوعة.

ثم أشرفت على تحرير صحيفة " نايجريان ديلى تلجراف " ستة أشهر ، لقاء خمسة وعشرين جنيها فى الشهر. إلى جانب كتابة مقالى الأسبوعى فى " تايمز" وسارت الأمور رخوا، حتى أجبرتنى الظروف المالية فى " تلجراف " على الاستقالة .

فى تلك الآونة تخلى المدير الإدارى فى " تايمز" عن عمله ، وترك العدد الخاص بعيد الميلاد فى أيدى أصحاب الجريدة ، لأ أحد فيهم مؤهل قادر على إنجاز العدد .

فاستدعونى مستغيثين ، فأنقذت الموقف ، وأخرجت العدد ، ووضعته بين أيدى القراء ، قبل عيد الميلاد. وأرهقتنى كثرة العمل وأصابتى بمرض شديد استلزم منى قضاء أربعة أسابيع فى المستشفى .

أحست زوجتى ، وشخصى، بالحاجة المحلية الى التعليم الصناعى . فقررنا إنشاء نواة صندوق خاص بذلك . بإقامة حفلات موسيقية ومسرحية. وحدثت الكونيل " رو" بالأمر، فاقترح على استمالة مدير التعليم إ.ر.ج هاس لتأييد الموضوع.

السيد هاسى أبدى رغبته فى التعاون . ومنحنا قطعة أرض . وأقمنا حفلة ، أسهم فيها أوربيون وأفارقة ، ولكن العائد منها - بعد خصم النفقات - كان أقل من عشرة جنيهات.

منحتنى مصلحة الأراضى قطعة أرض فى " بابا" ، ولم تكن التربة ذات خصوبة . وبدت الشروط المملاة معوقة للعمل . واضطررنا لتعليق الأمر، إلى حين تمكننا من تدبير قطعة أرض خاصة بنا، وبناء المعهد الصناعى ، دون الخضوع لأية قيود أو شروط.

على أية حال مافقدنا الأمل . فإن الجنيهات القليلة العائدة من الحفل، ماتزال موجودة.

حينما كنت فى فترة مهلة الشهر التى سأترك بعدها صحيفة " تايمز" شرعت فى وضع

الخطط ، لإصدار المطبوعة الأسبوعية التى تجمع بين خصائص الجريدة اليومية والمجلة والتى رسخت فى ذهنى من قبل.

ولأن الإمكانات المالية، لم تكن كافية لتحقيق تلك الخطط على الصعيد العملى اتصلت ببعض معارفى ، على أمل الحصول على المساعدة المالية الضرورية لتسجيل شركة طبع ونشر. وكانت هناك وعود كثيرة ، وماوفوا بها ، ولهذا حملت شجاعتى بين يدى ، ومضيت لإنجاز الشىء الذى وصفه أصدقائى بأنه مستحيل.

دائما يسألوننى ، لماذا سميت مطبوعتى " النجم ذا الذنب " " كومت " ، والإجابة بسيطة ، ولأنه يظهر مما تقدم أن الإمكانات المادية شحيحة، ولكن لا تنقصنى الشجاعة ولا الثقة فى نفسى ، وفوق ذلك الثقة بالله ، فإن أكن شخصا لا يخلو من نقص ، فقد سعيت دائما بسماحة نفس لمساعدة أولئك الذين لم يكونوا محظوظين مثلى ، دون طمع فى جزاء أو مكافأة. إننى أعرف أن الرب العظيم الذى يقرأ القلوب ويعلم بواعث البشر ، لن يهملنى فى أشد أوقات الحاجة وأمضها. وأنه بدون عونه وعنايته ماكان يتسنى لى أن أنجز شيئا. فقد شملتنى عنايته على مدى خمس سنوات محفوفة بمخاطر وأهوال، بدا من الصعب التغلب عليها.

وقدعصمتنى زوجة وفية بسماحة نفس . مهما يكن إيمان الإنسان ، فإنه لا يعرف المخبوء فى المستقبل . لا أعرف المدى الزمنى الذى ستعيشه مطبوعتى الأسبوعية ؟! ولهذا السبب سميتها " الكومت – النجم ذا الذنب ".

فمن المعروف أن النجم ذا الذنب يظهر بعد فترات قد تطول أو تقصر ثم يختفى فإن اختفت صحيفتى بعد شهر ، أو بعد سنة ، أو بعد سنين ، فإن أصدقائى وغيرهم، سيسألون ، ماذا ؟ هل مات النجم ذو الذنب "؟ وفى هذه الحالة ستكون الإجابة ماثلة فى اسم الصحيفة " النجم ذى الذنب " الذى يظهر فى الفضاء ، ولكنه لا يضيع .

صحيفة " كومت – النجم ذو الذنب " غطت البلد ، وأكملت دورة بلغت خمس سنوات كاملة ، دون توقف ، وماتزال ماضية . أعتقد أننا قدمنا خدمة صحفية مخلصة . وعلى أى ، فقد حاولنا. أما المستقبل ، فلا أحد يعلم .

الهوامش

١)

Africanism, - Ian Duffield : Duse Mohamed Ali and Development of pan-
ph. D. thesis, univ. of Edimburough,1971.

٢) كتبت مجلة «هل لادى» عام ١٩٥٢ أن دوس محمد على كتب مسرحية عنوانها «ماثو الليبي» "Matho the Libyan" . عن رسالة دونيلدص ٥٨ وهامشها.

٣) المرجع السابق ، الصفحة نفسها.

٤)

Khalil Mahmud : Ashort Biography of Duse Mohammad Ali pxxix

مقدمة خليل محمود لكتاب دوس محمد على : فى بلاد الفراعنة، أعاد طبعها على الآلة الكاتبة ونسخها بالرونيو، وقد أهدى خليل محمود نسخة من هذا المقال إلى كاتب هذه السطور ، بصورته الجديدة، ص٢٩.

٥) المرجع نفسه. ص ٣٠ - ص ٣١.

٦) عن دونيلد ص ٤٦٢.

٧) انظر دونيل ص ٤٧٨.

٨) المرجع السابق ص ٤٨٦ وص ٤٨٠

٩) عن المرجع نفسه ص ١٥٧.

١٠) ونيلد ص ٥١٥ وص ٧٢٩.

١١) خليل محمود ص ٣١.

* أفدت فى كتابة هذا الفصل من أطروحة دونيل إفادة كبيرة، ومن الدراسة التى أعدها خليل محمود عن سيرة دوس، وصدرت بها الطبعة الثانية من كتاب «فى بلاد الفراعنة» الصادرة عن جامعة إبادان.

أما فى اللغة العربية، فلم أقف إلا على عملين اثنين يعرفان بدوس، ويسلطان الضوء على شخصيته، وكلاهما يستفيد من الدراسة التى كتبها خليل محمود ، ولم يتسن لأى منهما الاطلاع على أطروحة دوفيلد.

١- أول العملين مقال علمي موثق عنوانه «محمد على دوس وحركة الجامعة الأفريقية» بقلم إيزيس إسحق مرقس الباحثة بهيئة الاستعلامات المصرية بالقاهرة، ونشر بالعدد الأول من «أفريقيا» وهى كتاب غير

دورى ، يصدر عن اللجنة المصرية لتضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية، دار المستقبل العربى، القاهرة، أكتوبر ١٩٨٧.

٢- وثانى العملين مقالة مطولة عن دوس ، نشرتها جريدة الشرق الأوسط التى تصدر من لندن، فى يوليو ١٩٨٩، من إعداد الكاتب المصرى: على شلش.

١٢) وليام قلادستون .GLADSTONE , 1809-1898، رئيس وزراء بريطانيا أربع مرات، من أصل إسكوتلاندى، درس فى أكسفورد الكلاسيات والرياضيات، خطيب مفوه ، ورجل دولة لا يشق له غبار، ربما يقف على رأس قائمة أفضل وزراء بريطانيا، أنظر دائرة المعارف البريطانية، ج ١٠ ، طبعة امريكا، ١٩٦٠ ص ٣٨٥- ٣٩٧.

وجون مورلى Morely ١٨٣٨- ١٩٢٣ ، إنجليزى ، رجل دولة وكاتب، دخل البرلمان فى عهد قلادستون وتولى وزارة شئون إيرلنذا فى حكومة قلادستون مرتين، وبعد وفاة قلادستون، اهتم مورلى بكتابة سيرته، معتمداً على مادة غزيرة ضخمة، فجاءت فى ثلاثة مجلدات، وكانت معالجة متقنة. ، متسمة بالتعاطف والعدل وطبعت أول مرة عام ١٩٠٣، انظر دائرة المعارف البريطانية ج١٥، طبعة أمريكا، ١٩٦٠ ص ٨٠٥-٨٠٦.

١٣) Eleonra Duse إلينورا دوس، ممثلة إيطالية، ولدت عام ١٨٥٨ فى إيطاليا، وأدت أدواراً مسرحية شتى، فى مسارح إيطاليا ولندن وأمريكا، كانت ألمع ممثلة فى عصرها، وكان برنارد شو من النقاد المعجبين بها، توفيت عام ١٩٢٤، انظر دائرة المعارف البريطانية ج٥ طبعة أمريكا، ١٩٨١ص ١٠٩٥-١٠٩٦.

ولكن أسم دوس معروف فى العربية، فهو علم على قبيلة، وهو مألوف فى مصر، فهناك عائلة قبطية مشهورة تحمل اسم دوس، وهناك بعض الأعلام المصريين يحمل اسم دوس، مما يثبت أن قول الكاتب بأنه الوحيد الذى يحمل اسم دوس غير صحيح. وكلمة دَوْسْ مستعملة فى السودان بمعنى حفظ، وبمعنى مشاجرة أو قتال.

١٤) يروى دوس فى مقدمة كتابه «فى بلاد الفراعنة» الذى طبع أول مرة عام ١٩١١م، أنه كان موجوداً فى مدينة الإسكندرية، عندما قصفها البريطانيون، وأن والده الضابط فى الجيش المصرى، قد جاء بنفسه، عن طواعية، فى متاريس التل الكبير، من أجل استقلال مصر، ويقول دوس عام ١٩١١م ، إنه مقيم فى بريطانيا منذ عام ١٨٨٤م، وأن تعليمه فى بريطانيا بدأ منذ عام ١٨٧٦.

LTD, 2Ed. Duse mohamed: In The yand of the Pharaors, Frank Casse Co. London, 1968, p.2.

ولكنه لم يذكر أمر مقتل أخيه ، إلى جانب ما ذكره عن مقتل أبيه.

١٥) زارت فرقة «باريت» أمريكا عام ١٨٨٦ ، حيث قدمت مسرحية كلوديان المعلومة مستقاة

من «دوفيلد» فى أطروحته، انظر.

Africanism, – Lan Duffield: Duse Mohamed Ali, the Development of pan
Ph. D. thesis, Edinboyth university, 1971, volime1

١٦) الروائى الشهير، مؤلف رواية «قصة مدينتين» و «أوليفر تويست» ولد عام ١٨١٢. وتوفى عام ١٩٧٠. وكان رئيساً لتحرير جريدة «ديلى ميل»

١٧) جورج أغسطس سالا ١٨١٨-١٨٩٥م، صحفى إنجليزى ولد في لندن، كتب فى صحف أصدرها «شارلس دكنز»، اشتهر بإسهامه فى تحرير جريدة «ديلى تلجراف»، حيث قدم أفضل أعماله، مراسلاً وكاتبا للافتتاحيات والمواضيع الخطيرة، اصدر عام ١٨٩٢ جريدته «صحيفة سالا» وكانت شهرته يومئذ في القمة، ولكن أدركها الفشل الذريع، وضاقت به الحال . فاضطر لبيع مكتبته، دائرة المعارف البريطانية، ج١٩ ص ٨٦٥.

١٨) جوبتر: الإله الأكبر عند الرومان والطليان.

١٩) «فليت استريت» شارع فليت، هو شارع الصحافة فى لندن.

٢٠) ولد إدوارد السابع عام ١٨٩٤، وصار أميراً لولز عام ١٩١٠. ونصب ملكاً في مكان أبيه، على عرش بريطانيا، عام ١٩٣٦م، وتنازل عن العرش فى ذلك العام ١٩٣٦، مؤثرا الزواج من المرأة التى أحبها، حين اقتضت التقاليد الملكية أن يختار بين البقاء فى العرش، والتضحية بالحب، و الارتباط بمحبوبته والتخلى عن العرش.

أنظر ترجمته فى دائرة المعارف البريطانية ج٨ ص ١٣-١٤.

٢١) مسرحية «هايباتيا Hypatia قدمت فى لندن من ١٨٩٣/١/٢ حتى ١٨٩٣/٤/١٥. عن أطروحة دوفيلد Duffield, vol.1.p.32.

٢٢) أوسكار وايلد ١٨٥٤-١٩٥٥م، قدمت مسرحيته «امرأة لا أهمية لها» على المسرح أول مرة عام ١٨٩٣، وهو أديب بريطانى، كاتب مسرحى، وشاعر، وناثر ، ومتحدث لبق، ومن دعاة مفهوم «الفن للفن» كان متحرراً ، وحوكم أمام القضاء، وحكم عليه بالسجن مدة عامين، فى عام ١٨٩٠، بتهمة الشذوذ، وخرج من السجن عام ١٨٩٧، وأقام في أوربا.

انظر ترجمته فى دائرة المعارف البريطانية ج٢٣ ص ٥٩٦.

٢٣) The Ballad of Reading God صدر عام ١٨٩٨، بعد خروج الكاتب من السجن.

٢٤) لعل دوس محمد على يعنى العملين الذين ذكرهما من قبل.

٢٥) منظمة دينية خيرية، أنشأها وليم بووت الذى مارس التبشير فى شوارع لندن ومسارحها، وتتلاءم أفكار هذه المنظمة المسيحية مع المبادئ الإنجيلية، كالدعوة إلى معرفة الخطيئة والتوبة، وأن الواجب الحقيقى

هوالتضحية بالذات من أجل خلاص الآخرين. بدأ تبنى فكرة المنظمة عام ١٨٧٨، وتكون الجيش بقيادة «الجنرال بووث، ومارس نشاطه الروحى. وأصدر بوث كتابه «انجلترا الحالكة والمخرج»، وعمل جيش الخلاص فى مجال الرعاية الاجتماعية، بتقديم وجبات إفطار مجانية، وتدبير مأوى يلجأ إليه فى الليل من لا مأوى لهم، وتوطين جماعات فى أراض وراء البحار، ودفع الناس للعمل فى الزراعة، وتدريب قوم على أداء أعمال أو حرف، وضمان تشغيلهم، ولكن العمل الأساسى لجيش الخلاص هوالتبشير والمجال الروحى، وقد انتشرت فكرة منظمة جيش الخلاص فى أمريكا، وتأسست فروع كثيرة فى أقطار شتى. يعتمد الجيش على التبرعات والصدقات وريع ما يصدره من كتب. : دائرة المعارف البريطانية ج١٩ ص ٩١٢- ٩١٣.

٢٦) Dada Bhai Baorohji ، سياسى، أول هندى يدخل البرلمان البريطانى من عام ١٨٩٢ حتى ١٨٩٥ - ممثلاً لدائرة «كليركين ول» عن حزب الأحرار. (عن أطروحة دوفيلد ص ٣٨.)

٢٧) اللورد سالزبورى ١٩٣٠ - ١٩٠٣، رجل دولة بريطانى، معاصر لقلادستون، من المحافظين، ترأس الوزارة البريطانية ثلاث مرات، أيد بلغاريا عام ١٨٨٥، حين أعلنت انفصالها من الدولة التركية وانضمت للشمال، دائرة المعارف البريطانية ج ١٩ ص ٨٦٥.

٢٨) كاتب بريطانى ذو اهتمام بأدب الشرق الأوسط، ترجم إلى الإنجليزية أعمالاً أدبية من الفارسية، ولا سيما أعمال حافظ الشيرازى وعمر الخيام.(عن أطروحة دوفيلد هامش ص ٣٩.)

٢٩) يعنى الكاتب بالبرلمان الملكى إنشاء برلمان يمثل كل أقطار الإمبراطورية البريطانية يومئذ، فيما نحسب، على النهج الذى تحقق لفرنسا، بتمثيل مستعمراتها في برلمانها بباريس. يظهر أن دوس محمد على كان يريد لبريطانيا أن تمثل مستعمراتها في مجلس العموم بلندن.

٣٠) عرض دوس للاستعلاء العنصرى، عن البريطان، واستكبارهم على الشرقيين، فى تعال يمتزج بالازدراء، وقال إن جندياً بريطانيا فى الهند، قادما لتوه من منطقة «وست إند» فى لندن، يطلق كلمة «نيجر» Nigger على مهراجا أو راهب هندوسى دون تفريق، يدفعهم بهذه الكلمة الدالة على احتقار واستصغار شأنه، أنظر، فى بلاد الفراعنة: Düse , pp.3-4.

٣١) الفرنسى الذى أشرف على إنشاء قناة السويس.

٣٢) إشارة واضحة إلى أن دوس المسلم أدى الصلاة فى الكنيسة، ويظهر من سرده أنه ملم بالأمر، وأن تلك الصلاة معروفة مألوفة عنده.

٣٣) جس براون وأوكتوروون ، مسرحيتان لكاتب مسرحى ايرلندى عاش فى العهد الفكتورى، الأولى تنطوى على موقف من المسلمين والهنود، قام فيها دوس بدور مسلم قاس متآمر، الثانية عن اعتداء البيض على النساء الملونات في جنوب أمريكا، واسم المؤلف L.Boucicault , انظر دوفيلد ص ٥٣- ٥٤.

٣٤) Jew'a Revenge مسرحية دوس عرضت أول مرة عام ١٩٠٤ على مسرح بلندن، وعرضت عام

١٩٠٦، بمانشستر، ونالت استحسان جريدة المسرح ,Stage فقالت عن دوس إنه ذو كفاءة مسرحية عظيمة، وأن عرض المسرحية كان رائعاً، Duse . shows great dramatic power وفي مسرحية أسرار الحريم أدى دوس دور نخاس عربي يدعى إبراهيم مراد وقدمت عام ١٩٠١، انظر دوفيلد ص ٧٨ وص ٦٦.

٣٥) قدمت المسرحية في لندن عام ١٩٠٣ - ١٩٠٤، ونال استحسان جريدة المسرح، دونيل ص ٧٠.

٣٦) من المواقف التي يعترف فيها صراحة بأداء الصلاة في كنيسة.

٣٧) صارت لينينجراد بعد عام ١٩١٧، وقد زارها دوس قبل عام ١٩١٧.

٣٨) The lily fo Bermude عثر دوفيلد على مخطوطة هذه المسرحية، ومدون عليها أنها من تأليف دوس محمد وأرنست تريتجهام، وأن تاريخ الإذن بتقديمها عام ١٩٥٩. انظر رسالة دوفيلد ص ٨١.

٣٩) New Age

٤٠) أ.ر. أوراج. A.R .orage مثقف بريطاني موسوعي عصامي، أشرف على تحرير مجلة New Age المعبرة عن الاشتراكية التي يدعو لها الفابيون في لندن، واعتمد في تحريرها على مساهمات صفوة جيدة من الكتاب البريطانيين المتميزين، وعلى مساهمات الواعدين من الموهوبين. وكانت المجلة تحت رعاية جورج برنارد شو، ومن كتابها ه. ج. ولز. نشر فيها دوس أحد عشر مقالا، وبديهي أن «أوراج» ساعد محمد على دوس على نشر كتابه «في بلاد القراعنة» انظر دوفيلد ص ٨٩ ومابعدها.

٤١) رجل أعمال من سيرياليون، توفي عام ١٩٢٤ م . دوفيلد ص ١٧٣ - ١٧٤.

٤٢) المفروض أن يحمل هذا الفصل رقم ٢٢ ولكنه بدلاً من ذلك في الصحيفة كان يحمل رقم ٢٠ وقد حافظ خليل محمود في مخطوطته على هذا الترقيم.

٤٣) Aubery Herbert أوبري هربرت ١٨٨٠ - ١٩٢٣، عضو في البرلمان البريطاني، عن حزب المحافظين. من المتعاطفين مع تركيا العثمانية، وهو يتحدث التركية، ومن المساندين لقضية ألبانيا. زار تركيا وألبانيا وبعض الأقطار العربية. وهو من الذين يؤمنون بالرأي الشائع أن الثورة الكمالية في تركيا، وليدة تدبير يهودي - ماسوني. عن رسالة دوفيلد، هامش ص ٤٣٢.

٤٤) وضع دوفيلد يده على وثائق شتى في ملفات جهاز المخابرات البريطانية M15 تؤيد ما ذهب إليه دوس، إذ كان خاضعاً لمراقبة دائمة، وداهمت سلطات الأمن مكتبه وفتشته كثيرا، واهتمت بتجميع معلومات عنه، ومتابعة كتاباته ونشاطه. ولعلها موقنة بأن له صلة ما بتركيا العثمانية. بل وقع ما يدل على إصرار الحكومة البريطانية على أنه مواطن تركي، أو من رعايا تركيا، وأنه ليس مصريا بحال. وقد خضع دوس للتحقيق مرات.

٤٥) Torkey in Agony تركيا في أوان الكرب كتاب ألفه الكاتب الفرنسي المتعاطف مع تركيا «بيير

لوتى Pierre Loti ,ترجمه إلى الانجليزية «جورج رافالوفيتش» ونشرته دار مجلة دوس «أفريكان تايمز آند أورينتال ريفيو» للجمعية العثمانية. وأدى المترجم عملية الترجمة مجاناً، وذهب العائد من بيع الكتاب إلى صندوق الجمعية العثمانية، عام ١٩١٣م ووزع الكتاب، حتى وصل الهند، وكان مصدر إزعاج للسلطات البريطانية هناك. دوفيلد ص ٤٤٧ - ٤٤٩.

٤٦) تقع «أويو» فى منطقة اليوربا، فى الجزء الجنوبى من نيجيريا.

٤٧) روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية، وقد كتب دوس محمد على كتابه «فى بلاد الفراعنة» رداً على أقوال أبداها روزفلت.

٤٨) حدث ذلك عام ١٩٣٣، ومن بين من عضدوه فى لاجوس: هربرت ماكاولى، انظر دوفيلد ص ٧٢٧.

قائمة مطبوعات

مركز البحوث العربية

للدرسات والتوثيق والنشر

١- مصير القطاع العام في مصر	د. فؤاد مرسي		١٩٨٧
٢- المشكلة الطائفية في مصر	تحرير د. لطيفة الزيات وآخرون		١٩٨٨
٣- سكان مصر	د. وداد مرقس		١٩٨٨
٤- ازمة مياة النيل	د. رشدي سعيد وآخرون		١٩٨٨
٥- ببليوجرافيا الطبقة العاملة المصرية	إعداد اشرف حسين		١٩٨٨
٦- ندوة حول إجراءات الاصلاح الاقتصادي في الجزائر	د. احمد هني		١٩٨٨
٧- ثلاث قراءات سوفيتية في البيريسترويكا	ترجمة عصام فوزي		١٩٨٨
٨- المدرسة الاشتراكية في الصحافة	د. عواطف عبد الرحمن		١٩٨٨
٩- قراءة نقدية لكتابات ناصرية	د. عبد العظيم انيس		١٩٨٩
١٠- الاوراق الكاملة لندوة مهدي عامل	نشر مشترك مع دار الفارابي ببيروت		١٩٨٩
١١- المجتمعات التابعة والتنمية المستقلة	مصطفي نور الدين عطية		١٩٨٩
١٢- البيريسترويكا في عيون الآخرين			١٩٩٠
قراءات من الولايات المتحدة - فرنسا - يوغوسلافيا - جنوب افريقيا			
١٣- المسار الاقتصادي في مصر وسياسات الاصلاح			١٩٩٠
دراسات نقدية في الأزمة الاقتصادية	د. ابراهيم العيسوي		
١٤- دليل قرارات المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي	اعداد : ابراهيم برعي		١٩٩٠
١٥- ثقافة المقاومة ومواجهة الصهيونية			
أعمال ندوة لجنة الدفاع عن الثقافة القومية			١٩٩٠
١٦- الانتخابات البرلمانية فى مصر	نشر مشترك مع دار سينا للنشر		١٩٩٠

١٧- من لا يعرف شيئا فليكتب		١٩٩٠
خربشات رجل شارع من بلاد النفط	محمد عبيد غباش	
١٨- الموقف من القص فى تراثنا النقدى		١٩٩١
	د. ألفت كمال الروبى	
١٩- أزمة الاسلام السياسى		١٩٩١
الجبهة الاسلامية القومية فى السودان نموذجاً	د. حيدر إبراهيم	
٢٠- التكيف الهيكلى والأزمة الزراعية فى أفريقيا	ثانديكا مانداويرى	١٩٩١
	ترجمة د. حسن أبو بكر	
٢١- الحركات الاجتماعية والعملية الديمقراطية فى أفريقيا		١٩٩١
	ترجمة أشرف حسين	

نشرات

١- نشرة البحوث العربية

٢- مختارات الجمعية الأفريقية للعلوم السياسية

٣- مختارات المجلس الأفريقى لتنمية البحوث الاقتصادية والاجتماعية

تحت الطبع

- قضايا المجتمع المدنى فى ضوء فكر جرامشى (مع دار عيبال بنيقوسيا)
- التكوينات الاجتماعية ، الفكريات الشعبية - فى مصر
  ندوة مهداة لذكرى أحمد صادق سعد (مع دار عيبال بنيقوسيا)
- العمال والسياسة فى مصر ترجمة أحمد صادق سعد
- المنظمات الفلاحية فى أفريقيا
- الصراعات الأثنية فى أفريقيا

رقم الايداع

١٩٩٢/١٥٤٣

رقم الايداع

١٩٩٢/١٥٤٣

هذا الكتاب

يتنافس المتخصصون فى مصر والسودان على انتماء محمد على دوس (١٨٦٦ - ١٩٤٤) منذ كتب عنه الدكتور عبد الملك عودة فى مصر وخصص له معهد الدراسات الأفريقية بالخرطوم إحدى رسائله العلمية.

ولم يدفع كل ذلك محمد على دوس إلى ساحة الفكر السياسى والعمل السياسى العربى والافريقى بما يستحقه، رغم نشأته في أسرة «عرابية» وحتى تشييع جماهير إيبادان فى نيجيريا لجنازته عام ١٩٤٤.

وفى رحلة امتدت من بيت دكتة القوات البريطانية فى الاسكندرية ١٩٨٢ إلى حى الملونين التعساء في لندن، إلى وسط الزنوج المقهورين في الولايات المتحدة، إلى العواصم المناضلة من أجل الاستقلال في غرب أفريقيا، كانت رسالة «محمد على دوس» هى «الوطنية» ، وهى التى جعلته يتصدى لدعاوى الرئيس روزفلت ضد الوطنيين المصريين عام ١٩١١، كما جعلته يقف إلى جوار مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول فى رحلتهم ضد الاستعمار في عواصم الغرب. وهى نفسها التي جعلته أحد أبرز الراعين «لاتحاد المسلمين والمسيحيين»، و«اتحاد الملونين»، و«اتحاد الوطنيين الأفريقيين والآسيويين» في الأطر الوطنية القومية...بل ومن موقعه فى لندن كان يساعد مقاتلى الحركة السنوسية والتنظيمات التركية الوطنية في مطلع هذا القرن ولعل ذلك هو السبب في أن محمد على دوس لم يجد عناية فى كثير من الأدبيات التى أرخت لحركة الجامعة الافريقية فى الغرب في الوقت الذي تجاهلته أيضا الدراسات العربية..

ونحن فى أشد الحاجة لمثل هذا «النفس الوطنى» . مهما اتفقنا معه واختلفنا.. نجد أن جهد الدكتور « أحمد محمد البدوى» الذى جاء من الخرطوم حاملاً ذكريات محمد على دوس لتنشر في القاهرة، يستحق تقديرنا وإعزازنا .. فى مثل هذا الوقت.